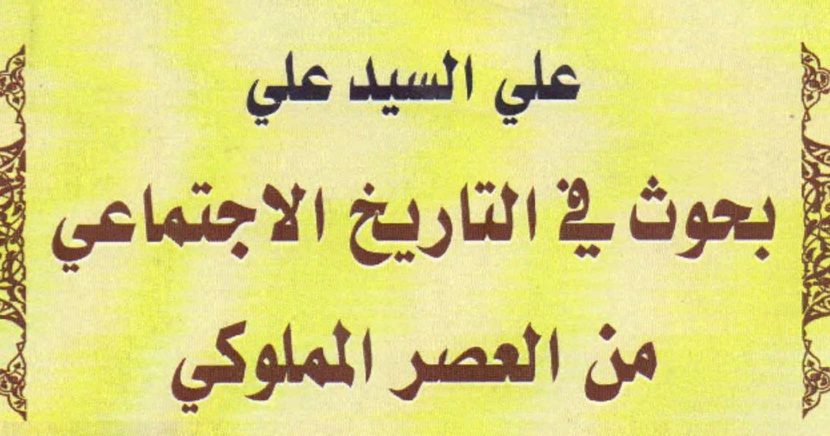
المجلس الأعلى للثقافة



علي السيد علي

بحوث في التاريخ الاجتماعي من العصر المملوكي

بحوث فى التاريخ الاجتماعي

من العصر المملوكي

المجلس الأعلى للثقافة

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

علي، السيد علي
بحوث في التاريخ الاجتماعي من العصر المملوكي/
تأليف: علي السيد علي
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ط١، ٢٠١٤
٢٦٤ص؛ ٢٤ سم.
١- مصر - تاريخ - عصر المماليك (١٢٥٠ - ١٥١٧م)
٢- مصر - الأحوال الاجتماعية
(أ) العنوان ٩٥٣,٠٠٨٢

رقم الإيداع ٢٠١٢/١٣٩٦٦
الترقيم الدولى 978-977-718-000-9
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

الأفكار التى تتضمنها إصدارات المجلس الأعلى للثقافة هى اجتهادات أصحابها، ولا تعبِّر بالضرورة عن رأى المجلس.

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٢٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٢٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel. : 27352396 Fax : 27358084.

www.scc.gov.eg

بحوث فى التاريخ الاجتماعى
من
العصر المملوكى

علي السيد علي



٢٠١٤

المحتويات

- التقديم 7
- الهجرات المغولية إلي مصر وآثارها 13
- دور الأسري الأجانب في مصر 67
- القاهرة في عيون الرحالة الأوربيين 105
- سبل نقل الخبرة لدي أبناء الطوائف الحرفية 153
- النازحون إلي القاهرة من الريف المصري 177
- التراجمة في عصر سلاطين المماليك 205
- الرعاية الاجتماعية للعبيد والجواري السود 233

تقديم

الحضارة العربية الإسلامية علي مر عصورها التاريخية عامة، وعلي عصر سلاطين المماليك ٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م خاصة، حافلة بكثير من المعطيات الدالة علي مدي ما وصل إليه أبناء هذه الحضارة من رقي وازدهار، والدارس لكتب التراث المملوكي تستوقفه كثير من الحقائق الدالة علي هذا الرقي في شتي ميادين النظم الإدارية، والحربية، والاقتصادية؛ بل وفي المجالات الثقافية والاجتماعية. بعد انتصار المماليك علي التتار في موقعة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م وهم الذين لم يُهزموا من قبل مثلما هُزموا في موقعة عين جالوت.

ووجه الأهمية في دولة سلاطين المماليك أن مركز الدراسات الإنسانية بعد سقوط بغداد علي أيدي التتار أو المغول سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م كان قد انتقل إلي هذه الدولة في شتي نواحيها في عاصمتها القاهرة في مصر، ودمشق والقدس وغيرها ببلاد الشام، ومكة المكرمة والمدينة المنورة في الحجاز.

وفي العصر المملوكي بشقيه، شهدت المجتمعات في مصر بوجه عام، وفي مجتمعات بلاد الشام والحجاز بوجه خاص، ازدهار فنون اللهو والطرب، والغناء، نتيجة **للرواج الاقتصادي الذي عم تلك البلاد معظم ذلك العصر، فضلاً عن أن هذا العصر أثمر فنًا جديداً لم تعرفه الثقافة العربية الإسلامية من قبل، ألا وهو فن النقد الاجتماعي والدعوة إلي الإصلاح الديني والاقتصادي.**

كما أن الدارس لتاريخ دولة المماليك، يجد نفسه أمام عدة عوامل أدت إلي طبع الحياة الاجتماعية بطابع خاص مميز، وأول هذه العوامل طبقة المماليك التي دخلت علي مجتمع مصر والشام والحجاز وحكمته حكمًا مستقلاً مدة تقارب الثلاث قرون.

والعامل الثاني هو الحروب الصليبية وما نجم عنها من نمو العلاقات التجارية بين الشرق العربي والغرب الأوربي، وما تحقق للطرفين من ثروة طائلة كانت لها انعكاساتها الواضحة في مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية في ذلك العصر، فضلاً عن تأثر دولة سلاطين المماليك بالنظم الاقطاعية التي تم اقتباسها من الصليبيين.

أما العامل الثالث فهو إحياء الخلافة العباسية في مصر علي يد السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م وما ترتب عليه من نشاط كبير في مختلف ميادين الحياتين العلمية والدينية، وأثره الواضح في المجتمع المصري في ذلك العصر.

كما أن هذا العصر شهد كثيرا من هجرات العناصر المغولية إلي بلاد الشام ومصر، تلك الهجرات كان لها أثرها في صبغ الحياة بصبغة خاصة في كثير من النواحي الثقافية والاجتماعية، وهو ما سوف يكشف عنه البحث الأول وهو بعنوان : الهجرات المغولية إلي مصر في العصر المملوكي وآثارها الثقافية والاجتماعية.

كذلك تميز هذا العصر بكثرة حركة النزوح أو الهجرة، سواء كانت من المشرق العربي أو مغربه، أو النزوح إلي العاصمة المملوكية، والتي غدت أهم صرح للثقافة والحضارة العربية في العالم العربي والإسلامي، وما كان لهذه الهجرات من أثر في التوسع العمراني لكثير من أحياء القاهرة، ودور هذه الهجرات في الازدهار الأدبي، وتغير كثير من التقاليد والعادات، وهذا ما سوف يكشف عنه بحثنا عن النازحين إلي القاهرة في ذلك العصر.

بل، ويعد عصر سلاطين المماليك من العصور المثيرة في تاريخ منطقتنا العربية، إذ هو يمثل منعطفا تاريخيًا مهمًا في تاريخ الشرق العربي، حيث نجح سلاطين المماليك في إخضاع كثير من شعوب المنطقة لسيطرتهم، كما نجحوا في استكمال المهمة التاريخية للدولة الأيوبية "٥٦٧-٦٤٨هـ/١١٧١-١٢٥٠م"، والتي كان عليها أن تتنحي لتفسح المجال لقوة أخري فتية لتحل محلها، وأن تنهض بأمانة الجهاد، ألا وهي قوة سلطنة المماليك، التي حرصت علي الظهور دوما بمظهر القوة المدافعة عن الإسلام والمسلمين، وحامية مقدساتهم، لذلك تمكنت من القضاء علي الكيان الصليبي الجاثم

فوق صدر الأمة، وفوق أرضها، وطرد آخر البقايا الصليبية من علي أرض بلاد الشام عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م. كما تمكنت من هزيمة المغول في موقعة عين جالوت الشهيرة، وامتلأت أرض مصر والشام بأسراهم وبأسري القوي المؤيدة والمساعدة لهم، وهذا ما سوف يظهره البحث الخاص بدور الأسري الأجانب في القاهرة المملوكية.

كذلك شهد أواخر هذا العصر تغيراً كبيراً في طبيعة العلاقات بين الشرق والغرب، بعد فشل الحركة الصليبية، وتطورها إلي فكرة الحصار الاقتصادي واتخاذ السبل والإجراءات للقضاء علي قوة المسلمين ممثلة في السلطنة المملوكية، وما نجم عن ذلك من ازدياد الرحلة إلي مصر، وجمع ما يمكن جمعه من معلومات لاستخدامها ضد رخاء العرب والمسلمين، وهو ما سوف يظهره بحثنا "القاهرة في عيون الرحالة الأوربيين في القرنين الرابع عشر والخامس عشر للميلاد".

كما تميز هذا العصر بإفشال المخططات الصليبية، والقضاء علي أية تحالفات بين الصليبيين والمغول، ولجوء كثير من ملوك وحكام الغرب الأوربي إلي ميادين الدبلوماسية، وظهور الحاجة المتزايدة إلي التراجمة، ودورهم في كثير من المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك من الأمور، وهو ما سوف يتضح من بحثنا الموسوم بـ "التراجمة في عصر سلاطين المماليك".

وبالرغم من كثرة المؤلفات التاريخية في كثير من العصور ومنها عصر سلاطين المماليك، فمن المعروف أن التاريخ كان ربيب السلاطين والأمراء والقصور، وما عدا ذلك كان نصيبه الإهمال. وإذا كان التاريخ الاجتماعي عامة، وتاريخ عصر سلاطين المماليك خاصة قد غلب فيه علي بعض الكتابات العربية كثير من المقولات الاستشراقية التي تريدنا أن نري تاريخنا الاجتماعي في مرآتها، والتي تكرس فكرة الجمود والركود والاضمحلال فإن هذه الفكرة قد دحضتها بعض الدراسات الأكاديمية التي قام بها نفر من الباحثين المنصفين، اعتمدوا علي المصادر الأولية في دراساتهم، وخرجوا بنتائج تناقض تماماً الفكرة الاستشراقية، بالإضافة إلي ما شاع في هذا العصر من رواج اقتصادي قد انعكس بشكل أو بآخر علي أحوال طوائف أرباب الحرف والصناعات،

مما تطلب منا دراسة أحوالهم وظروف معيشتهم الاجتماعية، وطرق وأساليب تناقلهم الخبرات والمعارف العلمية، وهو ما يتضح من بحثنا الموسوم "سبل نقل الخبرة لدي أبناء الطوائف الحرفية في ذلك العصر".

وثمة بعض المزاعم التي لا أساس لها من الصحة أن كل التاريخ الاجتماعي لعصر سلاطين المماليك، يُلقي اهتمامًا متزايدًا منذ عدة سنوات، وإنني لأتساءل أين محصلة هذا الاهتمام، فهل بحث أو بحثين أو حتي ثلاثة أبحاث أو أزيد قليلاً كافية لتغطية دراسة مجتمع استمر لما يقرب من ثلاثة قرون. والحق يقال أن التاريخ الاجتماعي وحده في مصر فقط يحتاج إلي فريق عمل من الباحثين الجادين، وروح الفريق لم نعرفها بعد، ناهيك عن دراسة التاريخ الاجتماعي لبلدان أخري مثل بلاد الشام والحجاز وغيرها، ومع هذا يبقي الأمل معقودًا علي شباب باحثينا الجادين من الجنسين، وعلي اللّه التوفيق، ولعل هذا ما دفعني علي أن أضرب لذلك مثلاً لكثير من البحوث الاجتماعية الخاصة بالمجتمعات التي تكونت منها هذه الدولة في كل من مصر والشام والحجاز وغيرها بوجه عام وتاريخ ما يمكن أن نسميهم "المهمشين" بوجه خاص أمثال الجواري والغلمان والعبيد وكثيرين من عامة الناس، وما أثر في تلك الشرائح الاجتماعية المختلفة من هجرات وافدة، بل وما استتبع الهجرات المحلية من تغيرات اجتماعية ونحمد الله العلي القدير أن مكنا من دراسة الرعاية الاجتماعية للجواري والعبيد السود في مصر في ذلك العصر كمثال للمهمشين بوجه خاص لعل في ذلك ما يدفع الآخرين لتناول كثير من الجوانب التي ما تزال في حاجة إلي الجهود المخلصة من الباحثين الواعدين، وتضافر جهودهم في ذلك.

كما نحمد اللّه العلي القدير أن وفقنا في بعض هذه النواحي في عدة أبحاث استغرقت منا ما يزيد علي الربع قرن، وقد اخترت بعضها لأضعها في أكثر من مجلد واحد. سواء عن مصر أم بعض بلاد الشام مثل القدس، وبلاد الحجاز ومنها مكة المكرمة والمدينة المنورة، في عصر يعد بمثابة أزهي عصور الحضارة العربية الإسلامية، وهو عصر سلاطين المماليك.

وكذلك أحب أن أنوه أنها أبحاث تم نشرها في عدد من المجلات العلمية المحكمة في الفترة من سنة ١٩٨٥ وحتي الآن، كما أن هذه المجموعة من البحوث جادة وجديدة. وحيث إن التاريخ الاجتماعي في الشرق الأوسط عن ذلك العصر يلقي بعض الاهتمام من الباحثين منذ وقت ليس ببعيد، ومع هذا فإن الدراسات الاجتماعية المنصفة ما تزال في بداياتها، مما ألهمني محاولة القيام بسد جزء من هذا النقص بعدد من البحوث ننشر اليوم بعضًا منها، ولدينا المزيد. والله أسأل أن أكون قد وُفقت في الكشف عن بعض الجوانب الاجتماعية التي يحتاج إليها القارئ العربي والمكتبة العربية، والله تعالي نعم الموفق والمعين.

المؤلف

الجيزة في   شعبان ١٤٣١

أغسطس ٢٠١٠

الهجرات المغولية إلي مصر
وآثارها الثقافية والاجتماعية في العصر المملوكي
(٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)

شهدت مصر طوال العصر المملوكي "٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م" هجرات عديدة لكثير من أبناء العناصر المغولية المختلفة، هذه الهجرات امتدت لتشمل العصر المملوكي بشقيه، أي دولة المماليك الأولي أو البحرية، ودولة المماليك الثانية أو الجراكسة، وتفاوتت تلك الهجرات ما بين هجرات جماعية ضخمة تعد بالآلاف، وهجرات صغيرة تعد بالمئات، وهجرات يمكن وصفها بأنها هجرات فردية تعد بالعشرات أحيانًا، وكما تفاوتت هذه الهجرات في أعدادها تفاوتت كذلك في الدوافع المسببة لها والمؤدية إليها، سواء كانت هذه الدوافع خاصة بأبناء العناصر المغولية نفسها، كالبحث عن مأوي آمن لهم، أو اضطهاد الحكام لهم، أو الصراعات السياسية التي نشبت بين البيوت الحاكمة عندهم؛ أو ما يتعلق بطبيعة هؤلاء المغول، أو ازدحام الأقاليم بهم. أو منها ما يتعلق بالكوارث الطبيعية وانتشار المجاعات والأوبئة والطواعين، وما كان ينجم عنها من حالات القحط. أو منها ما كان يتعلق بسياسة سلاطين المماليك لتفتيت أعدائهم والترحيب بالعناصر المناوئة للحكام المغول، أو للاستفادة من العناصر المغولية كعناصر لها شهرتها وخبرتها الحربية والقتالية، أو ما كان لمصر من جاذبيه خاصة في ذلك العصر نظرًا لما تمتعت به من أمن ورخاء واستقرار ومركز ديني ممتاز. وقد كان لأبناء العناصر المغولية آثارهم الواضحة في شتي مجالات الحياة في ذلك العصر وبخاصة ما يتعلق منها بالنواحي الثقافية والاجتماعية. وهذا سوف تكشف عنه هذه الدراسة.

وترجع البدايات الأولي لظهور المغول في مصر إلي أيام السلطان الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧-٦٤٧هـ/١٢٤٠-١٢٤٩م) وفي ذلك يقول المقريزي: "قلما كثرت وقائع التتر في بلاد المشرق والشمال وبلاد القبجاق وأسروا كثيرًا منهم وباعوهم تنقلوا في الأقطار واشتري الملك الصالح نجم الدين أيوب جماعة منهم سماهم البحرية ومنهم من ملك ديار مصر وأولهم المعز أيبك"(١) ومن المرجح أن المقريزي يقصد بذلك ما حدث من جنكيز خان من حروب ومنازعات مع أبناء جنسه حتي يصل إلي غايته وهي زعامة المغول التي تمت له سنة (٦٠١هـ/١٢٠٤م).

وأن يجعل منهم قوة ظن المعاصرون أنها لا تُهزم، وبهذه القوة الخارقة استطاع أن يكتسح البلاد شرقًا وغربًا حتي ترك لأولاده إمبراطورية شملت ما بين بحر الصين والبحر الأسود. ثم ما حدث بين خلفاء جنكيز خان من صراعات حول العرش، وما نجم عنها من تشريد المنافسين والمناوئين أو بيعهم وأتباعهم لتجار الرقيق(٢). والذين تم حملهم إلي كثير من أنحاء العالم الإسلامي خاصة مصر والشام.

ويستطرد المقريزي في حديثه قائلاً: "ثم كان لقطز معهم الواقعة المشهورة علي عين جالوت وهزم التتار وأسر منهم خلقًا كثيرًا صاروا بمصر والشام ثم كثرت الوافدية في أيام الملك الظاهر بيبرس وملؤا مصر والشام وخطب للملك بركة بن يوشي بن جنكيز خان علي منابر مصر والشام والحرمين فغصت أرض مصر والشام بطوائف المغل وانتشرت عاداتهم بها وطرائقهم..." (٣). أو بعبارة أخري أنه إذا كانت مصر قد عرفت أبناء العناصر المغولية كرقيق تم جلبهم للبلاد أيام الصالح نجم الدين الأيوبي عن طريق تجار الرقيق، فإن موقعة عين جالوت عام (٦٥٨/١٢٦٠م) أدت إلي دخول أعداد كبيرة منهم إلي مصر كأسري وسبايا؛ وفي عهد الظاهر بيبرس البندقداري (٦٥٨-٦٧٦هـ/١٢٦٠-١٢٧٧م) ونتيجة لتحالفه مع خان القبيلة الذهبية أو مغول القبجاق والذي كانت بلاده تمتد من تركستان شرقًا إلي شمال البحر الأسود غربًا، وعاصمتها مدينة صراي في شمال غرب بحر قزوين، وتبادل معه الهدايا والبعوث وتزوج ابنته، وأمر بالدعاء له علي منابر القاهرة والقدس ومكة والمدينة، هذا التحالف

كان موجهًا ضد دولة إيلخانات فارس التي كان يحكمها هولاكو خان وأولاده[٤]. وفدت جماعات من مغول القبجاق مستأمنة إلي مصر وهي التي أطلقت عليها المصادر المعاصرة "الوافدية" أو "المستأمنة"، وجلب هؤلاء المغول معهم نظمهم وعاداتهم التي كان لها آثارها الكبيرة في مصر في ذلك الوقت بدليل قول المقريزي "ثم كثرت الوافدية أيام الملك الظاهر بيبرس، فغصت أرض مصر والشام بطوائف المغل وانتشرت عاداتهم وطرائقهم"[٥]. ومنذ عهد الظاهر بيبرس شهدت مصر العديد من الهجرات المغولية وحتي قرب أواخر العصر المملوكي الثاني أو دولة المماليك الجراكسة، سواء كانت هذه الهجرات كبيرة أم صغيرة أم هجرات فردية وهذا ما سيوضحه الجدول التالي:

م	السنة	عدد المهاجرين	المصادر
١	٦٥٩هـ	أعداد صغيرة – غير محددة	بيبرس المنصوري: التحفة الملوكية، ص٧.
٢	٦٦٠هـ	٢٠٠فارس من الأويراتية	ابن واصل: مفرج، جـ٢، ص٤٠٦-٤٠٧؛ المقريزي: السلوك، جـ١، ص٤٧٣-,٤٧٤
٣	٦٦١هـ	١٣٠٠ فارس	المقريزي: السلوك، جـ١، ص٥٠٠.
٤	٦٦٢هـ	جماعتان من المغل	المقريزي: السلوك، جـ١، ص٥١٥.
٥	٦٦٢هـ	جماعة من شيراز	ابن تغري بردي: النجوم، جـ٦، ص٢١٩.
٦	٦٧٢هـ	الأمير شمس الدين بهادر في جماعة	بيبرس المنصوري: التحفة، ص٧٨.
٧	٦٧٣هـ	جماعة مع أقارب شمس الدين بهادر منهم أبوه.	ابن تغري بردي: المنهل، جـ٣، ص٤٢٧.

م	السنة	عدد المهاجرين	المصادر
٨	٦٧٤هـ	جماعة من سكتاي وقرمشي	النويري: نهاية الأرب، جـ٣١، ص٩٠.
٩	٦٧٦هـ	جماعة مع التتار من الأبلستين	المقريزي: المقفي الكبير، جـ٢، ص٢٩٤.
١٠	٦٨٠هـ	٢٠٠ فارس بنسائهم وأولادهم	ابن أبيك: الدرة الزكية، ص٢٤٨.
١١	٦٨٠هـ	مجموعة صغيرة أثناء وقعة حمص	النويري: نهاية الأرب: ٣٢/٣١
١٢	٦٨١هـ	جماعة من أولاد المغل	ابن الفرات: جـ٧، ص٢٥٠
١٣	٦٨٢هـ	١٩نفرًا بصغارهم	بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، جـ٩، ص٣٢٧.
١٤	٦٨٢هـ	٣٠٠ فارس بأسرهم	ابن الفرات: نفسه، جـ٨، ص٢٠٢.
١٥	٦٩١هـ	هجرة أويراتية صغيرة	المقريزي: السلوك جـ١، ص٢٧٦؛ ابن الفرات ٢٥٠/٧ .
١٦	٦٩٥هـ	ما بين ١٠,٠٠٠- ١٨,٠٠٠من الأويراتية	النهج السديد: ٥٨٨؛ السلوك: ٨١٢/١؛ الخطط: ٢٢/٢؛ المنهل: ٣٨١/٦.
١٧	٦٩٨هـ	الأمير سلامش ومعه ٥٠٠	ابن أبيك: الدر الفاخر، ص٩٠٨
١٨	٧٠٣هـ	الأمير جنكلي بن البابا وأتباعه.	ابن كثير: ١٣٣/١٤؛ المنهل: ٢٢/٥؛ النجوم ٢٧٦/٩.
١٩	٧٠٤	٢٠٠ من المقفزين	السلوك: ٥/٢١، النهج السديد: ٣٠٧

م	السنة	عدد المهاجرين	المصادر
٢٠	٧١٧هـ	١٠٠ ومعهم نساؤهم وأطفالهم	السلوك: ٢/١٤٧؛ الدرر: ٢/١٧٦؛ ابن الفرات: ٩/٤٥٣.
٢١	٧١٧-٧٢٨هـ	هروب أعداد كبيرة من مغول فارس إلي مصر	تاريخ الدولة المغولية في إيران: ٢٢٣-٢٢٧.
٢٢	٧٢١هـ	الأمير باورد بن براجوا ومعه جماعة	المقفي الكبير: ٢/٢٣٦.
٢٣		أخت جنكلي بن الباب ومعها جماعة	السلوك: ٢/٢٣٨.
٢٤	٧٢٢هـ	ظهر بغا المغلي وأقاربه.	الدرر: ٢/٢٣٧.
٢٥	٧٢٨هـ	دمرداش بن جوبان وأتباعه	الدر الفاخر: ٣٤٦-٣٤٨.
٢٦	٧٤١هـ	هجرة ضخمة بسبب الطاعون	السلوك: ٢/٥١٥.
٢٧	٧٤١هـ	هجرة ضخمة بسبب المجاعة	السلوك: ٢/١٤٧؛ الدرر: ٢/١٧٦
٢٨	في القرن التاسع	وصول أعداد من أبناء المغل	الضوء اللامع: ٣/٧، ٢٨٤ .

واضح من هذه الإحصائية التي قمنا بها أن الهجرات المغولية إلي مصر في العصر المملوكي قد بلغت ما يقرب من الثلاثين هجرة، وهي التي أتيح لنا رصدها من المصادر التي أمكننا الاطلاع عليها، وأن هذه الهجرات اختلفت فيما بينها من حيث كونها هجرات ضخمة مثل : هجرات أعوام (٦٩٥هـ، ٧٤١هـ) وهجرات كبيرة العدد، مثل : هجرات أعوام (٦٦١هـ،٦٩٨هـ،٧١٧-٧٢٨هـ)، وهجرات متوسطة العدد مثل هجرات أعوام (٦٦٠هـ، ٦٨٠هـ، ٦٨٢هـ،٧٠٤هـ) وهجرات قليلة في أعدادها (٦٦٢هـ، ٦٧٢هـ، ٦٧٣هـ، ٦٧٤هـ) ولو أنه قدر لنا أن نتعرف علي الأعداد الفعلية للهجرات مجهولة العدد لأدركنا ضخامة الأعداد التي وفدت من أبناء العناصر المغولية إلي مصر في ذلك العصر خصوصًا إذا وضعنا في اعتبارنا الأعداد الكبيرة التي كان يأتي بها تجّار الرقيق نتيجة لبيع هؤلاء المغول وأولادهم وبناتهم لهؤلاء التجار حيث أدركوا أنه ستكون لهؤلاء فرصة أكبر وأعظم من لو أنهم وفدوا إلي مصر كأحرار إذ كانت فرصة الانضمام إلي فرق المماليك السلطانية أمامهم أكبر وأعظم فضلاً عن أن هؤلاء المماليك السلطانية كان منهم كبار الأمراء والسلاطين مما يعني ثروة أكبر ومكانه اجتماعية أفضل[٦].

وهذا ما أشار إليه بعض المؤرخين المعاصرين، فالمقريزي يذكر : أنه بسبب ما كان يتم دفعه في المملوك الواحد من مبلغ كبير تراوح ما بين ٢٠,٠٠٠-٤٠,٠٠٠ درهم لذا فقد "فسد بذلك المغل فيما بينهم"، وفي موضع آخر يقول: "فأعطي المغل أولادهم وبناتهم وأقاربهم للتجار، وباعوهم منهم رغبة في سعادة مصر...."كما أن ابن تغري بردي يردد نفس المعني بقوله أنهم أعطوا أولادهم وأقاربهم للتجار رغبة في السعادة[٧].

وفي تصورنا أن مثل هذا الأسلوب كان بمثابة تهجير لأبناء هذه العناصر من مواطنهم، أو من البلدان التي استقروا فيها بعد حركة الانتشار الكبيرة التي قاموا بها في أعقاب غزواتهم الأولي، يضاف إلي هذا تلك الأعداد التي تم الحصول عليها من الحروب الدفاعية التي شنها بعض السلاطين المماليك علي مغول إيران، ولنأخذ مثلاً

علي ذلك بما حدث عام (٦٧١هـ/١٢٧٢م) أيام السلطان الظاهر بيبرس، فعندما علم أن طائفة من المغول "عددها ثلاثة آلاف فارس علي شط الفرات مما يلي الجزيرة، فرحل عن منبج يوم الأحد ثامن عشر جمادي الأول ووصل شط الفرات، وتقدم إلي العسكر بخوضها، فخاض الأمير سيف الدين قلاوون الألفي والأمير بدر الدين بيسري في أول الناس، ثم تبعهما هو بنفسه وتبعته العساكر، فوقعوا علي التتار فقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأسروا تقدير مائتي نفس، ولم ينج منهم إلا القليل...." (٨).

ومن جهة أخري يتضح لنا من خلال هذا الجدول أن الهجرات الكبيرة لم يكن آخرها تلك الهجرة الأويراتية التي حدثت عام (٦٩٥هـ) كما يذكر أحد الباحثين المحدثين(٩) بل أعقبتها هجرات كبيرة أخري مثل : تلك التي حدثت بين أعوام (٧١٧-٧٢٨هـ)، وتلك التي حدثت عام (٧٤١هـ) بسبب انتشار المجاعات والأوبئة والتي أشارت إليها المصادر المعاصرة بأنها كانت هجرة (عالم عظيم) (١٠) كما أن هذه الهجرات لم تحدث في معظمها في فترة حكم اثنين من سلاطين المماليك فحسب وهما : بيبرس البندقداري، والعادل كتبغا، حيث كان الأول منهما معجبًا بالنظم المغولية، أما الثاني فقد كان نفسه واحدًا من المغول وكما يزعم البعض(١١) بل إنها شملت العصر المملوكي الأول بكامله وامتدت إلي العصر المملوكي الثاني وكما هو واضح من تاريخ هذه الهجرات علي الرغم مما تميز به العصر المملوكي الثاني من كثرة أعداد الجراكسة أو العثمانية.

أما عن الدوافع التي أدت إلي هجرة تلك العناصر المغولية إلي مصر فهي متعددة، يأتي في مقدمتها ما يتعلق بالشعوب المغولية المختلفة من : تتار، وكرايت، ومركيت، وأويرات، ونايمان، ومغول، وقراخطائيين وغيرهم من الشعوب التي وحّدها جنكيز خان تحت حكمه، واشتهروا في التاريخ باسم التتار أو المغول. والمعروف أن الموطن الأصلي لهذه الشعوب امتاز بقسوة المناخ وتطرفه في معظم أيام السنة، فتحمل الحصي، وترسله إلي مسافات بعيدة، وتكون بذلك مواجهتها مستحيلة، وأحيانًا تتحول إلي أعاصير عاتية لدرجة يصعب معها بقاء الرجل في سرجه. مما تتطلب أن تعيش هذه الشعوب في الأقاليم الشرقية من آسيا عيشة بدوية كلها نزاع وصراع بسبب تنازع

البقاء، واستلزمت هذه الحياة كثرة الهجرة والانتقال من مكان لآخر[١٢]. أو بعبارة أخري أن الظروف المناخية هذه طبعتهم بطابع القبائل الرحالة التي تنتقل في فترات متتابعة طلباً لحياة أفضل، وعلي هذا الأساس فإنهم عندما جاءوا إلي سلطنة المماليك في مصر كمهاجرين فقد كان هدفهم الأول البحث لأنفسهم عن مأوي ليطيب لهم العيش[١٣].

ومن الدوافع التي أدت إلي هجرات بعض العناصر المغولية خوف أبناء هذه العناصر من اضطهاد بعض حكام المغول لهم، فالمقريزي في حديثه عن هجرة الأويراتية إلي مصر عام ٦٩٥هـ يقول: "وكان من خبر هذه الطائفة أن بيدو بن طرغاي بن هولاكو لما قُتل في ذي الحجة سنة أربع وتسعين وستمائة وقام في الملك من بعده علي المغل الملك غازان محمود بن خربنده بن إيغاني تخوف منه عدة من المغل يعرفون بالأويراتية وفروا عن بلاده إلي نواحي بغداد فنزلوا هناك مع كبيرهم طرغاي وجرت لهم خطوب آلت بهم إلي اللحاق بالفرات فأقاموا بها هناك وبعثوا إلي نائب حلب يستأذنوه في قطع الفرات ليعبروا إلي ممالك الشام فأذن لهم وعدوا الفرات..." [١٤].

أو بعبارة أخري فإنه لم يكد بابدوخان يتولي العرش الإيلخاني "١٦ جمادي الأولي٦٩٤هـ-٢٣ ذي الحجة ٦٩٤هـ/١٢٩٥-١٢٩٦م" حتي نازعه الأمير غازان بن أرغون، وكان واليا علي خراسان. وكانت النتيجة هزيمة بايدو وقتله حسب أوامر غازان الذي تولي العرش، وأخذ يتعقب أتباع بيدو وهم الأويراتية لينزل بهم أشد أنواع الاضطهاد والعذاب، ففروا صوب مصر وأظهروا رغبتهم في اعتناق الإسلام لكي يسمح لهم بدخول البلاد[١٥].

ومنها ما حدث عام ٧٠٤هـ أيام الناصر محمد بن قلاوون: "وفيها في تاسع شهر جمادي الأولي وصل من التتار مقدمين ومعهم نحو من مايتي نفر بنسايهم وأولادهم، وذكروا أن فيهم أربعة من سلحدارية غازان ومن جملتهم ابن سنقر الأشقر، وأخبروا أخباراً طيبة". وكان السبب في هذه الهجرة أنهم فروا بسبب خوفهم من أن تنكشف المؤامرة التي دبرها بعض كبار أمراء المغول – ومنهم هؤلاء السلحدارية – ضد غازان خان

بعد هزيمة قواته أمام قوات السلطان الناصر محمد في وقعة مرج الصفر قرب حمص ٧٠٢هـ. وكان قد تغير علي الأمراء المغل والتوامين من أيام الكسرة وشرع يهددهم ويعنفهم فاتفقوا مع زوجته علي هلاكه فسمّته في منديل..."، فخافوا أن ينالهم أشد أنواع الاضطهاد علي يد أخيه خدا بندا الذي خلفه علي عرش السلطنة عام ٧٠٣هـ(١٦).

ولعلنا لا نغالي في القول في أن مثل هذه الهجرات قد شجع عليها نجاح السلطان الناصر محمد بن قلاوون في اتخاذ بعض مسلمي المغول في المناطق المتاخمة لحدود سلطنة المماليك مع دولة مغول إيران، ليكونوا عيونا علي هؤلاء المغول؛ فقد أشار ابن أيبك إلي أنه في أواخر عام ٧٠٣هـ هاجر الأمير جنكلي بن البابا إلي الأبواب العالية السلطانية، وصحبته جماعة من كبار التتار، من جملتهم أخو الأمير سيف الدين قطلوبك. وكان الأمير جنكلي بن البابا له مدة يكاتب الأبواب السلطانية الشريفة. بالإضافة إلي أن هذه العناصر كان قد ساءها كثيراً غزوات غازان خان التي أدت إلي خراب كثير من بلاد الشام، بما لا يتفق مع إسلامه، بدليل ما جاء في الرسالة التي وجهها الملك خدابنده أخو غازان إلي الناصر محمد يقول فيها: "إن أخي غازان ما كان له عقل في خراب البلاد، وكان مسلم الظاهر كافر الباطن، وما دخوله الشام برضاي ولا برضا أمراء المغل، فلذلك قتله اللّه تعالي..." (١٧).

كما كانت السياسة التي اتبعها سلاطين المماليك الأوائل ابتداء من الظاهر بيبرس، لها أثرها الواضح في تشجيع المغول علي الهجرة إلي الديار المصرية. هذه السياسة كان هدفها الأول هو التغلغل داخل صفوف المغول، واستمالة العناصر المناوئة لنظم الحكم القائمة لديهم، بحيث أمكن الاستفادة من رصد كل تحركاتهم الداخلية، وليكون جهاز المخابرات المملوكي علي علم بكل حركاتهم وسكناتهم، سواء كانت هذه الاستمالة عن طريق الترغيب أو الترهيب أو بذل الأموال والهدايا. وهذا ما يفسر لنا هجرة عام ٦٧٢هـ، حيث أشار المؤرخ بيبرس المنصوري إلي أنه عندما كان السلطان الظاهر بيبرس في دمشق ذلك العام وصل إليه الأمير شمس الدين بهادر في جماعة

من أتباعه هاربًا من مغول فارس، وذلك لأنه كاتب السلطان مناصحًا، فاطلعوا علي أمره وأمسكوه وأرسلوه إلي الأردو، فهرب وقصد الأبواب السلطانية، فأحسن السلطان إليه وأعطاه إمرة عشرين فارسًا في الديار المصرية(١٨). وظلت هذه السياسة قائمة حتي بعد توقيع الصلح بين الطرفين عام ٧٢٣هـ، إلا أنها اتخذت اتجاهًا جديدًا تمثل في احتضان المناوئين للحكم والخارجين عليه من أمراء المغول في فارس بوجه خاص، والجدير بالذكر أن هذا الاتجاه استغله سلاطين المماليك في الحرب الباردة التي كانت مستمرة بين الطرفين وكرد فعل مضاد لسياسة المغول في احتضان الفارين من أوجه السلطنة من أمراء العربان والمماليك.

نذكر من ذلك علي سبيل المثال ما حدث عام ٧٢٨هـ أيام الناصر محمد بن قلاوون في سلطنته الثالثة، حيث تشير المصادر المعاصرة إلي أنه في هذا العام كان وصول الأمير دمرداش بن جوبان صاحب الروم وما معها، والذي كان أبوه جوبان قد تزعم مؤامرة للإطاحة بعاهل مغول فارس أبي سعيد لكنه فشل، فما كان من أبي سعيد إلا أن أخذ في مطاردة أولاد جوبان وأقاربه في كل مكان، فلم يتردد دمرداش هذا في مكاتبة الأبواب السلطانية "وسير يسأل المراحم الشريفة السلطانية - التي لا زالت ملجأ القاصدين وبحر الواردين- في الدخول إلي الأبواب الشريفة، فأنعم مولانا السلطان بالجواب بقبول سؤاله". وعندما وصل إلي الديار المصرية كان في صحبته عدد كبير من أتباعه من المغول، فأنزلوا بالقلعة المحروسة، ورتب لهم السلطان الرواتب الكثيرة جدًا من ساير المآكل الفاخرة، فأقام دمرداش ومن معه في أنعم عيش وأرغده(١٩).

كما كان سطوع نجم أحد أبناء العناصر المغولية في مصر لدي أحد من السلاطين المماليك سببا في بعض الهجرات الصغيرة، ولنضرب علي ذلك بعض الأمثلة: فابن تغري بردي في حديثه عن الأمير جنكلي بن البابا يذكر أنه أصبح عظيم الدولة الناصرية محمد بن قلاوون، ورأس الميمنة بعد الأمير أقوش نائب الكرك، ولم يزل هكذا معظمًا مبجلاً حتي في عهد أبناء الناصر محمد إلي أن توفي عام ٧٤٦هـ/١٣٤٥م(٢٠). وكان هذا أهم الأسباب في هجرة عام ٧٢٢هـ، حيث قدم البريد في هذا العام من

دمشق بحضور أخت هذا الأمير من الشرق وصحبتها جماعة تتارية، غير أنها ماتت بعد قدومها بثلاثة أيام فاستدعي الناصر محمد بن قلاوون جماعتها هذه إلي القاهرة وأقطع أفرادها إقطاعات من أجل خاطر الأمير جنكلي(٢١). وكذلك الحال بالنسبة للأمير يلبغا اليحياوي الذي حظي كذلك عند أستاذه الملك الناصر محمد بن قلاوون، فاستقدم والده الأمير سيف الدين طابطا بن عبد اللّه وولديه الأمير سيف الدين أسند مر بن عبد العمري، والأمير قراكز وبعض أهله إلي الديار المصرية(٢٢). وما يشير إليه ابن حجر العسقلاني في ترجمته للأمير ظهر بغا المغلي، أحد الأمراء بالديار المصرية والذي حضر إلي القاهرة عام ٧٢٦هـ، فقدمه السلطان وكان يقرأ علي السلطان كتب بوسعيد التي ترد بالمغلي ويكتب الأجوبة وكان يفد عليه من أقاربه علي مدي الأيام من عشرة إلي مائة فيبرهم ويصلهم وظل هكذا إلي أن توفي عام ٧٣٨هـ(٢٣).

كذلك تشير المصادر المعاصرة إلي أنه كان من نتيجة عقد الصلح بين سلطنة المماليك في مصر علي أيام الناصر محمد بن قلاوون وبين مغول إيران، أثره الواضح في جذب أعداد كبيرة من مغول إيران إلي مصر والإقامة بها، لما وجدوه من ترحيب وحسن عيش، وترحيب من أقاربهم بها، إلي جانب ما لقوه من ترحاب من السلطات الحاكمة في مصر، والاستفادة منهم ومن خبراتهم الحربية التي أهلتهم للانخراط في سلك الجندية، وتوليهم المناصب المختلفة، فضلاً عن الإقطاعات والإمرة(٢٤).

كما كان لكوارث الطبيعة ونكباتها من حدوث قحط شديد أو مجاعات يتبعها في الغالب انتشار كثير من الأوبئة والطواعين، أثره الواضح في هجرات أبناء العناصر المغولية إلي سلطنة المماليك بوجه عام والديار المصرية بوجه خاص، ذلك لأنها كانت أكثر خصبًا وأوفر ثروة من المواطن التي تسكنها العناصر المغولية المختلفة في ذلك العصر(٢٥) خصوصاً وأن دولة الإيلخانيين كان قد أصابها الكثير من الخراب، وتوقفت المؤسسات الحكومية عن العمل السليم الجاد في بداية عهد السلطان أبي سعيد، وانشغال رجال الحكم والبلاط بمشكلاتهم الخاصة، وكثرة تغيير الوزراء، مما كان سبباً في إغارة بعض أمراء المغول من حكام الدولة الجغتائية في التركستان والقبيلة الذهبية في جنوب روسيا علي أطراف الدولة الإيلخانية. ومحاولتهم المتكررة الاستيلاء علي

السلطة والعرش الإيلخاني، وجاءت كوارث الطبيعة لتزيد الطين بلة[٢٦]. ذلك أنه نزل آسيا الصغري في عامي (٧١٨هـ/١٣١٨م، ٧١٩هـ/١٣١٩م) قحط شديد ومجاعة مخيفة، ثم تلي ذلك عام (٧٢٠هـ/١٣٢٠م) أعاصير مدمرة وزوابع غريبة[٢٧] وهذا يفسر لنا السبب في الهجرات التي تمت في أعوام من (٧١٧هـ/٧١٨، وحتي ٧٢٨هـ) والتي سبق أن أشرنا إليها. وفي سنة (٧٤١هـ/١٣٤٠م) وهي السنة التي توفي فيها السلطان الناصر محمد بن قلاوون جاءت موجة كبيرة من الهجرات من أبناء العناصر المغولية بسبب المجاعة التي انتشرت في بلاد الشرق. فجاء عالم عظيم من المغول حيث وفدوا إلي شواطئ نهر الفرات وإلي إقليم حلب. فتدفقوا إلي إقليم حلب وبعض الأقاليم الأخري في بلاد الشام. ووصلت منهم مجموعة إلي مصر، فأخذ السلطان بعضهم وضمهم إلي مماليكه السلطانية، وأعطي بعضهم للأمراء[٢٨].

وأخيراً تجب الإشارة إلي أنه كان لمصر جاذبيتها الخاصة لدي كل مسلم، وبوجه خاص منذ أن غدت مقراً للخلافة العباسية، مما حفز بعض المسلمين من مغول فارس، والقفجاق إلي الوفود إليها، ورغبوا في الاستقرار فيها، من ذلك ما يشير إليه ابن الفرات عام (٦٨١هـ/١٢٨٢م) في عهد السلطان المنصور قلاوون من قول: "وفيها وفد إلي خدمة السلطان المنصور بمصر المحروسة شخص من أولاد الأويراتية يسمي الشيخ علي كان قد دخل في دين الإسلام وخدم المشايخ وعانى أسباب الرياضة والانقطاع فظهرت له كرامات الفقراء فتبعه جماعة من أولاد المغل فخرج بهم من تلك البلاد إلي الشام ثم إلي الديار المصرية ومثلوا بين يدي الملك المنصور فأحسن إليهم منهم الأقوش وتمر وعمر ثلاثة إخوة وجويان وجماعة رتب الملك المنصور بعضهم في جملة الخاصكية وتنقلوا إلي الإمرة ثم ظهر من الشيخ علي أمور أنكرت عليه فسجن والأقوش ومات تمر وعمر في الخدمة...." [٢٩] وهناك بعض إشارات في المصادر المعاصرة عن هجرة بعض أبناء العناصر المغولية من المسلمين إلي مصر ليعيشوا في منطقة إسلامية بعيداً عن عبدة الأصنام والكواكب سواء من بلاد التتار الشمالية أو مغول إيران قبل إسلامهم بالكامل[٣٠].

أثر الهجرات المغولية فى الحياة الثقافية:

لعبت العناصر المغولية التي جاءت إلي مصر دوراً مهماً وبارزاً في الحياة الثقافية بشتي جوانبها المختلفة وتأثروا بما شهدته البلاد من ازدهار ثقافي في ذلك العصر. ولعل أول ما يشد انتباه الباحث هو حرصهم الشديد علي المساهمة في شتي نواحي الحياة الثقافية، وتشييد كثير من المنشآت الثقافية التي تحمل أسماءهم، والتي خصصوا لها الكثير من الوقوف حتي تؤدي رسالتها علي خير وجه. ولم يكن هذا الحرص قاصراً علي الرجال منهم، بل شاركهم فيه كثير من النساء كذلك[٣١]. وفي تصورنا أن مبعث هذا الحرص لم يكن اعتناقهم الإسلام فحسب، بل والعمل علي أن ينسي لها معاصروهم ماضيهم المرير، عندما خرج آباؤهم من مواطنهم الأولي ودمروا مراكز الحضارة الإسلامية الأولي التي دانت لهم بالخضوع[٣٢] كما أنهم كانوا مجرحين بسبب ما اقترفوه هم وآباؤهم من ضروب القسوة البالغة التي أدت إلي انقراض دول، وذهاب عروش، وتقتيل آلاف عديدة من السكان، وتخريب أمهات المدن، وكان عليهم أن يصلحوا ما أفسدوه هم وأسلافهم، فضلاً عن أنهم أدركوا أن مركز الدراسات الإنسانية كان قد انتقل إلي مصر بعد سقوط بغداد، فأقبلوا يساهمون بنصيبهم في إنهاض الحضارة الإسلامية في شتي مظاهرها[٣٣]. فآثارهم المعمارية والتي ظلت قائمة طوال العصر المملوكي تعتبر في الواقع من أهم الشواهد الحية علي مدي إسهاماتهم في هذا المجال.

لقد تنوعت المؤسسات الثقافية التي بنوها ما بين مكاتب الأطفال (كتاتيب)، ومدارس أي الكليات الجامعية بمصطلح عصرنا الحديث، وبيوت للصوفية من زوايا وربط وخنقاوات، وجوامع وغيرها من الأماكن التي كانت تعقد فيها حلقات التدريس؛ وقد وجدت هذه المؤسسات التعليمية في الأوقاف التي حبسوها عليها خير دعامة تشد أزرها، وتمكّنها من البقاء والاستمرار في أداء رسالتها علي الدوام. أو بعبارة أخري فإن حياة كل من المكتب والمدرسة والزاوية والتربة والمسجد لم تكن رهنا بحياة مؤسسها، حيث كان يوقف عليها من الأوقاف ما يضمن به لها الاستمرار في أداء

رسالتها عقب وفاته، وهذه الأوقاف قد تكون أرضًا زراعية أو عقارات أو حوانيت في الأسواق، أو حمامات أو رباع تدر دخلاً ثابتًا ينفق منه علي صيانتها ودفع مرتبات العلماء وطلبة العلم والصوفية، والقومة من مؤذنين وخدام وبوابين وفراشين وغيرهم. بالإضافة إلي ما كان ينفق من ريع هذه الأوقاف في سبيل التوسعة عليهم في شهور رجب وشعبان ورمضان من كل عام، وإذا تبقي بعد ذلك شيء فإنه كان علي الناظر علي هذه الأوقاف أن يصرفه في وجُوه البر والقربات والأجر والمثوبات ثم للفقراء والمساكين أينما كانوا وحيثما وجدوا[٣٤].

وتأتي المدارس في مقدمة المؤسسات التعليمية التي قاموا بتشيدها في مصر في ذلك العصر. والتي واكبت ازدهار النشاط الفكري وتنوعه عند المسلمين، واستوعبت العلوم والدراسات المتعددة، وعاش في جنباتها العلماء وطلاب العلم عيشة هادئة مستقرة مكّنتهم جميعًا من مواصلة رسالتهم في انتظام، وغدت بمثابة جامعات بالمعني الحديث الذي نعرفه، سواء من ناحية تنوع الدراسات التخصصية ورقي مستواها، وقدرتها علي استيعاب طلاب العلم الوافدين إليها، فضلاً عن أنها تميزت غالبًا بمساكن لطلاب العلم والمدرسين، وغالبًا ما كان يلحق بها سبيل للشرب، يعلوه مكتب (كتّاب) لتعليم الأطفال، بالإضافة إلي وجود مرافق لخدمة النازلين بها[٣٥].

من هذه المدارس، تلك المدرسة التي شيدها الأمير - شمس الدين آق سنقر الفارقاني (ت ٦٧٧هـ/١٢٨٧م) أحد كبار الأمراء أيام السلطان الظاهر بيبرس، بناها بالقرب من داره داخل باب سعادة بالقاهرة[٣٦] يقول عنها المقريزي: "هذه المدرسة بابها شارع في سويقة حارة الوزيرية من القاهرة فتحت في يوم الإثنين رابع جمادي الأولي سنة ست وسبعين وستمائة وبها درس للطائفة الشافعية ودرس للطائفة الحنفية أنشأها الأمير شمس الدين آق سنقر الفارقاني السلاحدار...." [٣٧].

والمدرسة الحسامية، والتي بخط المسطاح من القاهرة قريب من حارة الوزيرية، نسبة إلي الأمير حسام الدين طرنطاي المنصوري (ت ٦٨٩هـ/١٢٩٠م) نائب السلطنة

بديار مصر، بناها إلي جوار داره وجعلها برسم الفقهاء الشافعية، وفي منتصف القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي كانت موجودة في مواجهة سوق الرقيق[٣٨].

والمدرسة الآقبغاوية بجوار الجامع الأزهر، علي يسرة من يدخل إليه من بابه الكبير البحري، وفي عصر المقريزي أصبحت داخل باب الجامع علي اليسار حيث المكتبة، بناها الأمير علاء الدين آقبغا بن عبد الله من عبد الواحد الناصري (ت٧٤٤هـ/١٣٤٣م) أحد مماليك السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وأخو زوجته خوند طغاي(٣٩) قرر فيها درسًا للشافعية، ودرسًا للحنفية، وجعل فيها عدة من الصوفية ولهم شيخ، وقرر بها طائفة من القراء لقراءة القرآن الكريم بشباكها، وجعل لها إمامًا راتبًا ومؤذنًا وفراشين وقومة ومباشرين، وجعل النظر عليها للقاضي الشافعي بديار مصر، ووقف عليها حوانيت خارج باب زويلة بخط تحت الربع وقرية بالوجه القبلي[٤٠].

والمدرسة الدوادارية، التي بناها الأمير ركن الدين بيبرس بن عبد الله المنصوري صاحب التاريخ المعروف (ت ٧٢٥هـ/١٣٢٤م)، أوقف عليها عدة أوقاف وعلي وجوه البر المختلفة، ورتب فيها درسًا للحنفية، هذه المدرسة بسويقة العزي خارج باب زويلة من القاهرة[٤١]. والمدرسة القراسنقرية تجاه خانقاه سعيد السعداء فيما بين رحبة باب العيد وباب النصر. أنشأها الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري (ت ٧٢٨هـ/١٣٢٧م) عام سبعمائة، وبني بجوارها مسجداً معلقًا ومكتبًا لإقراء أيتام المسلمين، وجعل بهذه المدرسة درسًا للفقهاء الحنفية ووقف علي ذلك داره التي بحارة بهاء الدين[٤٢].

والمدرسة الفارسية، بخط الفهادين من أول العطوفية بالقاهرة، في أرض كانت عليها كنيسة قديمة تعرف بكنيسة الفهادين، فهدمها الأمير فارس الدين ألبكي في سنة ست وخمسين وسبعمائة، وبني موضعها المدرسة التي نسبت إليه، ووقف عليها وقفًا بمصالحها وبما تحتاج إليه من جميع الوجوه[٤٣].

والمدرسة الأيتمشية (هذه المدرسة خارج القاهرة داخل باب الوزير تحت قلعة الجبل برأس التبانة أنشأها الأمير الكبير سيف الدين أيتمش البجاسي ثم الظاهري في سنة خمس وثمانين وسبعمائة، وجعل بها درس فقه للحنفية وبني بجانبها فندقًا

كبيرًا يعلوه ربع، ومن ورائها خارج باب الوزير حوض ماء للسبيل وربعًا، وهي مدرسة ظريفة...) (٤٤).

كما تأتي بيوت الصوفية كأحد المؤسسات التعليمية التي أدت دورًا في الحياة الثقافية في ذلك العصر، إذ كان كل بيت من بيوت الصوفية من زوايا وربط وخانقاوات، يعتبر بمثابة وحدة ثقافية قائمة بذاتها يتدارس فيه الصوفية كثيرًا من العلوم الدينية سواء في الفقه كل علي مذهبه، أم علوم القرآن وعلوم الحديث النبوي، إلي جانب غيرها من علوم العربية والسيرة والأدب، ويقوم مشايخ الصوفية بدور فعال في تدريس هذه العلوم وغيرها؛ بل وفي تعليم الأطفال أحيانًا. بل إن كثيرًا من كبار مشايخ الصوفية قد كان لهم حظ وافر في النشاط المكتبي، وتزويد مكتبات بيوت الصوفية بالكثير من مؤلفاتهم العديدة، أو التي كانت من مقتنياتهم الخاصة والتي حبسوها علي تلك البيوت ليستفيد منها طلبة العلم من الصوفية(٤٥).

من هذه البيوت التي بناها أمراء من أصل مغولي نذكر الخانقاه التي تنسب إلي الأمير بهاء الدين أرسلان الناصري الدوادار (ت ٧١٧هـ/١٣١٧م) أحد مماليك الأمير سلار نائب السلطنة (ت٧١٠هـ/١٣١٠م) بناها بخط منشأة المهراني فيما بين القاهرة ومصر، ورتب بها شيخًا وصوفية، وجعل لها أوقافًا جارية، وكان ينزل إليها من القلعة في كل ليلة ثلاثاء فيبيت بها، ويحتفل الناس بالحضور إليه(٤٦). ومنها خانقاه قوصون، هذه الخانقاه في شمال القرافة مما يلي قلعة الجبل تجاه جامع قوصون أنشأها الأمير سيف الدين قوصون وكملت عمارتها في سنة ست وثلاثين وقرر في مشيختها الشيخ شمس الدين أبا الثناء محمود بن أبي القاسم أحمد الأصفهاني ورتب له معلومًا سنيًا من الدراهم والخبز واللحم والصابون والزيت وسائر ما يحتاج إليه حتي جامكية غلام بغلته واستقر ذلك في الوقف من بعده لكل من ولي المشيخة بها وقرر بها جماعة كثيرة من الصوفية ورتب لهم الطعام واللحم والخبز في كل يوم وفي الشهر المعلوم من الدراهم ومن الحلوي والزيت والصابون وما زالت علي ذلك إلي أن كانت المحن من سنة ست وثمانمائة فبطل الطعام والخبز منها وصار يصرف لمستحقيها مال من نقد مصر وتلاشي أمرها من بعد ما كانت من أعظم جهات البر وأكثرها نفعًا وخيرًا(٤٧).

وخانقاه طغاي النجمي، هذه الخانقاه بالصحراء خارج باب البرقية فيما بين قلعة الجبل وقبة النصر، أنشأها الأمير طغاي تمر النجمي (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م) دوادار الملك الصالح إسماعيل بن محمد بن قلاوون وأخويه الملك الكامل شعبان، والمظفر حاجي، كانت من المباني الجليلة، رتب بها عدة من الصوفية وجعل شيخهم الشيخ برهان الدين الرشيدي وبني بجانبها حمامًا وغرس في قبليها بستانًا وعمل بجانب الحمام حوض ماء للسبيل ترده الدواب ووقف علي ذلك عدة أوقاف.... ومنها رباط الست كليلة المدعوة دولاي ابنه عبد الله التتارية، زوج الأمير سيف الدين البرلي السلاحدار الظاهري وجعله مسجدًا ورباطًا، ورتب فيه إمامًا ومؤذنًا وذلك في ثالث عشري شوال سنة أربع وتسعين وستمائة[٤٨].

وتجدر بنا الإشارة إلي أن المساجد في العصر المملوكي قامت بدور فعال في الحياة الثقافية، فهي إلي جانب كونها أحد المراكز الثقافية الهامة للتعليم ونشر المذهب السني، فهي قلب المجتمع النابض، وعقله المفكر وإرادته الدافعة وضميره الوازع، ولعل خير من عبّر عن هذه الحقيقة الفقيه المعاصر أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري الفاسي المالكي الشهير بابن الحاج (ت٧٣٧هـ/١٣٣٦م). عندما قال أن أماكن التدريس ثلاثة هي: البيت والمدرسة والمسجد إلا الفائدة من التدريس فيه أن تظهر به سنة أو تخمد به بدعة أو يتعلم به حكم من أحكام الدين، والمسجد خير مكان تتوافر فيه الفوائد لأنه موضع مجتمع الناس"[٤٩].

أما عن الجوامع والمساجد التي قاموا بتشييدها في مصر، فنذكر منها الجامع الذي عمَّره الأمير سيف الدين كراي المنصوري سنة (٧٠١هـ/١٣٠١م)، والذي ذكره المقريزي في خططه باسم جامع كراي وقال عنه "هذا الجامع بالريدانية خارج القاهرة عمَّره الأمير سيف الدين كراي المنصوري في سنة إحدي وسبعمائة لكثرة ما كان هناك من السكن فلما خربت تلك الأماكن تعطل هذا الجامع وهو الآن قائم وجميع ما حوله دائر وعما قليل يدثر..." [٥٠] ويستفاد مما رواه صاحب بدائع الزهور أنه كان عامراً لغاية القرن التاسع الهجري، الخامس عشر للميلاد، وهو الجامع الذي يعرف باسم

جامع الكومي بشارع الوايلية الصغري بقسم الوايلي بالقاهرة،ويعرف بجامع الكومي نسبة إلي الشيخ علي أبي منصور الكومي الذي عمل به فترة كبيرة من الزمن(٥١).

وجامع الأمير ألماس الحاجب الناصري (ت٧٣٤هـ/١٣٣٣م) "هذا الجامع بالشارع خارج باب زويلة بناه سيف الدين ألماس الحاجب وكمل في سنة ثلاثين وسبعمائة وكان ألماس هذا أحد مماليك السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فرقاه إلي أن صار من كبار الأمراء"(٥٢)، وهو لا يزال قائمًا في شارع الحلمية من جهة شارع محمد علي، بدأت عمارته سنة (٧٢٩هـ/١٣٢٨م) وأتمه سنة (٧٣٠هـ/١٣٢٩م) (٥٣).

وجامع قوصون، الذي بناه الأمير الكبير سيف الدين قوصون (ت٧٤٠هـ/١٣٣٩م) الذي حضر من بلاد بركة خان، أي بلاد مغول القفجاق صحبة خوند ابنة أزبك التي تزوجها السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة (٧٢٠هـ/١٣٢٠م) "هذا الجامع بالشارع خارج باب زويلة ابتدأ عمارته الأمير قوصون في سنة ثلاثين وسبعمائة وكان موضعه دار بجوار حارة المصامدة من جانبها الغربي تعرف بدار أقواش نميله ثم عرفت بدار الأمير جمال الدين قتال السبع الموصلي فأخذه من ولدها وهدمها وتولي بناءه شاد العمائر واستعمل فيه الأسري وكان قد حضر من بلاد توريز بَنَّاء فبني مئذنتي هذا الجامع علي مثال المئذنة التي عملها خواجا علي شاه وزير السلطان أبي سعيد في جامعه بمدينة توريز وأول خطبة أقيمت فيه يوم الجمعة من شهر رمضان سنة ثلاثين وسبعمائة..." (٥٤).

كانت هذه بعض الأمثلة للمنشآت الثقافية التي أنشأها بعض الأمراء المغول الأصل، والتي تشهد لهم بمدي مساهمتهم في إثراء الحياة الثقافية في مصر في العصر المملوكي بما أدته من دور في إنهاض الحياة الثقافية، وبما حبسوه عليها من أوقاف ساعدتها علي أداء رسالتها في ذلك العصر، سواء في حياة واقفيها أو بعد مماتهم.

وباستثناء ما شيد من مؤسسات تعليمية فإن العناصر المغولية الأصل قامت بعدة جهود واضحة في مجال الحياة الثقافية، وشاركوا مشاركة فعالة في كثير من نواحي

تلك الحياة. وهنا يجب أن نشير إلي صغار أبناء هذه العناصر الذين كانوا يصلون إلي مصر في ذلك العصر، وبسبب ما كان يتوسم فيهم من الخير إما لنجابتهم أو ذكائهم أو لميزة يراها فيهم من اشتراهم من السلاطين وكبار الأمراء المماليك فكانوا يلحقونهم بالمكاتب أي الكتاتيب مع أبنائهم ليتعلموا القراءة والكتابة ويحفظوا القرآن وبعض القرآن الكريم وبعض الأحاديث النبوية، مثال ذلك: ما تشير إليه بعض المصادر من أن الأمير سيف الدين قلاوون - ولم يكن قد تولي السلطنة بعد - عندما اشتري بيبرس المنصوري عام (٦٥٩هـ/١٢٦٠م) فقد أرسله إلي المكتب مع أبنائه ولم يدخله الطباق مع سائر المماليك، فدخل بذلك في زمرة أرباب الجامكيات، وهم الذين يمثلون المماليك ذوي المرتبات المنتظمة، وكانوا يُسمون المماليك الكتابية أرباب الجامكيات، أي المماليك الذين أرسلوا إلي المكتب. وكذلك ما تشير إليه المصادر المعاصرة من أن الأمير سيف الدين كوندك الساقي، والذي تولي نيابة السلطنة في عهد الملك السعيد محمد بركة خان بن الظاهر بيبرس لقي تعليمه وتربي في المكتب مع الملك السعيد هذا عندما كانا طفلين(٥٥). كما أن الجيل الثاني علي الأقل من أبناء الوافدين منهم تعلم اللغة العربية، وحفظ القرآن الكريم في المكاتب وكانت لهم مساهماتهم في كثير من أوجه النشاط الثقافي في ذلك العصر، وهذا ما سوف نوضحه في السطور القليلة القادمة، أما عن الجيل الأول من هؤلاء المغول فقد احتفظوا بلغتهم الأصلية كلغة للتخاطب والتعامل في الحياة اليومية، وعلموها أبناءهم. أو بعبارة أخري إن هجرات المغول إلي مصر كانت من ذلك النوع الذي يتسم فيه المهاجرون بسمة التكيف مع المهجر، حيث كان كثير من أبناء هؤلاء المهاجرين وأحفادهم يستمرون في دولة المهجر مكونين بذلك جيلاً من المهاجرين الدائمين أكثر ارتباطًا بالمهجر من ارتباطهم بالوطن الأم(٥٦). لذا لا غرابة أن نسمع عن كثير منهم بعد أن أتموا تعليمهم سواء في "الكتاتيب" المكاتب، أم في الطباق، أنهم واصلوا تعليمهم خاصة في العلوم الدينية، فمنهم من حفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب وحرص علي تجويده، ومنهم من برع في الفقه والحديث والأدب ونظم الشعر(٥٧) فقد اشتهر الأمير محمد بن جنكلي بن البابا المتوفي سنة (٧٤١هـ-١٣٤٠م) بأنه درس الحديث والطبقات وقارف النظم(٥٨). ومن الأمراء المغول

الذين كانت لهم مشاركات في فنون القول وبخاصة إقراض الشعر الأمير سيف الدين نوغاي "نوغيه" أحد كبار الأمراء في عصر الناصر محمد بن قلاوون. فعندما توجه إلي الناصر محمد بعد أن تخلي عن السلطنة، وعندما سأله الناصر محمد عن سبب قدومه في ذلك الحين إلي عقبة أيلة حيث كان الناصر يتصيد بها فأنشأ نوغيه يقول:

أنت المليك وهذه أعناقنا

خضعت لعز علاك يا سلطاني

أنت المرجي يا مليك فمن لنا

أسد سواك ومالك البلدان

بالإضافة إلي عدة أبيات أخري، ثم حكي له ما وقع له منذ خرج الملك الناصر من مصر إلي يوم تاريخه(٥٩) ومنهم من كان شغوفًا باقتناء الكتب في أنواع العلوم المختلفة، نذكر منهم علي سبيل المثال الأمير بدر الدين بيدار بن عبد الله المنصوري (ت٦٩٣هـ/١٢٩٣م) نائب السلطنة بالديار المصرية في دولة الأشرف خليل بن قلاوون. "كان بيدار جليل القدر، ويرجع إلي دين وعقل وعدل وكان يحب جمع الكتب في أنواع العلوم، واقتني منها جمله واستنسخ جمله أيضًا وكان يحب الفضلاء وأهل العلم ويقدمهم ويكرمهم، وهو الذي خرج علي الأشرف خليل ابن قلاوون وقتله هو والأمير حسام الدين لاجين..." (٦٠).

ومنهم من حرص علي عقد مجالس العلم المختلفة وتقريب العلماء إليه أمثال الأمير ألجاي بن عبد الناصري الدوادار (ت٧٣٢هـ/١٣٣١م)، أحد مماليك السلطان الناصر محمد بن قلاوون الذي كان يحب الفضلاء ويميل إليهم، ويقضي حوائجهم، ويناموون عنده ويبحثون ويسمع كلامهم ويتعاطي معرفة علوم كثيرة..."(٦١).

ومن المرجح كذلك أن بعض أبناء العناصر المغولية التي وفدت علي مصر كان لهم دراية بالطب، ولعلهم مارسوه في نطاق الجيش المملوكي، ودليلنا علي ذلك ما أشارت

إليه بعض المصادر المعاصرة، فقد جاء في ترجمة الأمير سيف الدين عبد الله الذي توفي عام (٦٨٠هـ/١٢٨١م) في عهد المنصور قلاوون لقب "الحكيمي" أيد غمش بن عبد الله الحكيمي، يلقب سيف الدين"، إذ إن لقب الحكيمي" هذا وكما هو معروف من ألقاب النسبة إلي المهنة، وبما يفيد أنه اشتغل حكيمًا أو طبيبًا، أو كانت له بعض الممارسات الطبية، وهو أحد كبار الأمراء بالديار المصرية، وكان ضمن جماعة أمراء المغول الذين اتفقوا مع الأمير سيف الدين كوندك نائب السلطنة في عهد الملك السعيد بركة بن الظاهر بيبرس علي قتل المنصور قلاوون، وقبض عليه وقتله المنصور قلاوون ضمن من قتل من الأمراء المتآمرين(٦٢).

وفي القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي، أي في دولة المماليك الثانية أو الجراكسة كان أبناء العناصر المغولية يلعبون دورًا مهما في الحياة الثقافية، وشاركوا فيها بنصيب وافر، فقد كان منهم بعض كبار الفقهاء في ذلك العصر، حيث تذكر بعض المصادر المعاصرة منهم: "أحمد بن عبد الله بن الحسن بن كوغان بن عبد الله الشهاب الأوحدي– نسبة لبيبرس الأوحدي نائب القلعة لكون جده لمّا قدم من بلاد الشرق سنة عشر وسبعمائة اتصل بخدمته وناب عنه بالقلعة فشهر به – القاهري المقرئ الشافعي الأديب المؤرخ ولد في المحرم سنة.... ورافق شيخنا (يقصد ابن حجر العسقلاني) في بعض ذلك وكتب بخطه وبرع في القراءات والأدب وجمع مجاميع واعتني بالتاريخ وكان لهجابه وكتب مسودة كبيرة لخطط مصر والقاهرة تعب فيها وأفاد وأجاد وبيض بعضها فبيضها التقي المقريزي ونسبها لنفسه مع زيادات، وله نظم كثير قال شيخنا سمعت من نظمه وفوائده... كان بزي الأجناد قليل ذات اليد. مات في تاسع جمادي الأول سنة إحدي عشر وثمانمائة..." (٦٣) وواضح من هذا النص أن الشهاب الأوحدي هذا من أصل مغولي.

ومنهم (أحمد بن علي بن قرطاي الشهاب أبو الفضل بن العلاء بن السيف المصري الحنفي سبط محمد بن بكتمر الساقي الحنفي ويعرف بسيدي أحمد بن بكتمر ولد في يوم الأحد ثالث عشري شعبان سنة ست وثمانين وسبعمائة بالقاهرة ونشأ بها

في ترف زائد ونعمة سابغه وثروة ظاهرة من إقطاع أوقاف كثيرة جداً حتي أن غلته تزيد علي عشرة دنانير كل يوم فيما قيل ومع ذلك فلا يزال في دين كثير لكونه يقتني الكتب النفيسه بالخطوط المنسوبة والجود المتقنة وغير ذلك من الآلات البديعة والقطع المنسوبة الخط وقد اشتغل في الفنون وأتقن صنائع عدة وبرع في الفقه وكتب علي العلاء بن عصفور فبرع في الكتابة وفنونها حتي فاق في المنسوب لا سيما في طريقة ياقوت... وأكثر النظر في التاريخ والأدبيات وقال الشعر الجيد وهو ممن قرض سيرة المؤيد لابن ناهض. وكان فاضلاً أديباً شاعراً لطيفاً حسن المحاضرة صبيح الوجه محباً في الفضائل والتحف ذا ذهن وقاد مع السمن الخارج عن الحد.... توفي عاشر ذي القعدة سنة إحدي وأربعين وثانمائة..." ولقد ظهر له بعد موته من الكتب النفسية والتحف ما أدهش الناس"(٦٤).

ومنهم (أحمد بن نوكار الشهابي الناصري نشأ فقرأ القرآن علي القدوري والمنار وألفية النحو والشاطبية عند فارس الآتي وعرض علي شيخنا (ابن حجر العسقلاني) والعيني وغيرهما بل عرض علي الظاهر جقمق وأنعم علي فقيهه بمائة دينار وزاد جامكيته وأخيه،... واشتغل بالتجويد وغيره وكذا اختص بأخرة بالجلال السيوطي وأخذ عنه فنون ويذكر بصلاح وورع وتحر عقل وانعزال وتودد، وبلغني أن الأشرف قايتباي جعل نظر جامعه يالكبش له"(٦٥) هؤلاء وغيرهم ممن تذكر المصادر المعاصرة من سلالة العناصر المغولية الذين نشأوا في الإسلام في مصر، فحفظوا القرآن الكريم ودرسوا الفقه وتتلمذوا علي أيدي مشاهير ذلك العصر في النحو والعربية والحديث، بل إن منهم من اشتغل بعلم الحديث النبوي الشريف حتي برع وتولي تدريسه في المدارس الشهيرة مثل المدرسة الظاهرية نسبة إلي الظاهر بيبرس(٦٦).

ونظراً لطبيعة العلاقات المضطربة بين دولتي المماليك في مصر والمغول في إيران، قبل أن يتم الصلح بينهما في عهد الناصر محمد بن قلاوون، وما قام به هؤلاء المغول من محاولات متكررة للاعتداء علي البلدان الإسلامية الخاضعة لسلطنة المماليك في مصر، فكان لا بد لمؤرخينا المعاصرين من أن يبرزوا هذه الأحداث، وأن يستقصوا

أخبار هؤلاء القوم ورصد تحركاتهم بل والحديث عن هجراتهم إلي مصر وأسبابها، وتقاليدهم ورسومهم، لذا استقصي بعض مؤرخينا كل ما يهمهم للوقوف عليه من معلومات عن أبناء العناصر المغولية الذين وفدوا إلي الديار المصرية. وقليل منهم من أشار إلي ذلك صراحة. ولنضرب مثلاً بالمؤرخ موسي بن محمد يحيي اليوسفي المتوفي عام (٧٥٩هـ/١٣٥٨م) وهو الذي نقل عنه كثيرون من مؤرخي العصر المملوكي أمثال: المقريزي وابن تغري بردي، والعيني، وابن حجر وغيرهم، فقد استفاد من صداقته للأمير سيف الدين أيتمش المحمدي (ت ٧٣٦هـ/١٣٣٥م) حيث أشار اليوسفي إلي أن صداقته لهذا الأمير تعود إلي سنة (٧٠٩هـ/١٣١١م)، فقد وفر له سبل الاتصال بكبار رجالات العصر، إضافة إلي أنه كان بمثابة المصدر لكثير من المعلومات عن أخبار المغول "وكان من المحسنين إليَّ، وسبب تكبيري بين الناس. وقدمني للسلطان دفعتين والنائب حتي نلت منه كل خير وسمعت منه من الغرائب ما استعنت به علي هذا التاريخ وغيره من أمور كانت تتفق له مع السلطان، وما كان يتفق له في بلاد الشرق وغيره"(٦٧).

كذلك بذكر مؤرخنا الشهير ابن تغري بردي في حديثه عن الأمير الكبير سيف الدين أسنباي الزردكاشي (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، وهو من أعيان المماليك الظاهرية برقوق. يقول عنه: "وكان بيننا صحبة أكيدة، وهو أحد من كنت آخذ عنه تراجم من لا أدركته من الأمراء الظاهرية برقوق وهلم جرا إلي دولة الأشرف برسباي، فسكت المقريزي وتكلم أسنباي علي الإنصاف إلي أن انصرفا وتفرقا، ثم بعد ذلك سألت عنه من الشيخ تقي الدين فقال: ما رأيت من يحفظ الحوادث والوقائع برمتها مثل هذا..."(٦٨) وكذلك يقول عن الأمير سيف الدين أسنبغا بن بكتمر البكري (ت ٧٧٧هـ/١٣٧٥م) من مماليك السلطان الأشرف شعبان بن حسين (وكان أميراً جليلاً، عارفًا خبيرًا بالوقائع وغيرها، قديم الهجرة، ظاهر الحرمة والوقار والسكون، حسن الكتابة، طيب الأخلاق، لين الجانب، رحمه الله تعالي) (٦٩).

وتجدر بنا الإشارة إلي أن الدقة التي تتميز بها المعلومات التي زودنا بها المؤرخ بيبرس المنصوري عن المغول والتتار، ترجع لا إلي أنه مغولي الأصل، أو لأنه علي حد قول ابن تغري بردي (كان عاقلاً، فاضلاً، بارعًا، عارفًا، سيوسًا، ذا مشاركة وفضل وصنف تاريخًا كبيرًا أجاد فيه وأبدع....) فحسب[٧٠] بل لأن بيبرس المنصوري استقاها رأسًا من الأمير سيف الدين جنكلي بن البابا، وهو من كبار الشخصيات المغولية التي وفدت علي مصر سنة (٧٠٣هـ/١٣٠٣م)، ودونها في واحد من أهم مؤلفاته التاريخية وهو كتاب التحفة الملوكية في الدولة التركية وبخاصة في الفترة التي سبقت السنوات من (٦٨٥-٧١١هـ)، والتي كان فيها شاهد عيان بفضل ما تقلده من وظائف وقربه من السلطان[٧١].

وإذا تركنا الحديث عن بيبرس المنصوري كأحد كبار المؤرخين المغول، وهو ما سوف نشير إليه في السطور التالية، ونظرنا إليه علي أنه أحد أبناء العناصر المغولية المتواجدة في مصر، والمصادر التي استقي منها بعض مشاهير مؤرخي ذلك العصر كثيرًا من المعلومات التاريخية عن الأحداث التي شارك فيها بيبرس المنصوري بنفسه، لوجدنا النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ت ٧٣٣هـ)، صاحب كتاب نهاية الأرب يذكر صراحة أنه نقل أخبار تلك الفتنة التي أحدثها علم الدين سنجر للقضاء علي العناصر المغولية والانفراد بالسيطرة علي العرش خاصة وأن السلطان الناصر محمد بن قلاوون كان صغير السن حيث كان قد بلغ تسع سنين، فيقول: "وأخبرني الأمير ركن الدين بيبرس في ليلة الثامن من شوال سنة سبع وسبعمائة، أنه ضرب علي رأسه بدبوس، وأراني أثر الضربة. وكان قد ذكر لي ذلك، في أثناء ذكره لسالف خدمة السلطان وما لقيه وقاساه"[٧٢].

وإذا كان الأمير ركن الدين بيبرس الخطائي المنصوري الدوادار مملوك السلطان سيف الدين قلاوون، والذي جاء إلي مصر عام ٦٥٩هـ في سن يتراوح ما بين العاشرة والثانية عشرة، وتربي فيها، كان واحدًا من المصادر التي استقي منها بعض المؤرخين الذين كتبوا في التاريخ الحربي بما له من خبرة في ذلك الميدان.والواقع أن نشأة

بيبرس في وسط مملوكي أتاحت له ميزات كثيرة، فكان علي صلة بالبلاط المملوكي وبالطبقة الحاكمة بدرجة مكنته من الاطلاع علي كثير من أمور الدولة. فلم يكن شاهد عيان فقط للأحداث بل شارك مشاركة فعالة فيها، فاتسمت مؤلفاته بالصدق والمعايشة الحقيقية. كذلك من الملاحظ في كتاباته شيوع بعض الألفاظ المغولية الأصل مثل كلمة (الإيلجية) أي الرسل الذين يرسلهم الخان المغولي لأحد الأمراء أو الحكام، وكلمة (جوك) وهي كلمة مغولية أيضًا معناها الجلوس علي الركبتين كدليل علي الاحترام وتؤدي إلي الحكام دلالة علي الخضوع والولاء[٧٣] كما أنه واحداً من المؤرخين الذين أخذ عنهم كثير من مؤرخي العصر المملوكي وبطريق غير مباشر أمثال: المقريزي وابن تغري بردي[٧٤].... ومن الواضح أنه بعد أن انتهي من تاريخ دولة المماليك علي حدة، فكتب مؤلفه (التحفة الملوكية في الدولة التركية) في سنة ٧١٠هـ، واستكملها حتي سنة ٧١١هـ، وجعلها هدية للسلطان الناصر، لكي يشرفه بمطالعة هذا التاريخ ويعطره بملاحظاته ويجتلي منه أنوار سلفه الشهيد ويجتني ثمار تصرفه السعيد. وهذا الكتاب يكشف لنا عن شغف المؤلف بالتاريخ وحبه واعتنائه بسرد الأحداث والوقائع لقيمتها التاريخية في حد ذاتها. وقد اقتصر بسرد للأحداث علي ذكرها مرتَّبة حسب السنين الهجرية، علي عادة المؤرخين في عصره، دون الخوض في ذكر من توفي من مشاهير الرجال والأعلام. وفي الفترة الأولي من تاريخه أي ما بين عامي (٦٤٧-٦٨٥هـ) فإنه يقوم بسرد الأحداث المأخوذة ممن سبقه من المؤرخين وأما ما سمعه من النقلة الذين عركوا الأحداث وعاصروها. وفي الفترة من (٦٨٥-٧١١هـ) فهي سرد لشاهد عيان. وهذا التاريخ الذي كتبه في التحفة قد اقتبسه منه كثيرون ممن خلفه من المؤرخين الذين عاشوا في القرن التاسع سواء بصورة مباشرة، أو بصورة غير مباشرة وكما سبق أن أسلفنا[٧٥].

ولم يكن الأوحدي وبيبرس المنصوري هما فقط ممن اهتم بالتاريخ وتدوين الأحداث بل تشير المصادر المعاصرة إلي البعض الآخر ممن اهتم بالتأريخ للفقهاء ورجال الحديث بطبقاتهم المختلفة، فالصفدي في كتابة الوافي بالوفيات يذكر أن الأمير

ناصر الدين ابن البابا، محمد بن جنكلي بن البابا، أحد أمراء الدولة الناصرية محمد بن قلاوون، الذي توفي بالقاهرة في شهر رجب سنة إحدي وأربعين وسبعمائة وقد تجاوز الأربعين (كتب طبقة واشتغل في غالب العلوم ولم يزل مواظبًا علي سماع الحديث واختلط بالشيخ فتح الدين (ابن سيد الناس) كثيراً وعنه أخذ معرفة الناس وأيامهم وطبقاتهم وأسماء الرجال وكان آية في معرفة فقه السلف ونقل مذاهبهم وأقوال الصحابة والتابعين وهذا أجود ما عرفه مع مشاركة جيدة في العربية والطب والموسيقي... وكان يتمذهب بمذهب الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه... خرج له شهاب الدين أحمد بن أيبك الدمياطي أربعين حديثًا وحدث بها قبل موته وقد شاركته في بعض سماعاته وسمع بقراءتي بعض تصانيف الشيخ فتح الدين) [٧٦].

ولعلنا لا نغالي إذ قلنا أنه كان لأبناء العناصر المغولية أثرهم الواضح في شيوع نوع من الكتابات الخاصة بالفروسية لإرشاد المعلم والمتعلم إلي ما ينبغي معرفته من أصول الفروسية من حيث ركوبه الخيل ورياضتها، والتدريب علي الأسلحة المختلفة من الطعن بالرمح، والضرب بالسيف، والرمي بالنبل، ومزاولة ألعاب الفروسية، ذلك باعتبار أنهم كانوا من المحاربين الأفذاذ، ولما أحدثته فتوحاتهم من أصداء كان لها هذا الأثر. ومعظم الرسائل التي وضعت في هذا المجال ترجع إلي العصر المملوكي الأول، إذ اهتم السلاطين بتعليم المماليك في الطابق، واقتضت الأحوال وضع رسائل لشرح التداريب الحربية وموضوعات الفروسية. لذا زخرت هذه الرسائل بالمصطلحات الفنية الغريبة عن اللغة العربية، ولم يتقيد مؤلفو هذه الرسائل بجودة أسلوب ولا سلامة العبارة، فكثرت بها الأخطاء الإملائية واللغوية والألفاظ العامية.وأكثر هؤلاء المؤلفين شغل مناصب حربية في الدولة المملوكية، وحرص علي تضمين هذه الرسائل مذاهب أساتذة الفروسية ومعلميها في فنونها المختلفة[٧٧].

كما استفاد المشتغلون بالتاريخ لفنون القتال وأعمال الفروسية مما كتبه بعض أمراء المماليك من العنصر المغولي، فالشيخ محمد بن عيسي الحنفي الأقصرائي (ت١٣٥٠هـ) جمع ما ألفَّه نجم الدين الأحدب (ت ٦٩٤هـ -١٢٩٥م) أستاذ جميع

مؤلفي كتب الفروسية في مجال العمل بالرمح، وبكتوت الرماح (ت ٧١١هـ-١٣١١م) وغيره من الأستاذين في كتاب جامع شامل للفروسية والفنون الحربية سماه (نهاية السؤال والأمنية في تعلم أعمال الفروسية) [٧٨]. وتنبغي الإشارة إلي أن مؤلفات الفروسية - بصفة عامة - كتبها رجال كانوا في الغالب ممن اشتغلوا بتعليم ذلك الفن، أو ممن جمعوا ما صار قاعدة علمية ونظرية في مجال الفروسية والفنون الحربية. والقليل منهم فقط ضمن مؤلفه أو مصنفه لوحات ملونة ورسومات تخطيطية تعين القارئ علي فهم ما تحويه تلك الكتب..ويرجع ذلك إلي ذيوع اللسان التركي، وإلي دخول كثير من ألفاظ اللغات المجاورة من فارسية ومغولية في مصطلح الجيش والبحرية والدواوين[٧٩].

وهنا تنبغي الإشارة إلي أن المغول الذين وفدوا علي مصر لم يكن لهم تأثير واضح في مجال الفنون التشكيلية، بدليل أن المخطوطات المزوقة بالتصاوير التي أنتجتها مصر في عصر المماليك تمتاز بمحافظتها علي التقاليد العربية وبخلوها من التأثيرات المغولية في سحن الآدميين ورسم الثياب والأدوات المنزلية، وتمثيل المناظر الطبيعية ولا سيما الأشجار والنبات بروح صينية قريبة من الواقع، ورسم بعض الحيوانات المغولية كالحصان والهجين، والعناية بالتعبير عن أعضاء الحيوان بمهارة. بالإضافة إلي عناية الرسام المغولي برسم الموضوعات الحزينة التي تمثل الصراع والحرب، وذلك لطبيعة المغول الحربية وحبهم لتمجيد أعمال القسوة والعنف[٨٠].

أما عن أثر المغول في الأدب، فإن الباحث في الأدب المملوكي في ذلك العصر سوف يجد أن الشعراء قد رأوا في المرأة التركية بوجه عام والمغولية بوجه خاص صورة مثلي للجمال، فكثر تغزلهم بهن وإشادتهم بجمالهن، ويصف محي الدين بن عبد الظاهر إحداهن بوجهها الناصع وشعرها الفاحم، والتي بدت له كالملكة علي كل ما في الكون من مظاهر الجمال، فالبدر لا يزيد علي حامل لغاشية موكبها، والنجوم ليست أكثر من حاشية لها، وهو بتصويره هذا يستمد صورة مما يراه في المواكب السلطانية،

وليس أنسب من أن تكون هذه المواكب مدداً في رسم صورة هذه الفاتنة المغولية، فنراه يقول[٨١]:

أنا في حب مثلها لا أخاشي

لا ولا أرتضي مقالة واشي

ظبية من بنات خاقان لكن

شعرها منه رأينا النجاشي

غارت الشمس إذ رأتها نهاراً

لا ترى ظل شعرها لا تماشي

وإذا في دجنة قد تبدت

فلديها للبدر حمل الغواشي

أو تمشت في الليل قلت تراها

هي بدر له النجوم حواشي

وسادت معايير الجمال المغولي فأصبح الوجه الأبيض والشعر الفاحم من تمام الجمال، ولعلنا لاحظنا ذلك فيما مر من أبيات، كذلك صارت العيون الضيقة مثار فتنة الشعراء، فيقول سيف الدين بن المشد:

أوقع القلب في أشد الوثاق

ضيق العين ضيق الأحداق

ويقول الواداعي:

وطـرف يـضـيـق ويـلاه

مـن طـعـنـات الـنـجـل

ويصور ابن نباته انبهار العذول بجمال هذه العيون الضيقة لدرجة كف فيها عن عذله فيقول:

بهت العـذول وقـد رأي ألحـاظهـا

تـركـيـة الحليم سـفـيـهـاً

فـثني الملوم وقـال دونك والأسي

هذي مـضـايق لست أدخل فـيـها(٨٢)

وفي العصر المملوكي، شهد المجتمع المصري بوجه عام، ومجتمع القاهرة بوجه خاص ازدهار فنون الطرب والغناء وضروب اللهو نتيجة للرواج الاقتصادي الذي عم البلاد معظم ذلك العصر، من جراء مرور تجارة الشرق الأقصي بها بحيث انعكست آثاره واضحة في إقبال الناس حكاماً ومحكومين علي هذه الفنون والملاهي ومتع الحياة ولذاتها. ولم يدخر سلاطين وأمراء المماليك -بصفتهم الطبقة الحاكمة- وسعًا في الإقبال علي المطربين والمطربات والعازفين والعازفات، وتشييد المغانيات وهي: قاعات خصصت لسماع الغناء والطرب والاستمتاع بمشاهدة الرقص وسماع الموسيقي(٨٣) كما كثرت الإشارة في المصادر المعاصرة إلي ورود أعداد من الجواري الجنكيات من بلاد مغول إيران كهدايا لسلاطين المماليك في مصر، أي الجواري التي يجدن العزف علي الجنك وهو آلة وترية تشبه العود (٨٤).

ومما لا شك فيه أن الجواري الجنكيات لقين قبولاً لدي الناس من حكام ومحكومين، فلعبن بألباب الناس عزفاً وجمالاً، وبذلك أطلقن ألسنة الشعراء يقولون فيهن

ما يعن لهم من خواطر يلهبها ذلك الإحساس بالجمال وحلاوة وبراعة الأداء إلي الإكثار من الشعر الغنائي، والحديث عن الغناء والمغنيين وعن الطرب وآلاته[٨٥]. كما أن هؤلاء الجواري وغيرهن من بنات العناصر المغولية استأثرن بالحظوه وذلك لبراعة الكثيرات منهن في العزف علي الآلات المختلفة، نري ذلك بوضوح فيما نقرؤه من شعر هذا العصر. كما أن الباحث في الأدب المملوكي في ذلك العصر سوف يجد حشداً هائلاً من شعر الغزل والذي يعبر أصدق تعبير عن أثر هؤلاء الجواري في الحياة الأدبية. بل وذوق هذا العصر، ونظرته إلي الجمال، وبعض ما طرأ علي معايير هذا الجمال من تطور وتغيير [٨٦].

ويري أحد الباحثين المحدثين أنه نتيجة لكثرة أعداد الجواري في المجتمع المصري بوجه عام، ومجتمع القاهرة بوجه خاص في ذلك العصر، وما ترتب علي ذلك من تغييرات اجتماعية وأدبية، أن أثمر ذلك العصر فناً جديداً لم تعرفه الثقافة العربية والإسلامية من قبل، ألا وهو فن النقد الاجتماعي والدعوة إلي الإصلاح الديني والاقتصادي، وأن من حق المكتبة العربية الإسلامية أن تفخر بثلاثة كتب قيمة وفريدة في موضوعاتها: وهي كتاب المدخل إلي الشرع الشريف علي المذاهب لمؤلفه ابن الحاج، وكتاب إغاثة الأمة بكشف الغمة للمقريزي، والكتاب الثالث هو معيد النعم ومبيد النقم لتاج الدين السبكي، هذه المؤلفات تكشف لنا عن المفارقات العجيبة في حياة الناس، وتنتقد ما شاع في أوساطهم من بدع وعادات رذيلة، وأخلاق دميمة، وتوجه لهم النصح والإرشاد، وسهام النقد لكل ما يخالف روح الشريعة وجوهر الإسلام[٨٧].

كذلك كان لأبناء العناصر المغولية بوجه عام، وأبناء الأويراتية منهم بوجه خاص أثرهم في الأدب المملوكي حيث عرف غلمانهم بالجمال حتي كان (يقال لهم البدورة فيقال البدر فلان والبدر فلان) من شدة جمالهم. والمعروف أنهم قدموا إلي مصر في أوائل عصر السلطان الظاهر بيبرس، واعتنقوا الدين الإسلامي، وزاد عددهم زيادة كبيرة في عهد الملك العادل زين الدين كتبغا، وأنزلوا بالحسينية، وقد بهر جمالهم كثيراً من الشعراء المعاصرين. فهذا هو أحد شعراء المتصوفة وهو تقي الدين السروجي الذي

تدله بحي الحسينية وسكانه، وكتب قصيدة يعّبر بها عن مدي ولعه بهؤلاء الغلمان من المغول، وقد ذهب في قصيدته إلي حد ترصيع أبياته ببعض الألفاظ المغولية التي يفهمها معشوقه ويصور لنا المقريزي هذه الظاهرة وهي ظاهرة الغزل بالمذكر حيث يقول: "ولله در الشيخ تقي الدين السروجي إذ يقول من أبيات:

يا ساعي الشوق الذي مذ جري

جرت دموعي فهي أعوانه

خذلي جوابا عن كتابي الذي

إلي الحسينية عنوانه

فهي كما قيل وادي الحمة

وأهلها في الحن غزلانه

امشي قليلاً وانعطف يسرة

يلقاك درب طال بنيانه

واقصد بصدر الدرب ذاك

الذي بحسنه تحسن جيرانه

سلم وقل يخشي مسن أي

مسن اشت حديثًا طال كتمانه

وسل لي الوصل فإن قال بق

فقل أوت قد طال هجرانه[88]

واضح من هذه الأبيات بما لا يدع مجالاً للشك مدي شيوع ظاهرة الغزل بالمذكر في أدب ذلك العصر ليس هذا فحسب، بل واضح كذلك مدي شيوع بعض المصطلحات والألفاظ المغولية التي كثرت في ذلك العصر مثل كلمة (بق) و(أوت) وغيرها من الكلمات التي نقرأها عند شعراء ذلك العصر، ومؤرخيه فابن تغري بردي يعمد كثيراً إلي شرح مثل هذه الألفاظ، وقد سبق أن ذكرنا كلمة (جبجي) التي تعني الزردكاش وهو المشرف علي خزائن السلاح، وكانت مهمته كذلك إعداد آلات الحصار(٨٩). واسم (بيبرس) المركب من لفظين هما (باي) و(سري) ومعناه رأس سعيد أو سعيد الرأس. وكلمة (قصفا) التي تعني (قصير) وكلمة (طرنا) التي تعني (الكركي) والتي كان يتلقب بها بعض أمراء المماليك، وكلمة (سمز) التي تعني (سمين) والتي وصف بها بعض أمراء المغول(٩٠) بل إنه لما يؤكد شيوع اللغة المغولية بين صفوف المماليك من جهة وعامة الناس من جهة أخري ما يحكيه ابن تغري بردي عن أحد كبار أمراء المماليك المغولي الأصل وهو الأمير سيف الدين بشتك بن عبد الله الناصري (ت ٧٤٢هـ/١٣٤١م) أحد مماليك الناصر محمد بن قلاوون من أنه (كان زائد التيه، لا يكلم استاداره، ولا الكاتب إلا بترجمان...) (٩١) كما أنه تمت الاستفادة من أبناء العناصر المغولية في مصر في ترجمة الكتب الواردة من خانات المغول سواء مغول إيران أم مغول القفجاق، وإرسالهم في السفارات إليهم مثال ذلك: ما تشير إليه بعض المصادر من أن الأمير سيف الدين أو تامش الذي أرسله الناصر محمد بن قلاوون أكثر من مرة إلي العاهل المغولي بوسعيد (وكان أولئك القوم يركنون إلي عقله لأنه كان يعرف بالمغلي لساناً وكتابة ويدري آداب المغل،..... ويعرف بيوت المغل وأصولهم ويستحضر تواريخهم ووقائعهم، وكان إذا جاء من تلك البلاد كتاب إلي السلطان بالمغلي يكتب الجواب عنه بالمغلي، وإذا لم يكن حاضراً كتبه الأمير سيف الدين طاير بغا...) (٩٢).

أثر الهجرات المغولية فى الحياة الاجتماعية:

إن الدارس لتاريخ مصر الاجتماعي عصر سلاطين المماليك يجد نفسه أمام عدة عوامل أدت إلي طبع الحياة الاجتماعية في ذلك العصر بطابع خاص مميز: وأول هذه

العوامل يتمثل في طبقة المماليك التي دخلت علي المجتمع المصري وحكمته حكمًا مستقلاً مدة تقارب الثلاثة قرون، وهم الذين لم يختلطوا في الغالب بالمصريين، ولم يتأثروا بنظمهم وعوائدهم إلا في حالات قليلة وبقسط محدود. وارتبط بهم أبناء العناصر المغولية الذين هاجروا إلي مصر، وانخرطوا في السلك المملوكي. والعامل الثاني هو الحروب الصليبية وما نجم عنها من نمو العلاقات التجارية بين الشرق والغرب، وأثر ذلك فيما تم تحقيقه للطرفين من ثروة طائلة كانت لهم انعكاساتها الواضحة في مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية في مصر، فضلاً عن تأثر المماليك بالنظم الاقطاعية اللاتينية التي اقتبسوها من جيرانهم للصليبيين. أما العامل الثالث فهو إحياء الخلافة العباسية في مصر علي يد السلطان الظاهر بيبرس سنة (٦٥٩هـ)، وما ترتب عليه من نشاط كبير في مختلف ميادين الحياتين العلمية والدينية، وأثره الواضح في المجتمع المصري في ذلك العصر[٩٣].

إلا أن وجه الأهمية هنا يتمثل فيما كان لأبناء العناصر المغولية من تأثيرات اجتماعية هامة، هذه التأثيرات تبدو أول ما تبدو فيما ظهر في مصر من أطعمة وأشربة لم تكن معروفة فيها من قبل. فانتشر أكل لحوم الخيل، وعمرت بها الموائد بخاصة في المناسبات المختلفة من أفراح وحفلات، علي الرغم من أننا لم نسمع عن ظاهرة أكل لحوم الخيل في الأحوال العادية في العصور الإسلامية السابقة في مصر، بما يؤكد أن هذه الظاهرة التي أدخلها المماليك وتمسكوا بها إنما أتوا بها من مواطن المغول المختلفة وبخاصة مغول القفجاق بحوض نهر الفلجا، حيث كانت تؤكل لحوم الخيل في المواسم والأعياد[٩٤].

كذلك كان لأبناء العناصر المغولية هذه دور كبير في إدخال بعض أنواع من المشروبات أو الخمور والتي لم تكن معروفة من قبل في مصر، مثل مشروب (القميز) أو (القمز)، والذي لقي إقبالاً من قبل المماليك بوجه خاص منذ بداية العصر المملوكي، وكان يصنع من ألبان الأفراس والتي يتم تركها فترة لتتخمر ثم يتم تناولها[٩٥]. وتشير بعض المصادر المعاصرة إلي أن السلطان الظاهر بيبرس كان يشرب القمز حتي قبل

وفاته[٩٦]. وفي عهد من أتي بعده من سلاطين المماليك أصبح هذا المشروب مفضلاً سواء لدي السلاطين أم الأمراء المماليك. ففي أعقاب الانتصار الذي حققه السلطان المنصور سيف الدين قلاوون علي التتار في حمص عام ٦٨٠هـ فإنه (جمع الأمراء والأكابر ومقدمي العساكر في مجلس اتخذه للأنس والانفساح وأعده للهو والانشراح، فجلسوا للشراب ودارت عليهم بالقمز الكؤوس والأكواب..." [٩٧].

وكذلك مشروب (التمر بغاوي) نسبة إلي الأمير تمر بغا المنجكي وهو في الأصل من أسري المغول، وكان أول من أدخل هذا المشروب الذي كان يصنع من الزبيب الذي يخلط بالماء، والذي شاع شربه بشكل لم يسبق له مثيل أيام السلطان الظاهر برقوق[٩٨] وحتي أواخر دولة سلاطين المماليك.

كذلك كان لأبناء العناصر المغولية دور كبير فيما شاع في ذلك العصر من ملابس كانت جديدة علي المجتمع المصري، سواء منها ما هو خاص بالنساء أم الرجال. فالمقريزي في حديثه عن الأمير سيف الدين طغجي الأشرفي المتوفي سنة (٦٩٨هـ/١٢٩٨م)، وهو أحد مماليك الأشرف خليل بن قلاوون يقول: "وكان طغجي مليح الصورة حلو الشكل، فاتخذ الناس تفاصيل برسم النساء وسموها طغجي"[٩٩] كذلك يذكر ابن تغري بردي في ترجمته للأمير سيف الدين أرغون شاه الناصري (ت ٧٥٠هـ/١٣٤٩م) أحد مماليك السلطان الناصر محمد بن قلاوون، والذي تم جلبه من بلاد بوسعيد أي مغول إيران، فحظي عند الناصر وأمره وجعله رأس نوبة، وكان يقترح "في الملابس أشكالاً غريبة، ويعمل منها صنائع عجيبة..." [١٠٠].

أما الأمير سيف الدين سلار بن عبد الله المنصوري (ت٧١٠هـ/ ١٣١٠م) نائب السلطنة في عهد الناصر محمد بن قلاوون فقد "افتتح بأشياء من الملابس لم تعرف قبله، معروفة به..." [١٠١] أي أنه أدخل نوعًا من الأقبية كان يطلق عليها اسم (السلاري) أو (السلارية) وقد ورد وصفه كأحد الأردية الفوقانية ذات الأكمام الضيقة، وكان من المألوف عمل السلاري من ألوان مختلفة ومن خامات متنوعة مثل: القطن البعلبكي، ومن فراء السنجاب الرمادي، ومن الأطلس ذي الخيوط المعدنية، وكان يُحلي

أحيانًا بزخارف غنية فخمة، وأحيانًا أخري كانت تنثر عليه اللآلئ والأحجار الكريمة، ولقد استمر حتي عهد المماليك الجراكسة[١٠٢]. وهي نفسها (الأقبية التترية) أو (المعاطف التترية)، التي كان يرتديها أمراء المماليك، كما يستدل من اسمها أن هذا الثوب كان من أصل أجنبي، وسمي كذلك لأنه بدلاً من عمل الشقة المستقيمة التقليدية للأقمصة التي كانت تلبس في العصر الفاطمي، كان للأقبية التترية كمران تلف الصدر من اليسار إلي اليمين، بعكس الأتراك الذين كانوا يفضلون الكمر الذي يلف الصدر من اليمين إلي اليسار. وكان القباء يصنع من الصوف، والأطلس، والحرير، أو القطن البعلبكي، وكان لونه إما أبيض أو مزين بأشرطة باللونين الأحمر والأزرق. وله أكمام ضيقة[١٠٣] وقد ذكرها المقريزي في حديثه عن الأسواق فقال: "استجد الأمير سلار أيام الملك الناصر محمد القباء الذي يعرف بالسلاري، وكان قبل ذلك يعرف بالبغلطاق. وكانت هذه البغاليق إما بيضاء أو مشجرة أو أحمر وأزرق مرصعة بالجواهر وهي ضيقة الأكمام هيئة ملابس الفرنج اليوم، ولم يزل هذا زيهم إلي أيام الملك المنصور قلاوون فغيّر هذا الزي بأحسن منه وأبطلوا الكم الضيق..." [١٠٤].

كما وجد نوع من لباس الرأس كان خاصًا بالعسكريين يطلق عليه اسم "سراقوج"، وكان يمثل إلي حد كبير الزي التتري المميز. وهو عبارة عن قلنسوة لها شكل مخروطي طويل بحافة مقلوبة إلي أعلي. وتشير بعض المراجع إلي أن هذا السراقوج سرعان ما اختفي من عالم الموضة خلال عصر المماليك البحرية، ثم بعد مضي قرن من الزمان عاد إلي الظهور في عصر المماليك الجراكسة كلباس رأس للسيدات[١٠٥].

كما كان لهؤلاء المغول دورهم في رواج كثير من الأمراض الاجتماعية في مصر في ذلك العصر، مثل: الزني واللواط وانتشار البدع والخرافات والاعتقادات الباطلة، إلا أنه تنبغي الإشارة إلي أنه من العسف القول بأن مصر انفردت دون غيرها من البلاد الإسلامية بهذه الأمراض الاجتماعية، فابن حجر يذكر عن بلاد "ابن عثمان" في أوائل القرن التاسع الهجري أن: الزنا واللوط وشرب الخمر والحشيش كان فاشيًا بها.

وعندما عاب أحد مشايخ مصر علي شيخ أندلسي في القرن السابع الهجري أن أهل الأندلس يشربون الخمر ويحبون الشباب، رد عليه الشيخ الأندلسي قائلا: "أما الشباب فما أشك أن أهل مصر أفسق منا !" فتبسم الشيخ المصري وسكت[١٠٦]. ويذكر ابن تغري بردي أن اللواط أو الشذوذ الجنسي انتشر في الشرق منذ دخول الخراسانية إلي العراق سنة ١٣٢هـ أي منذ أوائل الدولة العباسية[١٠٧]. ولقد تحدث المقريزي عن أثر العناصر المغولية صراحة في انتشار اللواط فقال في حديثه عن الأويراتية: "وكانوا مع ذلك صورا جميلة، فافتتن بهم الأمراء وتنافسوا في أولادهم من الذكور والإناث واتخذوا منهم عدة صيروهم من جملة جندهم وتعشقوهم فكان بعضهم يستنشد من صاحبه من اختص به وجعله محل شهوته ثم ما قنع الأمراء ما كان منهم بمصر حتي أرسلوا إلي البلاد الشامية واستدعوا منهم طائفة كبيرة فتكاثر نسلهم في القاهرة واشتدت الرغبة من الكافة في أولادهم...." [١٠٨].

كذلك يشير السخاوي إلي مدي الدور الذي لعبوه في انتشار تلك الأمراض الاجتماعية فيقول في ترجمته لأحد أبناء المغول وهو "أحمد بن يوسف بن أحمد الشهاب بن الجمال الأستادار التقوي الأصل، القاهري عُوقب مع الرابية وأتباعه ثم قُتل في ربيع الآخر سنة أربع عشرة وكان قد جهزه أبوه أمير الحاج في سنة إحدي عشرة علي وجه يفوق الوصف وعاد في أول التي تليها، ويقال أنه مبدع الجمال بحيث امتحن أعجمي به ولكنه كان يقنع بالنظر وذهب في خدمته في الحجة المشار إليها ماشياً وكان أبوه يعلم ذلك إلا أنه لعلمه بعدم شيء زائد علي هذا لم يزجره"[١٠٩].

كما يذكر ابن تغري بردي في ترجمته للأمير سيف الدين بن عبد الله الناصري "ت ٧٤٢هـ/١٣٤١م" أحد مماليك الناصر محمد بن قلاوون أنه "كان غير عفيف الذيل عن المليح والقبيح، وبالغ في ذلك وأفرط حتي في نساء الفلاحين وغيرهم، ورمي بأمور ودواهي من هذه المادة..." [١١٠].

وفيما يتعلق بدورهم في انتشار كثير من البدع والخرافات والمعتقدات الباطلة، فمن المعروف عن أبناء العناصر المغولية حبهم الشديد لمعرفة الطالع والنبوءات، بحيث

أنهم كانوا من السذاجة بمكان، وهذا ما يتضح مما تطلقه عليهم المصادر المعاصرة من أوصاف دالة علي ذلك خاصة العبارات التي تصف الواحد منهم بأنه "سليم الباطن". أو كان "يخدعه المنجمون"(١١١). أو أنهم "كانوا مولعين بالنجوم، وما يقوله أرباب التقاويم"، وهذه العادة ربما انتقلت منهم إلي السلطان الظاهر بيبرس المؤسس الحقيقي لدولة سلاطين المماليك "كان مولعًا بالنجوم، وما يقوله أرباب التقاويم كثير البحث عن ذلك.."(١١٢).

وفي أواخر منتصف القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي تعرضت مصر لعدة تطورات اجتماعية نجمت عن كثرة أبناء العناصر المغولية بها من جهة، وتأثر الحكم المملوكي بالنظم السائدة عند المغول من جهة ثانية، ونتيجة لعدم وجود إقطاعات لكثير من الأمراء المماليك من جهة ثالثة والذين أصبحوا يرتزقون من مظالم العباد علي حد قول المقريزي، وهو كشاهد عيان لما حدث في تلك الفترة فإنه يصور لنا في عباراته التي يقول فيها: "ثم تقلص ظل العدل وسفرت أوجه الفجور وكشر الجور أنيابه وقلت المبالاة وذهب الحياء والحشمة من الناس حتي فعل من شاء ما شاء....". ثم نراه يفسر السر فيما حدث آنذاك من أنه فيما يتعلق بالمماليك فإنهم "احتاجوا في ذات أنفسهم إلي الرجوع إلي عادة جنكز خان والاقتداء بحكم الياسة فلذلك نصبوا الحاجب ليقضي بينهم فيما اختلفوا فيه من عوايدهم والأخذ علي يد قويهم وإنصاف الضعيف منه علي مقتضي ما في الياسة وجعلوا إليه مع ذلك النظر في قضايا الدواوين السلطانية عند الاختلاف في أمور الإقطاعات لينفذ ما استقرت عليه أوضاع الديوان وقواعد الحساب.." (١١٣) أو بعبارة أخري إن سلاطين المماليك ابتداء من الظاهر بيبرس قد ساروا علي ما جاء في الياسه التي وضعها جنكيز خان فيما يتعلق بالنظم الحربية، وإنزال العقوبات الصارمة لمن يرتكب جرائم إذ لا تكفي الحدود الشرعية في ردعهم(١١٤). أما فيما يتعلق بغيرهم من المحكومين ونقصد بهم أبناء الشعب المصري بطبقاتهم المختلفة فقد "فوضوا لقاضي القضاة كل ما يتعلق بالأمور الدينية من الصلاة والصوم والزكاة والحج وناطوا به أمر الأوقاف والأيتام وجعلوا إليه النظر في الأقضية كتداعي الزوجين وأرباب الديون ونحو ذلك.." (١١٥).

إلا أن الأمور سرعان ما تغيرت في عهد السلطان الملك الكامل شعبان بن الناصر محمد بن قلاوون "٧٤٦-٧٤٧هـ". الذي عين "الأمير سيف الدين بيغوا أميرًا حاجبًا كبيرًا يحكم بين الناس. فخلع عليه في جمادي الأولي سنة ست وأربعين وسبعمائة فحكم بين الناس كما كان نائب السلطنة يحكم وجلس بين يديه موقعان من موقعي السلطان لمكاتبة الولاة بالأعمال ونحوهم فاستمر ذلك ثم رسم في جمادي الآخرة منها أن يكون الأمير رسلان بصل حاجبا مع بيغوا يحكم بالقاهرة علي عادة الحجاب.. إلي أن كانت ولاية الأمير سيف الدين جرجي الحجابة في أيام السلطان الملك الصالح صالح بن محمد بن قلاوون (٧٥٢-٧٥٥هـ) فرسم له أن يتحدث في أرباب الديون ويفصلهم من غرمائهم بأحكام السياسة ولم تكن عادة الحجاب فيما تقدم أن يحكموا في الأمور الشرعية.." (١١٦).

وهكذا وجد قضاة الشرع أنفسهم مسلوبي الاختصاصات مما سيكون سببا في الصراعات المستديمة بين أهل الشرع وأهل السياسة، أي بين القضاة والحجاب، هؤلاء الحجاب الذين اعتبروا الحكم بين الناس وسيلة لتحصيل المقررات أي الأموال التي يقرونها علي المتخاصمين، لقد عبَّر المقريزي عن هذه الحالة أصدق وأبلغ تعبير حين قال: "كانت رتبة الحجبة في الدولة التركية جليلة وكانت تلي نيابة السلطنة ويقال لأكبر الحجبة حاجب الحجَّاب وموضوع الحجبة أن متوليها ينصف من الأمراء والجند تارة بنفسه وتارة بمشاورة السلطان وتارة بمشاورة النائب... وكان حكم الحاجب لا يتعدي النظر في مخاصمات الأجناد واختلافهم في أمور الإقطاعات ونحو ذلك ولم يكن أحد من الحجاب فيما سلف يتعرض للحكم في شيء من الأمور الشرعية.. وإنما يرجع ذلك إلي قضاة الشرع وقد عهدنا دائمًا أن الواحد من الكتاب أو الضمان ونحوهم يفر من باب الحاجب ويصير إلي أحد القضاة ويستجير بحكم الشرع فلا يطمع أحد بعد ذلك في أخذ من يقيم الأشهر والأعوام في ترسيم القاضي حماية له من أيدي الحجاب ثم تغير ما هنالك وصار الحاجب اليوم اسما لعدة جماعة من الأمراء ينتصبون للحكم بين الناس لا لغرض إلا لتضمين أبوابهم بمال مقرر في كل يوم علي رأس نوبة النقباء وفيهم غير واحد ليس لهم علي الأمراء إقطاع وإنما يرتزقون من مظالم العباد وصار

الحاجب اليوم يحكم في كل جليل وحقير من الناس سواء كان الحكم شرعيًا أو سياسيًا بزعمهم وإن تعرّض قاض من قضاة الشرع لأخذ غريم من باب الحاجب لم يمكن من ذلك ونقيب الحاجب اليوم مع رذالة الحاجب وسفالته وتظاهره بكثير من المنكر بما لم يكن يعهد مثله يتظاهر به أطراف السوقة فإنه يأخذ الغريم من باب القاضي ويتحكم فيه من الضرب وأخذ المال بما يختار فلا ينكر ذلك أحد البتة..." (١١٧) وهكذا يتضح لنا مدي الخلل الذي أحدثته التأثيرات المغولية في المجتمع المصري في ذلك العصر، في واحدة من أهم ما يمس حقوق الإنسان ألا وهي تحقيق العدالة.

كما تنبغي الإشارة إلي ما أحدثته الهجرات المغولية إلي مصر في ذلك العصر من صراع مرير بين صفوف المماليك أنفسهم، هذا الصراع كان يشتد عندما تأتي إلي مصر هجرات كبيرة منهم مثل التي حدثت أيام الظاهر بيبرس والعادل كتبغا، خاصة من الأويراتية وهم الذين أشارت إليهم المصادر المعاصرة باسم الوافدية. ويري بعض الباحثين المحدثين أنه لا يوجد من بين الأمراء الوافدية من حصل علي رتبة أعلي من أمير طبلخاناه باستثناء أيام الناصر محمد بن قلاوون حيث نجد بعضهم قد وصل إلي رتبة أمير ألف(١١٨) وهناك في المصادر المعاصرة إشارات تعبر عن هذا الصراع، فالمعروف أن العادل كتبغا (٦٩٤-٦٩٦هـ) كان من الأويراتية وقد وصل إلي منصب السلطنة، إلا أن اهتمامه بالوافدين من الأويراتية ومنحهم المناصب والإقطاعات كان أحد الأسباب الهامة في عزله من السلطنة. فابن خلدون يذكر ذلك صراحة في قوله: كان أهل الدولة نقموا علي السلطان كتبغا العادل تقديم مماليكه عليهم ومساواة الأويراتية من التتار بهم فتفاوضوا علي خلعه..." (١١٩) كما أن هذا الصراع يظهر بوضوح فيما أورده المقريزي عندما حدث شجار بين اثنين من أمراء المماليك، فقال أحدهم للآخر: "أنت واحد منفي وافدي، تجعل نفسك مثل مماليك السلطان.." (١٢٠) هذه العبارة الأخيرة تكشف لنا بوضوح السبب في ذلك الصراع الذي نجم عن أن فرص الترقي لم تكن مهيأة لجميع المماليك علي قدم المساواة، إذ كان الحصول علي لقب الإمارة مهيأ للمماليك السلطانية بنسبة أكبر من مماليك الأمراء، وكذلك بالنسبة لمن مسهم الرق، إذ المعروف أن الهجرات المغولية تمثل هجرات لأشخاص من الأحرار.

والقلقشندي يؤكد لنا هذه الحقيقة عندما يقول عن المماليك السلطانية: "وهم أعظم الأجناد شأنًا وأرفعهم قدرًا وأشدهم قربًا وأوفرهم إقطاعًا ومنهم تؤمر الأمراء رتبة بعد رتبة"(١٢١) وهذا ما أشار إليه المقريزي صراحةً عند حديثه عن الأويراتية وقدومهم إلي مصر في عهد العادل كتبغا حيث يقول: "وأظهر العناية بهم وكان مراده أن يجعلهم عونا له يتقوي بهم فبالغ في إكرامهم حتي أثر في قلوب أمراء الدولة منه إحنا وخشوا إيقاعه بهم فإن الأويراتية كانوا أهل جنس كتبغا.." ونتيجة لكثرتهم في مصر وكثرة الرغبة فيهم فقد وقع "التحاسد والتشاجر بين أهل الدولة إلي أن آل الأمر بسببهم وبأسباب أخري إلي خلع السلطان الملك العادل كتبغا من الملك في صفر سنة ست وتسعين وستمائة فلما قام في السلطنة من بعده الملك المنصور حسام الدين لاجين قُبض علي طرغاي مقدم الأويراتية وعلي جماعة من أكابرهم وبعث بهم إلي الأسكندرية فسجنهم بها وقتلهم وفرق جميع الأويراتية علي الأمراء فاستخدموهم وجعلوهم من جندهم.." (١٢٢) وبهذا تم للعناصر المنافسة لهم من الجراكسة إبعادهم عن فرص الترقي بعد كسر شوكتهم بقتل قادتهم.

ومن العادات المغولية التي أخذت في الظهور في مصر في العصر المملوكي عادة تكريم الابن بذكر نسب الأم، أو الاعتزاز بنسب الأم، وهي من العادات التي عرفت عن المغول في مواطنهم الأولي وتمسكوا بها حتي في المهجر، والتي يعكسها لنا من اهتموا منهم بالتأريخ للمغول وسلالتهم في مصر وعلي رأسهم بيبرس المنصوري، فهو باعتباره واحدًا منهم وأدري بطباعهم وعادتهم حرص دائمًا علي ذكرها كلما أتيحت له الفرصة في ذلك. ولنضرب مثالا علي ذلك بما قاله في إيراده نسب أم الملك الناصر محمد بن قلاوون وهي المغولية الأصل فقال عنها بأنها: "الخاتون المكرمة بنت سكتاي بن قراالجين بن جنغان نوين وهو ابن عم تنجوا المقدم المشهور وهؤلاء من الأعيان المشهورين والكبراء المذكورين.." ثم بعد ذلك يورد قصة مجئ بنت سكتاي إلي الديار المصرية، وكأن سكتاي بذلك حظي بشرفين معًا، شرف النسب ثم شرف القدوم إلي مصر ودخوله في الإسلام وهو ما ينسحب علي ابنته أم الناصر محمد(١٢٣) وقد سار علي

دربه كثير من المؤرخين الذين أتوا بعده، فهذا هو المقريزي في ترجمته للسلطان الناصر محمد بن قلاوون "ت٧٤١هـ" يقول: "محمد بن قلاوون، السلطان الملك الناصر، ناصر الدين أبو المعالي، أبو الفتح، ابن الملك المنصور سيف الدين، الألفي الصالحي النجمي، أمه أشلون خاتون بنت سكتاي بن قراجين.." (١٢٤) وابن تغري بردي يذكر في حديثه عن نفس السلطان قوله: "وأمه بنت سكتاي بن قرا لاجين جغتاي التتاري. وكان قدوم سكتاي مع أخيه قرمجي من بلاد التتار إلي مصر سنة خمسة وسبعين وستمائة.. (١٢٥) كما أن "النويري" في ذكره لحوادث سنة ٦٨١هـ أيام المنصور قلاوون يقول: "وفيها بني السلطان ببنت سكتاي بن قراجين بن جنغان نوين، وكان سكتاي هذا، قد ورد إلي الديار المصرية هو وقرمشي في سنة أربع وسبعين وستمائة صحبة بيجار الرومي، في الدولة الظاهرية. وهذه هي والدة السلطان الملك الناصر"(١٢٦) وفي موضع آخر في حديثه عن الملك الصالح علاء الدين علي ابن السلطان المنصور قلاوون الذي توفي سنة ٦٨٧هـ يقول "وخلف ولداً واحداً، من زوجته منكبك ابنة الأمير سيف الدين نوكبه، وهو الأمير مظفر الدين موسي..." (١٢٧).

كذلك يذكر الصفدي عند حديثه عن عام ٧٣٢هـ قوله وفيها: "دخل ابن السلطان آنوك بن الخوندة طغاي علي بنت الأمير سيف الدين بكتمر الساقي وكان عرساً عظيماً.." (١٢٨) أما "ابن عبد الظاهر" فهو يشير إلي عادة تكريم الابن بنسب الأم بشكل لا يحتمل أدني شك، ففي حديثه عن السلطان الناصر محمد بن قلاوون يقول: "وهو من الدار الرومية من العظم القاني، جده لأمه سكتاي بن باجو أكبر عظماء التتار، فجمع الله له أطراف الفخار.." أي أنه ابن سلطان وأمه ابنة أحد عظماء التتار(١٢٩).

ومن العادات المغولية التي ظهرت في مصر وكثر انتشارها طوال العصر المملوكي، عادة عقد حلقات الصيد إذ المعروف أن المغول كانوا مولعين بها إلي حد كبير، وكانوا يعنون بها عناية كبيرة كلما فرغوا من القتال، وكانت في الحقيقة هي رياضتهم المحببة إلي نفوسهم، ولكنهم كانوا يتخذونها وسيلة لإعداد أنفسهم إذا ما جد الجد، فهم في حلبات الصيد يدربون أنفسهم علي ما سيفعلونه في وقت الحرب، وكان يشرف علي ميادين الصيد كبار الأمراء منهم، ومن حلقات الصيد أيضا يحصل المغول

علي اللحوم اللازمة لمد الجيش والبلاط، فكانوا إذا ما قتلوا عدداً كبيراً من حيوانات الصيد، أكلوا أكبر قدر منها[١٣٠]. وانتقلت هذه العادة إلي المماليك، بل نراهم استخدموا كثيراً من أبناء المغول في الإشراف علي الجوارح من الطيور وغيرها، وسائر أمور الصيد، هذه الوظيفة كان يطلق علي من يتولاها أمير شكار[١٣١].

كما أن الباحث في تاريخ المغول يدرك أن من عاداتهم في التخلص من منافسيهم أو أعدائهم كان عن طريق دس السم له بطريقة أو بأخري، ومما يؤكد ذلك ما تشير إليه بعض المصادر المعاصرة سنة ٦٨٠هـ/١٢٨٢م من أن القاضي جمال الدين محمد بن العجمية أتهم بأنه "سم منكوتمر فأخذت أم منكوتمر القاضي جمال الدين وجميع أولاده وذبحتهم"[١٣٢] وغيرها من الإشارات المختلفة التي تدل علي انتشار هذه العادة بينهم[١٣٣] ومن يتصفح تاريخ سلاطين المماليك يجد أن هذه العادة أخذت في الانتشار في مصر علي عهدهم، خاصة منذ عهد الظاهر بيبرس (٦٥٨-٦٧٦هـ) الذي قال عنه ابن تغري بردي: "كان الملك الظاهر رحمه الله يسير علي قاعدة ملوك التتار..." [١٣٤] وفي عهد من أتي بعده من السلاطين، نذكر من ذلك مثالا لما حدث في عصر المنصور قلاوون (٦٧٨-٦٨٩هـ): ففي عام ٦٨٢هـ/١٢٨٣م فإن الوزير"نجم الدين حمزة بن محمد الأصفوني، وزير الملك المنصور قلاوون الألفي بالديار المصرية... كان له عبد يسمي فرج فاستماله الأمير علم الدين سنجر الشجاعي إلي أن أسقي أستاذه الصاحب نجم الدين سمًّا فتوفي منه في شهر ربيع الأول.. ثم ضرب الشجاعي فرج عبد الصاحب نجم الدين بالمقارع إلي أن مات "لكي يخفي جريمته، وهذا دليل واضح علي أن واحداً من كبار أمراء المماليك كان وراء استخدام هذه الوسيلة لكي يتخلص من منافسه، حتي تتاح له الفرصة في تولي الوزارة[١٣٥]. مما يرجح أن أبناء العناصر المغولية كان لهم أثرهم في شيوع هذه العادة في مصر في ذلك الوقت، وبخاصة في صفوف المماليك.

كذلك كان لأبناء العناصر المغولية أثرهم الواضح في الامتداد العمراني الذي شهدته القاهرة بوجه خاص في العصر المملوكي، سواء في القلعة نفسها حيث وجد عدة مساكن لهم وهي التي عرفت فيما بعد باسم خرائب التتر، والتي تكلم عنها

المقريزي في خططه عند وصفه لقلعة الجبل فقال: "وبها مساكن تعرف بخرائب التتر كانت قدر حارة، خربها الملك الأشرف برسباي في ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وثمانمائة.." (١٣٦) وبالبحث عن موقع هذه الخرائب من القلعة تبين أنها كانت واقعة في الجهة الشرقية من الحوش الداخلي الكبير الذي فيه ثكنات الجيش داخل القلعة بالقاهرة(١٣٧). ومن هذا يتضح أنه نظرًا لكثرة هؤلاء المغول فقد تم تخصيص عدة مساكن لهم داخل القلعة، ولا ندري متي كان ذلك، لكن من الراجح أن يكون في عهد الظاهر بيبرس، وهو الذي حرص علي أن يجمع أبناء العناصر المغولية التي وفدت علي مصر ويسكنهم بالقاهرة، ولم يرسلهم إلي سواحل بلاد الشام، علي الرغم من اهتمامه الشديد بإنزال قبائل محاربة في هذا الساحل، علي غرار ما فعل بالتركمان حين أنزلهم في يافا لحراستها بعد استيلائه عليها سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٧م. (١٣٨) وفي باب اللوق كان أثرهم واضحًا كذلك في تعمير هذه المنطقة حيث يقول المقريزي: "وأول ما بنيت الدور للسكن في اللوق أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري وذلك أنه جهز كشّافة من خواصه مع الأمير جمال الدين الرومي السلاح دار منهم الأمير علاء الدين أق سنقر الناصري ليعرف أخبار هولاكو ومعهم عدة من العربان فوجدوا طائفة من التتر مستأمنة وقد عزموا علي قصد السلطان بمصر... فلما وردت الأخبار بذلك إلي مصر كتب السلطان إلي نواب الشام بإكرامهم وتجهيز الإقامات وبعث إليهم بالخلع والإنعامات فوصلوا إلي القاهرة وهم نيف علي مائتي فارس بنسائهم وأولادهم في يوم الخميس رابع عشري ذي الحجة سنة ستين وستمائة... فأنزلهم السلطان في دور كان قد أمر بعمارتها من أجلهم في أراضي اللوق وعمل لهم دعوة عظيمة هناك وحمل إليهم الخلع والخيول والأموال وركب السلطان إلي الميدان وأركبهم معه للعب الأكرة وأعطي كبراءهم إمريات فمنهم من عمله أمير مائة ومنهم دون ذلك ونزل بقيتهم من جملة البحرية وصار كل منهم في سعة الحال كالأمير في خدمته الأجناد والغلمان وأفرد لهم عدة جهات برسم مرتبهم وكثرت نعمهم وتظاهروا بدين الإسلام فلما بلغ التتار ما فعله السلطان مع هؤلاء وفد عليه منهم جماعة بعد جماعة وهو يقابلهم بمزيد الإحسان فتكاثروا بديار مصر وتزايدت العمائر في اللوق وما حوله وصار هنالك عدة أحكار

عامرة أهلة... وفي سادس ذي الحجة من سنة إحدي وستين قدم من المغل والبهادرية زيادة علي ألف وثلثمائة فارس فأنزلوا في مساكن عمرت لهم باللوق بأهليهم وأولادهم..." (١٣٩).

وفي سلطنة الملك العادل كتبغا وفدت علي مصر جماعة من الأويراتية مع كبيرهم طرغاي حيث أنزلوا بالحسينية مما كان سببا في عمارة هذه المنطقة، وفي هذا يقول المقريزي: "ولم تعمّر هذه الشقة إلا في الدولة التركية لا سيما لما تغلب التتر علي ممالك الشرق والعراق وجفل الناس إلي مصر فنزلوا بهذه الشقة.. وعمروا بها المساكن ونزل بها أيضًا أمراء الدولة فصارت من أعظم عمائر مصر والقاهرة... وكانت الحسينية قد أربت في عمارتها علي سائر أخطاط مصر والقاهرة حتي لقد قال لي ثقة ممن أدركت من الشيخة أنه يعرف الحسينية عامرة بالأسواق والدور وسائر شوارعها كافة بازدحام الناس من الباعة والمارة وأرباب المعايش وأصحاب اللهو والملعوب فيما بين الريدانية محطة المحمل يوم خروج الحاج من القاهرة وإلي باب الفتوح لا يستطيع الإنسان أن يمر في هذا الشارع الطويل العريض طول هذه المسافة الكبيرة إلا بمشقة من الزحام..." (١٤٠) إلا أنه أصابها ما أصاب كثيرًا من الأحياء في القاهرة منذ أواخر القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي من كثير من التدهور وقلة عدد السكان بسبب تدهور الأحوال الاقتصادية وانتشار كثير من الأوبئة والطواعين التي فتكت بكثير من الناس(١٤١).

ولقد عاش هؤلاء المغول في أحيائهم الخاصة بهم، ولم يكونوا بمعزل عن المجتمع المحيط بهم، فاندمجوا في الإسلام واختلطوا بأهل البلاد، كما أخذ كثير من الأمراء أولادهم للخدمة، وكثرت الرغبة فيهم لجمالهم – وتزوج الناس بناتهم وبخاصة من السلاطين والأمراء والعلماء والتجار، واندمج بعضهم في الجيش المملوكي بفرقه المختلفة (١٤٢) وكما أثّروا في المجتمع المصري فإنهم تأثروا به، هذا التأثير يبدو واضحًا في أعقابهم حيث تخلوا عن كثير من الأسماء المغولية الأصل، وتسموا بأسماء إسلامية من الأسماء التي كانت شائعة في ذلك العصر والمحببة إلي المسلمين، مثل: (محمد)،

و(علي)، و(أبو بكر)، و(أحمد)؛ فضلاً عن تلقبهم بالألقاب المضافة إلي الدين مثل: (سيف الدين)، و(بهاء الدين)، و(شهاب الدين)، و(ناصر الدين) وغيرها من الألقاب[١٤٣]. وفيما يتعلق بالزواج، فكما أقبل الناس علي الزواج من بناتهم فهناك إشارات في المصادر المعاصرة علي حرصهم علي الزواج من بنات جنسهم ولم يصادفنا في المصادر المعاصرة ما يفيد أنهم تزوجوا من بنات الآخرين، وربما كان الجمال المشهور بينهم السبب في ذلك[١٤٤]. وإن كانت هذه الإشارات قليلة ونادرة إلا أنها تؤكد ما ذهبنا إليه من حرص الرجال منهم علي التزوج بزوجات مغوليات، مثال ذلك: ما يشير إليه بيبرس المنصوري – وهو الخبير بهم باعتباره واحداً منهم – من أن الأمير سيف الدين كوندك الساقي تزوج خالة الملك الصالح بن قلاوون وهي بنت كرمون التتري، وقد كان الملك الظاهر بيبرس قد تزوجها وبانت عليه، وكانت في بيت قلاوون وتحت نظره لتزوجه بأختها. هذا فضلاً عما تشير إليه المصادر عن هجراتهم وأنهم اصطحبوا معهم زوجاتهم[١٤٥]. كذلك هناك بعض الإشارات عن مدي ما حازوه من ثروات هائلة وإقطاعات كانت تدر عليهم الكثير، نذكر من ذلك علي سبيل المثال: الأمير سيف الدين بشتك بن عبد الله الناصري، الذي كان إقطاعه يدر عليه سنوياً ما لا يقل عن مائتي ألف دينار[١٤٦].

ومن الآثار الاجتماعية والاقتصادية في نفس الوقت والتي نجمت عن تأثر النظم المملوكية بما هو معروف عند المغول، أو بسبب قدومهم إلي مصر، ما عرف في العصر المملوكي باسم الروك، والذي قصد به في ذلك العصر ضبط الإقطاعات وعدم استمرار أراضي معينة في إقطاع معين، وعدم استمرار بعض الإقطاعات في أيدي الوارثين، وإعادة توزيع الأراضي بين السلطان وأرباب الإقطاع، إذ جري العرف عند المغول علي أساس أن الزعامة سيادة علي القوم لا إمتلاك الأراضي، ويتولي شيخ القبيلة توزيع المراعي أو الأراضي بين بطونها وفقا للعرف والتقاليد، ولقد نقل المغول هذا النظام إلي الجهات التي خضعت لهم، أو البلدان التي توافدوا عليها مثل مصر وبلاد الشام. وعلي هذا الأساس فهم يرون أن من حصل علي إقطاعات فإنما حصل عليها بمحض رغبة السلطان ولا يترتب عليها حقوق، والسلطان مطلق الحرية في الإبقاء علي الإقطاع

في صاحبه أو نزعه منه (١٤٧). وهذه الظاهرة كانت واضحة تمام الوضوح طوال العصر المملوكي، فعندما يغضب السلطان علي أمير أو يقبض عليه أو حتي ينقله من وظيفة إلي أخري فإنه كان يحل محله شخصا آخر في إقطاعه، وينعم بإقطاع هذا الأخير علي شخص ثالث وهكذا. كما أنها تتضح أشد الوضوح فيما حدث في عصر الناصر محمد بن قلاوون علي وجه الخصوص وفي سلطنته الثالثة، حيث كان يتتبع كبار الأمراء لكسر شوكتهم الواحد تلو الآخر، سواء بالتخلص منهم أو سجنهم سواء في القلعة أم في الإسكندرية، وأخذ يحل مماليكه في المناصب التي كان يتولاها هؤلاء الأمراء وفي إقطاعاتهم حيث "أقر السلطان في يوم واحد ستة وأربعين أميراً، منهم طلبخاناه تسعة وعشرون وشقوا القاهرة بالشرابيش والخلع..." (١٤٨).

ولقد عبَّر الناصر محمد عن سياسته هذه والتي استقاها من المغول - سواء من أمه أم أخواله في مصر - خير تعبير عندما أمر بالقبض علي الأمير أسندمر كرجي والذي بعث "يسأل السلطان عن ذنبه فأعاد جوابه مالك ذنب إلا أنك قلت لي لما ودعتك عند سفرك: أوصيك يا خوند لا تبقي في دولتك كبشاً كبيراً وأنشئ مماليكك؛ ولم يبق عندي كبش كبير غيرك" (١٤٩) ولكي يحل السلطان مماليكه محل هؤلاء الأمراء فقد شرع في عمل الروك الناصري الذي ينسب إليه، ويشير ابن تغري بردي إلي ذلك صراحة في قوله: "وفي العشر الأخير من شعبان من سنة خمس عشرة وسبعمائة وقع الشروع في عمل الروك بأرض مصر، وسبب ذلك أن أصحاب بيبرس الجاشنكير وسلار وجماعة من البرجية، كان خبز الواحد منهم ما بين ألف مثقال في السنة إلي ثلثمائة مثقال، فأخذ السلطان أخبازهم وخشي الفتنة، وقرر مع فخر الدين محمد بن فضل الله ناظر الجيش روك البلاد، وأخرج الأمراء إلي الأعمال..." (١٥٠).

من هذا العرض السريع يتضح لنا أعداد الهجرات المغولية التي جاءت إلي مصر، وأثر أبناء العناصر المغولية المختلفة في مجال الحياتين الثقافية والاجتماعية في العصر المملوكي، والله نسأل أن نكون قد وفقنا فيما قصدنا إليه. والله نعم العون والموفق.

الهوامش

(١) المقريزي "تقي الدين أحمد بن علي ت ٨٤٥هـ": المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المسماة بالخطط المقريزية، طبع بولاق ١٢٧٠هـ، ص٢٢١ .

(٢) ابن ايبك الدواداري "أبو بكر بن عبد الله": الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، نشر جمعية المستشرقين الألمانية، القاهرة ١٩٧٢، ص٢٧٢ -٢٨١؛ أحمد مختار العبادي "دكتور": قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، مؤسسة شباب الجامعة، الأسكندرية ١٩٨٢، ص١٤٥، حاشية ١ .

(٣) فؤاد عبد المعطي الصياد "دكتور": المغول في التاريخ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧٠، جـ١، ص١٦٤-٢٢٧ .

(٤) المقريزي: نفسه، جـ ٢، ص٢٢١ .

(٥) ابن واصل "جمال الدين محمد ت ٦٨٧هـ": مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٣ -١٩٦٠، جـ٢، ص ٤٠٩، المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفي زيادة، القاهرة ١٩٣٦، جـ١، ص٤٦٥ .

(١) ابن واصل: نفسه، جـ٢، ص ٤٠٦ -٤٠٧؛ المقريزي: نفسه، جـ٢، ص ٢٢١ .

(٢) David Ayalon: Studies on the Mamluks of Egypt (1250-1517), London, 1977, p. 104

(١) السلوك، جـ٢، ص٥٢٥؛ جـ٢، قسم٢، ص ٥٢٤-٥٢٥ .

(٢) ابن تغري بردي "جمال الدين يوسف ت ٨٧٥هـ": النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الهيئة المصرية، ١٩٧٢م، جـ٧ .

(٣) David Ayalon : Op . Cit .p .101.

(١) المقريزي: السلوك، جـ٢، ص٥١٥ .

(٢) السيد الباز العريني (دكتور): المماليك، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٦٧، ص ٥٩ ٦٠ Ibid , Op , Cit . pp 90-91

(٣) فؤاد الصياد، نفسه، جـ١، ص ٢٥-٣٤ .

(١) David Ayalon : Op . Cit .p 90 .

(٢) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٢٢ .

(١٦) أبو الفدا (عماد الدين إسماعيل ت ٧٣٢هـ): المختصر في أخبار البشر، القسطنطينية، ١٢٨٦هـ، جـ٤، ص ٣٤؛ عبد السلام عبد العزيز فهمي (دكتور): تاريخ الدولة المغولية في إيران، دار المعارف، ١٩٨١ص ١٨٦ -١٨٩ .

(١٧) ابن ايبك الدواداري: نفسه، ص ١٢٨: ابن أبي الفضائل (المفضل): كتاب النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، نشر بلوشيه، باريس ١٩١١م، ص٣٠٧ .

(١٨) ابن أيبك: نفسه، ص ١٢٧-١٢٨ .

(١٩) بيبرس الدوادار المنصوري (ت ٧٢٥هـ): التحفة الملوكية في الدولة التركية نشره د . عبد الحميد حمدان، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٨٧، ص ٧٨ .

(٢٠) ابن تغري بردي: نفسه، ص ٢٤٦-٢٤٨ .

(٢١) المصدر السابق: المنهل جـ٥، ص ٢٢ .

(٢٢) المقريزي: السلوك، جـ٢، ص٢٣٦؛ السيد الباز العريني: نفسه، ص٦٢ .

(٢٣) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة: ٣٢٨/٢ .

(٢٤) ابن حجر العسقلاني: المصدر السابق، جـ٢، ص ٣٢٨ .

(٢٥) ابن حجر: نفسه، جـ٢، ص ٣٢٧ -٣٢٨؛ جـ٣، ص ١٢٦-١٢٧ .

(٢٦) فؤاد الصياد: نفسه، جـ١، ص ٣١، ٣٣ .

(٢٧) عبد السلام عبد العزيز فهمي: نفسه، ص ٢٢٢-٢٢٣ .

(٢٨) ابن تغري بردي: المنهل جـ ٣، ص ٢٥٠؛ المرجع السابق: ص ٢٣٠ .

(١) المقريزي: السلوك، جـ٢، ص٥١٥-٥١٦؛

David Ayalon : Op . Cit .p 101-103 .

(٢) ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم): تاريخ ابن الفرات ، تحقيق د . قسطنطين رزيق، بيروت، ١٩٤٢، جـ٨، ص ٩٥ .

(٣١) ابن تغري بردي: النجوم، جـ٩، ص ٢٢٦ .

(٣٢) المقريزي: الخطط، جـ١، ص ١١٩ .

(٣٣) فؤاد الصياد: المغول في التاريخ، جـ١، ص١٢-١٥ .

(٣٤) المرجع السابق، والصفحات ذاتها .

(٣٥) كامل جميل العسلي (دكتور): وثائق مقدسية تاريخية، طبع عمان ١٩٨٣م، جـ١، ص ١٨٠-١٢٠ .

(٣٦) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٣٨٩؛ د . سعيد عبد الفتاح عاشور: (التعليم العالي في العصور الوسطي) من كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطي، بيروت، ١٩٧٢م، ص ٤٣٩-٤٤٧ .

(٣٧) الخفط: ٣٨٩/٢، ابن تغري بردي: المنهل الصافي جـ٢، ص ٤٩٦ .

(٣٨) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٣٦٩ .

(٣٩) المصدر نفسه، جـ٢، ص٣٨٦ .

(٤٠) ابن تغري بردي: المنهل، جـ٢، ص٤٨٠-٤٨١ .

(٤١) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص٣٨٣-٣٨٤ .

(٤٢) ابن تغري بردي: النجوم، جـ٩، ص ٢٦٣-٢٦٤؛ المقريزي: المقفي الكبير، تحقيق محمد البعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩١م، جـ٢، ص ٥٢١-٥٢٣ .

(٤٣) المقريزي: المقفي الكبير، جـ٢، ٣٨٨ .

(٤٤) المصدر السابق، نفسه، جـ٢، ص ٣٩٣ .

(٤٥) المقريزي، نفسه، جـ٢، ص٤٠٠ .

(٤٦) العجيمي (حسن بن علي بن يحيي ت ١١٠٣هـ): خبايا الزوايا المعمورة بمكة المشرفة، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٢٤١٠تاريخ، ورقة ١، ٢، ٩، ٣٣ .

(٤٧) المقريزي: المقفي ، جـ٢، ص ١٧-١٨ .

(٤٨) المقريزي، الخطط، جـ٢، ٤٢٥ .

(٤٩) المدخل إلي الشرع الشريف علي المذاهب، القاهرة ١٩٢٩، جـ١، ص٨٥ .

(٥٠) الخطط، جـ٢، ص٢٨ .

(٥١) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص٣٢٥ .

(٥٢) ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، نشر جمعية المستشرقين الألمانية بالقاهرة، ١٩٦٠-١٩٧٢م، جـ٢، ص٢٧ .

(٥٣) ابن تغري بردي: النجوم،جـ٩، ص٢٠٠، حاشية ١ .

(٥٤) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٣٠٧؛ ابن تغري بردي: النجوم، جـ٩، ص ٢٠٦-٢٠٧ .

(٥٥) المقريزي، نفسه، جـ٢، ص ٣٢٧ - ٣٤٧، بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية، ص٧ .

(٥٦) ابن الفرات: نفسه، جـ٨، ص ٩٥ .

(٥٧) فتحي محمد أبو عيانة (دكتور): جغرافية السكان، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨٦م، ص ٢٨٤ .

(٥٨) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، جـ١، ص ٤٠٤ السخاوي (شمس الدين ت ٩٠٢هـ): الضوء اللامع لأهل القرن التاسع القاهرة ١٩٣٤-١٩٣٦، جـ٣، ص٣٢؛ السيد الباز العريني؛ نفسه ص ٩٤-٩٥ .

(٥٩) ابن تغري بردي: المنهل، جـ٣، ص١٤١ .

(٦٠) المصدر السابق: النجوم، جـ٨، ص ٢٥٤ .

(٦١) المصدر السابق: المنهل، جـ٣، ص ٤٩٣ -٤٩٤ .

(٦٢) ابن تغري بردي: المنهل، جـ٣، ص ٣٩-٤٤ .

(٦٣) ابن الفرات: نفسه، جـ٧، ص ٢٣٦ .

(٦٤) السخاوي: الضوء اللامع، جـ١، ص ٣٥٨ .

(٦٥) المصدر السابق، جـ٢، ص٣٠-٣١؛ ابن تغري بردي: المنهل، جـ١، ص ٣٩٢-، ٣٩٣

(٦٦) السخاوي: نفسه، جـ٢، ص ٢٤ .

(٦٧) المصدر السابق، جـ٥، ص ٦٢، ٦٣، ٩٧ .

(٦٨) اليوسفي (موسي بن محمد يحيي ت ٧٥٩هـ/١٣٥٨م): نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تحقيق د . أحمد حطيط، عالم الكتب، بيروت ١٩٨٦، ص ٧-٤٥ .

(٦٩) ابن تغري بردي: المنهل، جـ٢، ص ٤٣٦ .

(٧٠) المصدر السابق، جـ٢، ص ٤٣٦ .

(٧١) المصدر السابق نفسه، جـ٣، ص ٤٧٧

(٧٢) بيبرس المنصوري: التحفة الملوكية، ص ١٥-١٦ .

(٧٣) النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ت ٧٣٣هـ): نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق د . السيد الباز العريني، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، جـ٣١، ص ٢٧٥ .

(٧٤) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، الجزء التاسع، تحقيق د . زبيدة محمد عطا، الرياض ١٩٨٤، ص ٢١-٤٩ .

(٧٥) المصدر السابق، كتاب التحفة الملوكية، ص١٧ .

(٧٦) نفسه، ص ١٤-١٧ .

(٧٧) الصفدي (صلاح الدين خليل): كتاب الوافي بالوفيات، نشر جمعية المستشرقين الألمانية، فيسبادن ١٩٧٤م، جـ٢، ص ٣١-٣١١؛ المقريزي: المقفي الكبير، جـ٥، ص٥٠٨ .

(٧٨) السيد الباز العريني: المماليك، ص١٤-١٥ .

(٧٩) عبد العزيز عبد الدايم (دكتور): نهاية السؤل والأمنية في تعلم أعمال الفروسية رسالة دكتوراه بجامعة القاهرة، لم تنشر بعد، ص١١-١٤ .

(٨٠) محمد مصطفي زيادة (دكتور): المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي، القاهرة ١٩٦٤م ص ١٠٥ .

(٨١) حسن الباشا (دكتور): الفنون الإسلامية والوظائف علي الآثار العربية، القاهرة ١٩٦٥، جـ١، ص ٣٦، التصوير الإسلامي في العصور الوسطي، القاهرة ١٩٥٩، ص ١٦٥، ٢٠٩-٢١٠ .

(٨٢) فوزي محمد أمين (دكتور): المجتمع المصري في أدب العصر المملوكي الأول، دار المعارف بمصر، ص ٣٠٨-٣٠٩ .

(٨٣) المرجع السابق، ص ٣٠٩ .

(٨٤) ابن تغري بردي: النجوم، جـ١٠، ص ٩٦؛ محمد زغلول سلام: الأدب في العصر المملوكي، دار المعارف ١٩٧١، جـ١، ٢٨١-٢٨٥؛ محمد قنديل البقلي: الطرب في العصر المملوكي، القاهرة ١٩٨٤م . ص ٤٣-٤٤ .

(٨٥) العمري (ابن فضل الله ت ٧٤٢هـ): التعريف بالمصطلح الشريف، مطبعة العاصمة ١٣١٢هـ، ص ٢٠٨-٢١٥؛ المقريزي: السلوك، جـ٢، قسم ١ ،ص٢٤٠-٢٤١؛ جـ٢، قسم٢، ص ٢٤٠-٢٤٥ .

(٨٦) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، جـ٤، ص ١٧٣ .

(٨٧) حبشي سيـد نصر (دكتور): المجتمع المصري في الشعر المملوكي، رسـالة دكتـوراه بجامعة الأزهر، ص٨٣ -٩٠ .

(٨٨) الخطط، جـ٢، ص٢٢؛ فوزي محمد أمين: نفسه، ص٣٧١-٣٧٣ .

(٨٩) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٢٢؛ أحمد صادق الجمال: الأدب العامي في مصر في العصر المملوكي، القاهرة ١٩٦٦ م . ص ٩-٢٨؛ فوزي محمد أمين: نفسه، ص ,٣٥٨

(٩٠) ابن تغري بردي: المنهل، جـ٢، ص ٤٣٣ .

(٩١) المصدر السابق، جـ٣، ص ٥٠٢، ص ٢٥٢، ص ٣٧٢، ٤٢١، ٤٣٣ .

(٩٢) المنهل الصافي، جـ٣، ص ٤٦٧ -٤٦٨ .

(٩٣) الصفدي: الوافي بالوفيات، جـ٩، ص ٤٤٠؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، جـ١، ص٤٥٢ .

(٩٤) سعيد عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك . دار النهضة العربية، ١٩٦٢، ص ٣-٧ .

(٩٥) المقريزي: السلوك، جـ٢، ق١، ص ٢٨٨، حاشية ٥: المرجع السابق، ص٤ .

(٩٦) مصطفي طه بدر (دكتور): محنة الإسلام الكبري، أو زوال الخلافة العباسية من بغداد علي أيدي المغول، الجيزة ١٩٤٦م، ص ٥١ .

(٩٧) ابن عبد الظاهر (محي الدين ت ٦٩٢هـ): تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق د . مراد كامل القاهرة ١٩٦١م، ص ٢٦٥ .

(٩٨) بيبرس المنصوري: التحفة الملوكية، ص ١٠٥ .

(٩٩) المقـريزي: السلوك،جـ١، ص٦٠٧؛ ابن تغـري بردي: النجـوم، جـ٧، ص ١٢٥، ابن الصـيرفي (الخطيب الجوهـري علي بن داود): نزهـة النفـوس والبـدان، تحـقيق د . حسـن حبشي، القـاهرة ١٩٧٠م، جـ١، ص٣٦٩ .

(١٠٠) المقريزي: المقفي الكبير، جـ٤، ص ٢١-٢٦ .

(١٠١) ابن تغري بردي: المنهل، جـ٢، ص ٣١٤-٣١٦ .

(١٠٢) المصدر السابق، جـ٦، ص٨ .

(١٠٣) ماير: الملابس المملوكية، ترجمة صالح الشيتي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢، ص٤٤-٤٥ .

(١٠٤) المرجع السابق، ص ٣٩-٤١ .

(١٠٥) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص٩٩ .

(١٠٦) ماير، نفسه، ص ٥٦-٥٧ .

(١٠٧) سعيد عاشور: المجتمع المصري، ص٢٢٥ .

(١٠٨) ابن تغري بردي: النجوم، جـ٥، ص٤٢٢، سعيد عاشور: نفسه، ص ٢٢٨ .

(١٠٩) السخاوي: ضوء اللامع، جـ٢، ص٢٤٦-٢٤٧,

(١١٠) ابن تغري بردي: المنهل جـ٣، ص ٤٦٧ - ٤٦٩ .

(١١١) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص٢٢ .

(١١٢) المقريزي: المقفي الكبير، جـ٣، ص٢٢-٢٣؛ ابن تغري بردي: النجوم جـ٨، ص ٣٧ .

(١١٣) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص٢٢١ .

(١١٤) ابن تغري بردي: النجوم، جـ٧، ص ١٧٧-١٧٨ .

(١١٥) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص١٠٢؛ ابن تغري بردي: النجوم؛ جـ٧، ص ١٨٢-١٨٣؛ السيد الباز العريني: المماليك، ص ٢٥٤-٢٥٥ .

(١١٦) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص٢٢ .

(١) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص٢٢ .

(٢) David Ayalon : Op . cit . pp . 92-93 .

(١١٩) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، القاهرة ١٩٠٩م، جـ٥، ص٤٠٨ .

(١٢٠) المقريزي: السلوك، جـ٢، ص٢٢ .

(١٢١) القلقشندي (أبو العباس أحمد): صبح الأعشي في صناعة الإنشا، القاهرة ١٩١٣، جـ٤، ص١٥-١٦ .

(١٢٢) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص٢٢ -٢٣ .

(١٢٣) بيبرس المنصوري: التحفة الملوكية، ص١٠٧ .

(١٢٤) المقريزي: المقفي الكبير، جـ٧، ص١٦٢، ترجمة ٣٢٦٥ . .

(١٢٥) ابن تغري بردي: النجوم، جـ٩، ص ١٦٤ .

(١٢٦) النويري: نهاية الأرب، جـ٣١، ص٩٠ .

(١٢٧) المصدر السابق: نفسه، ص١٥٩ .

(١٢٨) الصفدي: الوافي بالوفيات، جـ٢، ص٣٦٩ .

(١٢٩) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص١١٠-١١١ .

(١) فـؤاد الصـيـاد: نفســه، ص ٣٤١-٣٤٢؛ Poliak : The Influence of Ghingiskhan,s Yassa , p . 872 .

(٢) القلقشندي: صبح الأعشي، جـ٥، ص ٤٦١ .

(٣) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، جـ٧، ص ٢٣٥ .

(٤) فؤاد عبد المعطي الصياد: نفسه، ص ١٩٥-٢٢٥ .

(١٣٤) ابن تغري بردي: النجوم، جـ٧، ١٨٢ .

(١٣٥) ابن الفرات: نفسه، جـ٧، ص ٢٨٤-٢٨٥ .

(١٣٦) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٢٠٤ .

(١٣٧) ابن تغري بردي: النجوم، جـ٩، ص ١٨، حاشية ١ .

(١٣٨) المقريزي السلوك، جـ١، ص ٥٦٥، السيد الباز العريني: نفسه، ص ٥٩-٦٠ .

(١٣٩) المقريزي:الخطط، جـ٢، ص ٢٢-٢٣ .

(١٤٠) المصدر نفسه، جـ٢، ص ٢٢-٢٣ .

(١٤١) قاسم عبده قاسم: دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، دار المعارف ١٩٨١، ص ٣٩-١١٨ .

(١٤٢) المقريزي: السلوك، جـ١، ص ٨١٣، ابن الفرات: نفسه، جـ٨، ص ٢٠٧؛ السيد الباز العريني: نفسه ص ٦١-٦٢ .

(١٤٣) ابن تغري بردي: النجوم، جـ٩، ص١١؛ السخاوي: الضوء اللامع، جـ٣، ص ١٧-٤٥ .

(١٤٤) المقريزي: المقفي الكبير، جـ٣، ص ٢١-٢٣ .

(١٤٥) بيبرس المنصوري: التحفة الملوكية، ص ٨٤-٨٧، ١٠٨، النويري: نهاية الأرب، جـ٣١، ص ٩٠ .

(١٤٦) ابن تغري بردي: المنهل، جـ٣، ص ٤٦٧-٤٦٨ .

(١) السيد الباز العريني: نفسه، ص ١٧١-١٧٢؛

Lombton : land lord and peasant in Persia , 1953 , p . 77 .

(٢) ابن تغري بردي: النجوم، جـ٩، ص ٣٣-٣٤ .

(٣) المصدر السابق نفسه، جـ٩، ص ٢٧-٣١

(١٥٠) ابن تغري بردي نفسه، جـ٢، ص ٤٢

دور الأسري الأجانب في المجتمع المصرى

في عصر سلاطين المماليك

من المعروف أن دولة سلاطين المماليك (١٢٥٠-١٥١٧هـ) دولة عسكرية الطابع والنشأة، وقد شاء قدر هذه الدولة أن تخوض العديد من الحروب ومنذ اللحظة الأولي التي شهدت مولدها، سواء ضد الخطر الذي تمثل أمامها والقادم من الشرق، ونقصد به الخطر المغولى، أم الخطر الجاثم علي صدر الأمة العربية وهو الخطر الصليبي الذي داهم بلاد الشام منذ عام ١٠٩٧م، وفي حروبها ضد هذين الخطرين قضت علي أسطورة الجيش المغولي الذي لا يهزم في موقعة عين جالوت سنة (٦٥٨هـ-١٢٦٠م)، كما تحقق علي يديها طرد البقايا الصليبية من بلاد الشام عام (٦٩١هـ-١٢٩١م) أيام السلطان المملوكي الأشرف خليل بن قلاوون.

ولم تتوقف الحروب التي خاضتها دولة سلاطين المماليك ضد أعدائها من المغول إلا بعد سنة (٧٢٣هـ-١٣٢٣م) في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون، حيث تم توقيع معاهدة للصلح بين دولتي المماليك ومغول فارس [١]. أما بالنسبة للصراع المملوكي الصليبي فقد استمر حتي بعد طرد البقايا الصليبية إلي أن سقطت دولة سلاطين المماليك علي أيدي العثمانيين سنة ١٥١٧م؛ لأن هذا الصراع اتخذ عدة أشكال جديدة، ذلك أن الحروب الصليبية كانت قد أفرزت فيما بين القرن الحادي عشر وأواخر القرن الثالث عشر للميلاد عدة كيانات مسيحية في شرق حوض البحر الأبيض المتوسط تسيطر عليها قوي مسيحية كاثوليكية تدين بالولاء الروحي للبابوية، وتحرص

علي أن يكون لها ثواب ضرب المسلمين وفق مفاهيم الكنيسة الغربية، وكانت أهم هذه القوي هي الاسبتارية في رودس ودولة آل لوزجنان في قبرص [٢].

هذه القوي ظلت تنظر إلي دولة سلاطين المماليك في أواخر القرن الثالث عشر الميلاد، كما لا يخفي علينا أن مصر في عصر دولة المماليك كان قد تحقق لها احتكار التجارة بين الشرق والغرب، وجنت من وراء ذلك ثروات ضخمة أتاحت لها فرصة بناء حضارة شامخة وقوة حربية ضارية مكنتها من إحراز ما أحرزته من انتصارات عديدة علي أعدائها وبخاصة من الصليبيين والمغول ومن تحالف معهم من الأرمن وغيرهم؛ لذلك رأت هذه القوي وعلي رأسها البابوية ضرورة ضرب مصالح دولة سلاطين المماليك التجارية في البحر المتوسط بفرض حصار اقتصادي علي شواطئ مصر والشام [٣]، إلا أن هذه السياسة فشلت بسبب تعارض مصالح المدن التجارية الأوربية الغربية مع تلك السياسة وبخاصة المدن الإيطالية مثل: جنوة والبندقية وبيزا وأمالفي وغيرها، وهي التي كانت تسعي بأموالها وتجارها إلي أسواق مصر والشام حرصاً علي المكاسب الباهظة التي كانت تجبيها من الاتجار معها [٤].

ولم يمنع هذا الفشل في تطبيق مبدأ الحصار الاقتصادي علي دولة سلاطين المماليك القوي الصليبية من أن تكرر المحاولة، لكن في شكل آخر وهو القيام بعمليات التخريب الواسعة النطاق بالمواني المصرية والشامية لشل الحركة التجارية بها. وتعاون القبارصة وفرسان الاسبتارية برودس وكذلك القطلان «الكتلان» لتنفيذ تلك السياسة[٥]، وكان من نتيجة هذه العمليات أن أخذت السلطات المملوكية في التفكير الجدي في الرد علي العدوان بالعدوان، وإلي ضرورة الاستيلاء علي جزيرتي قبرص ورودس التي اتخذ القراصنة من أطوارهما أوكاراً لعبثهم وتجرمهم [٦].

ويجب ألا يفوتنا أيضاً أن الغرب الأوربي كان قد أدرك أن قوة المماليك هي قوة اقتصادية بالدرجة الأولي تعتمد في مواردها علي مصدرين أساسيين هما احتكار التجارة بين الشرق والغرب، فضلا عن اعتمادها علي ذهب بلاد التكرور، أي ذهب بلاد السودان الغربي والأوسط، هذا الذهب الذي كان يصل إلي مصر إما عن طريق

القوافل التي تربطها بالبلدان المنتجة له مباشرة، أو عن طريق بلدان المغرب العربى[٧]، وكانت تجارة هذا الذهب بمثابة المغناطيس الذي جذب أبناء الغرب الأوربي منذ أوائل القرن الرابع عشر للميلاد، مستغلين حالة الفوضي والخلاف التي أضحي فيها المغرب العربى، وانقسامه إلي دويلات متصارعة ضد بعضها البعض، مما مهد السبيل لأبناء الغرب للتركيز علي المنطقة بامتداد الساحل من طرابلس وحتي أغادير للاتجار معها، أو الخدمة كجنود مرتزقة في جيوش تلك الدويلات المتصارعة، للحصول علي الذهب من الدول التي لديها فائض منه أولا ثم الوصول إلي البلاد المنتجة له ثانياً [٨].

ثم كانت المحاولات ذات الآثار البعيدة المدي في عهد ملك البرتغال هنري الملاح (١٣٨٥-١٤٣٣م)، والذي كان يهدف إلي تعقب المسلمين - بعد طردهم من الأندلس - في شمالي إفريقيا ونقل الحروب الصليبية إلي بلادهم، وتحويل تجارة الذهب عن طريق القوافل إلي الطريق البحري وإلي موانى المحيط الأطلسي بدلاً من موانى البحر الأبيض المتوسط، إلي جانب انتزاع تجارة الرقيق من أيدي المسلمين وتحويلها إلي الغرب الأوربى، وإيجاد عناصر مسيحية كحلفاء لهم في غرب السودان للانضمام لهم في حروبهم ضد المسلمين [٩].

وبوصول البرتغاليين إلي مناجم الذهب عام ١٤٤٥م تمت لهم السيطرة علي معظم تجارة الذهب التي كانت تحملها القوافل إلي سواحل شمال إفريقيا بوجه عام ومصر بوجه خاص [١٠]، يضاف إلي هذا حركة الكشوف الجغرافية التي تمت علي أيديهم منذ النصف الأول من القرن الخامس عشر، وما نجم عنها من التفافهم حول إفريقيا، ومحاولتهم سد منافذ تجارة الشرق والاستيلاء عليها، في الوقت الذي تشتد فيه إغارات القراصنة من الإسبتارية وغيرهم، وقيامهم بشن سلسلة من الغارات علي السفن المملوكية وهي محملة بالبضائع والأخشاب والعتاد اللازم لبناء السفن بقصد عرقلة المجهود الحربي الذي تقوم به الدولة لمواجهة خطر البرتغاليين [١١].

وعلي هذا النحو ظلت دولة سلاطين المماليك في صراع مع القوي الصليبية الجديدة حتي داهمتها قوات الأتراك العثمانيين سنة ١٥١٧م . وتفيض المصادر

المعاصرة لتلك الفترة بذكر التفاصيل الخاصة بالمحاولات التي لم تنقطع من قبل القوي الصليبية وتعبثها بمواني وسفن دولة سلاطين المماليك في مصر والشام، وعن المجهودات التي بذلتها السلطنة المملوكية في مواجهة تلك الاعتداءات المتكررة [١٢].

وطبيعي بعد ذلك أن نسمع عن أعداد كبيرة من الأسري الأجانب في المجتمع المصري آنذاك، وعلي الرغم مما يردده بعض المؤرخين الأوربيين المحدثين من أن جماعات الأسري هذه كانت خارج التركيبة السكانية لهذا المجتمع، إلا أننا سنلاحظ تأثيرها في كثير من نواحي الحياة الخاصة بهذا المجتمع من خلال استعراضنا لأوضاعهم والدور الذي لعبوه في كثير من نواحي الحياة في ذلك العصر، وهو عصر سلاطين المماليك، مما أتاح لكثيرين منهم الفرصة في الاندماج، بل قد لا نغالي كثيراً إذا قلنا أن المجتمع المصري آنذاك استطاع أن يمتص تلك الجماعات، نظراً لطبيعة ذلك المجتمع فضلا عن أن الشريعة الإسلامية السمحاء قد منحت هذه الجماعات من الأسري من الحقوق ما ساعدهم علي ذلك الاندماج مع باقي أبناء المجتمع، وأن ينصهروا داخل بوتقة ذلك المجتمع بعد فترة وجيزة من الزمن.

مصدر الأسرى :

أما عن مصدر هؤلاء الأسرى، فالحقيقة أنه تنوعت مصادرهم تنوعًا يدل دلالة واضحة علي مدي كثرتهم في البلاد في ذلك العصر، ومن الطبيعي أن يكون أسري المغول هم أول أنواع الأسري الذين تم جلبهم إلي مصر في دولة سلاطين المماليك واستقرارهم فيها علي الرغم مما قد يلاحظه الباحث في المصادر المعاصرة والتي تحدثت عن الفترات السابقة لحكم المماليك، ونقصد بذلك فترة الحكم الفاطمي وفترة الحكم الأيوبي وعن وجود سجن للأسري من الفرنج، والذين نرجح أنهم قد ذابوا وسط المجتمع المصري نتيجة لإسلام الكثيرين منهم، وحقيقة أنه عقب موقعة فارسكور في فبراير ١٢٥٠م كان قد تم أسر عدد كبير من جنود لويس التاسع [١٣].

لكن هؤلاء الأسري من الفرنج لم يقدر لهم البقاء في مصر طويلا بأكملهم، وذلك بسبب التحالف الذي قام بين المماليك ولويس التاسع في مواجهة الملك الناصر يوسف صاحب دمشق من البيت الأيوبى، والذي كان يأمل في ضم مصر إليه باعتبار أن سلطة المماليك بها سلطة غير شرعية، وبسبب ما رسخ بين أبناء البيت الأيوبي من أن الحكم تركة يتوارثها الأبناء عن الآباء، وفي مقابل هذا التحالف تم افتكاك جميع أسري الفرنج الموجودين في مصر، وإرسالهم بل وإرسال رءوس قتلي المعارك الحربية من الفرنج إلي عكا [١٤].

وعلي هذا الأساس تعتبر موقعة عين جالوت سنة (٦٥٨هـ-١٢٦٠م) هي الحلقة الأولي من سلسلة الوقائع الحربية التي خاضتها دولة سلاطين المماليك وتم الحصول فيها علي الأسرى، كذلك كان أسري المغول هم أول الأسري الذين استمر تدفقهم إلي البلاد، فمنذ عهد السلطان الظاهر بيبرس (٦٥٨هـ-٦٧٦هـ/ ١٢٦٠م-١٢٧٧م) والذي يعتبر المؤسس الحقيقي لدولة سلاطين المماليك، اتخذت الدولة عدة تدابير لمواجهة الخطر المغولي كان من أهمها: تكليف بعض الفرق العسكرية بحفظ معابر نهر الفرات لئلا يعبر منها أحد من المغول قاصداً الشام، وكثيراً ما أسرت هذه الفرق العديد من أفراد الجيش المغولي في محاولاتهم الإغارة علي أطراف دولة سلاطين المماليك [١٥]، كذلك كثيراً ما قامت فرق من الجيش المملوكي بالإغارة علي مناطق الحدود الفاصلة بين الدولتين كنوع من إظهار مدي المجهود الحربى، مثال ذلك: ما يرويه لنا المقريزي في حوادث سنة (٦٦٣هـ-١٢٦٤م) أيام السلطان الظاهر بيبرس من أنه «ورد الخبر باستيلاء عز الدين السكندري نائب الرحبة علي قرقيساء - عند ملتقي نهر الخابور بالفرات - وقتلوا من كان فيها من التتر والكرج وأسروا نيفًا وثمانين رجلاً في نصف شهر شعبان» [١٦].

كما يروي أن ابن أيبك الدواداري أنه في سنة (٦٨٠هـ-١٢٨١م) أيام السلطان المنصور قلاوون عندما هاجم المغول بلاد الشام وفي موقعة مرج حمص وعقب فشل هذه الغزوة المغولية وهزيمة التتار فقد أسرت القوات المملوكية «ما يزيد

عـن خـمس مـائة نفـر...»[١٧]، كـذلك عندمـا تكرر الغـزو المغـولي لبـلاد الشـام سنة (٧٠٢هـ-١٣٠٢م) أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وبعد انتصار الناصر عليهم في موقعة قرون حماه، فقد دخل القاهرة في موكب حافل «والأسري من التتار بين يديه مـقـيـدون، ورءوس من قـتـل منهم مـعلقـة في رقـابهم وألف رأس علي ألف رمح، وعـدة الأسري ألف وستمائة في أعناقها ألف وستمائة رأس، وطبولهم مخرقة» [١٨]، بالإضافة إلي مـا يرويه المصـدر عن سنة (٧١١هـ-١٣١١م) أيام نفس السلطان وفي سلطنتـه الثالثة، يقول: «وفيها وصل الأمير سليمان بن مهنا إلي القاهرة، ومعه عدة من التتر مقيدين، أسرهم في الغارة علي التتر، فأنعم عليه بمائة ألف درهم» [١٩].

وظلت أعداد كبيرة من هؤلاء الأسري يتم جلبها إلي البلاد إلي أن هدأت مرحلة الصـراع بين القـوتين بدخـول مـغـول فـارس فـي الإسلام، وتوقـيع مـعاهدة الصلح بين المغول وسلطنة المماليك سنة (٧٢٣هـ-١٣٢٣م) وكما سبق أن أشرنا بذلك.

أمـا بالنسـبة لأسـري الفرنج فـقـد اسـتـمـر تدفـقـهم إلي البـلاد خـاصـة منذ عـهـد السلطان الظاهر بيبرس، وحتي بعد سقوط عكا وطرد البقايا الصليبية من بلاد الشام سنة (٦٩١هـ-١٢٩١م)، حيث نسمع عن ورود أعداد كبيرة من الأسري الفرنج، مثال ذلك ما يشير إليه المقريزي سنة (٦٦٠هـ-١٢٦١م) في عهد الظاهر بيبرس من قول: «وفيها أغار الأمير شمس الدين سنقر الرومي علي أنطاكية، ونازل صاحبها البرنس وأحرق الميناء بما فيها من المراكب.. ثم حاصر السويداء، واستولي عليها وقتل وأسر وعاد.. وصحبته من الأسري نحو مائتين وخمسين أسيراً» [٢٠]، إلي جانب ما يشير إليه نفس المصدر من كثرة أعداد أسري الفرنج الذين وقعوا في أيدي الظاهر بيبرس نفسه عندما فتح: قيسارية، وأرسوف، وصفد، وطبرية، ويافا، والشقيف، وأنطاكية، وغيرها من الحصون والقلاع التي كانت بأيدي الفرنج [٢١].

بالإضافة إلي ما تشير إليه المصادر المعاصرة من كثرة أعداد الأسري من الفرنج الذين وقعوا في أيدي السلطان المنصور قلاوون، مثال ذلك ما حدث سنة (٦٨٨هـ-١٢٨٨م) عندما خرج هذا السلطان لمحاصرة مدينة طرابلس واستولي عليها منهم، فقد «كثرت

الأسري حتي صار إلي زرد خاناه السلطان ألف ومائتا أسير» [٢٢]، وكذلك الأعداد الهائلة منهم أيام ابنه الأشرف خليل في فتوح عكا وصور وبيروت وغيرها بحيث وقع منهم في الأسر ما لا يُحصي عدّه كثرة [٢٣].

أما بعد سقوط عكا سنة (٦٩١هـ-١٢٩١م) فنسمع عن ورود أعداد كبيرة من أسري الفرنج عن طريق الحملات التي وجهها المماليك إلي معاقل الصليبيين في جزيرة أرواد بالقرب من أنطرطوس، أو إلي كل من جزيرتي قبرص ورودس، مثال ذلك: ما حدث سنة (٧٠٢هـ-١٣٠٢م) أيام الناصر محمد بن قلاوون، عندما توجه الأمير كهرداش نائب السلطنة بطرابلس إلي جزيرة أرواد فاستولي عليها وقتل من الفرنج عدداً كبيراً، وعاد فكانت عدة الأسري مائتي وثمانين أسيراً [٢٤]، وإن كان المؤرخ ابن أيبك يذكر في حديثه عن نفس السنة قوله: «وفيها فتح أرواد بالسيف عنوة علي يد الأمير سيف الدين كهرداش والأمير سيف الدين أسندمر نايب طرابلس، وهذه الجزيرة بالقرب من أنطرطوس فتحت بتيسير اللّه تعالي يوم الأربعاء ثاني شهر صفر المبارك، ووصلت البشاير بذلك، وأسر منها ما يزيد عن ألفي نفر خارجًا عن القتلي، وكان منها مضرة كبيرة علي المسلمين ببلاد الساحل» [٢٥].

هذا إلي جانب أعداد أخري كبيرة نتيجة لتعقب السفن الحربية المملوكية لسفن الفرنج المفسدين والذين اشتد عبثهم بسواحل مصر وموانيها، نذكر منها التجريدة الحربية التي أرسلها السلطان الأشرف برسباي سنة (٨٢٨هـ-١٤٥٤م) إلي قبرص والتي استطاعت أن تأسر عدداً كبيراً من الفرنج حتي ضاقت مراكب التجريدة المملوكية عن حمل هؤلاء الأسري و«قدم بألف وستين أسيراً» [٢٦]، وما لجأت إليه سلطنة المماليك من تحصين السواحل المصرية، وإقامة بعض الأبراج الحربية في المناطق التي يخشي عليها، وكذلك قيام دوريات حربية بحرية بالتجول قرب الشواطئ لمطاردة قراصنة البحر من الفرنج. نذكر منها علي سبيل المثال لا الحصر: ما حدث في شهر ذي القعدة سنة (٩١٤هـ-١٥٠٩م) عندما قام الأمير تمرباي الهندي بعمارة الأبراج بميناء الطينة شرقي دمياط، وأثناء وجوده هناك هاجمت إحدي سفن القراصنة

الميناء، فجمع الأمير تمرباي جماعة من الخفراء هناك، ومن كان معه من المماليك، وتمكن من الانتصار عليهم والاستيلاء علي مركبهم، وأسر من كان به من القراصنة الفرنج وعدتهم سبعة وعشرين نفراً وأرسلهم إلي القاهرة [٢٧]، وما حدث سنة (٩١٧هـ-١٥١١م) عندما حضر الرئيس حامد المغربي إلي القاهرة ومعه مائتين من قراصنة الفرنج كانوا يغيرون علي سواحل البرلس فقبض عليهم وقيدهم في زناجير وعرضهم علي السلطان الذي أمر بسجنهم [٢٨].

يضاف إلي ذلك أعداد لا بأس بها من أسري الفرنج والذين كانوا يصلون كهدايا من العثمانيين والذين استمر تدفقهم حتي عهد السلطان الأشرف قايتباي [٢٩]، نذكر علي سبيل المثال: ما رواه أحد المؤرخين المعاصرين في ذكره لحوادث سنة (٧٩٩هـ-١٣٩٦م) أيام السلطان برقوق في سلطنته الثانية أنه في يوم الإثنين الثالث والعشرين من شعبان «حضر رسل ابن عثمان صاحب الروم ومعهم هدايا كثيرة.. وصحبتهم خمسة أنفس من الفرنج الأسرى» وفي سنة (٨٧٦هـ-١٤٧١م) أيام السلطان الأشرف قايتباي «وصل جماعة من بلاد ابن عثمان في البحر وصحبتهم عدة من الفرنج الأسرى» [٣٠].

وبالإضافة إلي الأسري المغول والصليبيين كانت هناك أعداد هائلة من أسري الأرمن، والذين بدأ توافدهم في دولة سلاطين المماليك منذ أيام السلطان الظاهر بيبرس، حيث أرسل حملته المشهورة بقيادة الأمير سيف الدين قلاوون سنة (٦٦١هـ-١٢٦٦م) لتأديب مملكة أرمينية، واستمرت حملات المماليك علي الأرمن حتي سنة (٧٧٦هـ-١٣٧٤م)، حيث خضعت دولة أرمينية لسيطرة المماليك نهائيًا وأصبحت جزءًا من نيابة حلب التابعة لسلطنة المماليك في مصر والشام [٣١]، ولم يكن السبب في تلك الحملات التي توالت علي بلاد الأرمن إلا نتيجة لعداوة الأرمن للمماليك وتحالفهم مع المغول تارة ومع الفرنج تارة أخرى، بل وفرضت مملكة أرمينية نوعًا من الحصار الاقتصادي علي دولة سلاطين المماليك بمنع تصدير الأخشاب والحديد من آسيا الصغري إلي مصر [٣٢].

هذا إلي جانب أعداد أخري من الأسري من بلاد النوبة، والتي كانت مملكة مسيحية تدين بالطاعة لحكام مصر، وتؤدي لهم جزية سنوية منذ منتصف القرن السابع الميلادى، غير أن هذه التبعية كانت اسمية في أغلب الأحيان؛ إذ كثيراً ما تُغير هذه المملكة المسيحية علي الأراضي المصرية الجنوبية، وفي عهد سلاطين المماليك تم إرسال عدة حملات حربية في عهد كل من السلطانين: الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون بهدف تدعيم النفوذ المصري هناك، فضلا عن إحكام السيطرة علي البحر الأحمر وتجارته[٣٣]، ويبدو أن ملوك النوبة أرادوا أن يحاربوا مصر في العصر المملوكي حرباً اقتصادية عن طريق التعرض للتجارة المملوكية التي تسلك الصحراء الشرقية عن طريق عيذاب، وكان هذا التحدي بالنسبة للمماليك بالغ الخطورة إذ عرفنا ما أصبح للتجارة الدولية من مكانة في الحياة الاقتصادية لمصر في ذلك العصر، كما يبدو أيضاً أن العلاقات بين مصر وبلاد النوبة اتخذت طابعاً صليبياً أو كانت جزءاً من الحملة الصليبية العامة التي تبناها المماليك بعد الأيوبيين؛ حيث تلوح في المصادر المعاصرة إشارات عن اتجاه ملك النوبة إلي التعاون مع القوي الصليبية في بلاد الشام. فقد انتهز ملك النوبة فرصة انشغال السلطان الظاهر بيبرس بحروبه في مملكة أرمينية الصغري سنة (٦٧١-١٢٧٢م) [٣٤]، وهاجم أسوان وعيذاب، وأحدث من الأفعال المنكرة ما يدل علي التشفي من المسلمين، الأمر الذي خرج بهذه الحملات عن طابعها القديم[٣٥].

وقد أدرك المماليك هذا الخطر الكامن في الجنوب، وأدركوا احتمال طعن النوبيين للمصريين من الخلف وهم منصرفون إلي دك ما بقي من قلاع الصليبيين ببلاد الشام، ومن هنا ازداد الاهتمام المملوكي ببلاد النوبة كمظهر من سياسة الدفاع عن حدود سلطنتهم وحماية ظهرها؛ لذا بدأت الحملات العسكرية المملوكية تتخذ الطابع العسكري العنيف، مثال ذلك ما يذكره لنا المقريزي من قول : «ساروا إلي قوص من أسوان حتي قارب دمقلة من بلاد النوبة، وقتل وأسر ثم عاد» [٣٦]، وما يرويه عن سنة (٦٧٤هـ-١٢٧٥م) من أن الظاهر بيبرس حاول تدعيم النفوذ المصري هناك بأن استغل قدوم ابن أخت ملك النوبة واسمه مشكد متظلماً من ملك النوبة داود «فجرد السلطان معه الأمير آقسنقر الفارقاني، بعدة من العسكر وأجناد الولاة والعربان، ومعه الزراقون والرماة،

ورجال الحراريق والزرد خاناه، فخرج في مستهل شعبان حتي عدي أسوان، وقاتل الملك داود ومن معه من السودان، فقاتلوه علي النجب، وهزمهم وأسر منهم كثيراً.. ثم واقع الملك داود حتي أفني معظم رجاله قتلا وأسراً وفر هو بنفسه في البحر وأسر أخوه شنكو. فساق العسكر خلفه ثلاثة أيام، والسيف يعمل فيمن هناك حتي دخلوا كلهم في الطاعة، وأسرت أم الملك داود وأخته وأقيم مشكد في المملكة، وألبس التاج وأجلس في مكان داود، وقررت عليه القطيعة في كل سنة... وقرر أن تكون البلاد مشاطرة نصفها للسلطان، ونصفها لعمارة البلاد وحفظها...» [٣٧]. ويذكر ابن أيبك الداواداري أن الجيش المملوكي أسر من بلاد النوبة ما لا يقع عليه الحصر، حتي بيع كل رأس منهم بثلاثة دراهم [٣٨].

كما أرسل المماليك حملات أخري سنة (٦٨٦هـ-١٢٨٧م)، وسنة (٦٨٧هـ-١٢٧٧م) أيام المنصور قلاوون [٣٩]، ويبدو أن الدافع لها كان ما قام به ملوك النوبة من تحريض ملوك البجة ودفعهم إلي مضايقة سلاطين المماليك عن طريق التعرض للقوافل المارة ببلادهم، وانتهت هذه الحملات بتوطيد نفوذ السلطات المملوكية ببلاد النوبة ذاتها [٤٠]، وعادت الجيوش المملوكية بملوك النوبة ونسائهم وتيجانهم وعدة أسري كثيرة [٤١]، كما نتج عن مصاحبة كثير من أبناء القبائل العربية لهذه الحملات أمثال أولاد أبي بكر، وأولاد عمر، وأولاد شريف، وأولاد شيبان، وأولاد الكنز، وبني هلال، وغيرهم [٤٢]، واستقرارهم ببلاد النوبة، وتزوجهم من بنات رؤساء النوبيين أمثال: عرب ربيعة أن اصطبغت هذه المملكة بالصبغة العربية، ولم يكد يمر علي وفاة السلطان الظاهر بيبرس نصف قرن تقريباً حتي كان النوبيون قد اعتنقوا الإسلام، فسقطت عنهم الجزية، وانعدم وجود أسري منهم.

كذلك يجب أن نشير إلي وجود أعداد أخري من الأسري من طائفة النصيرية، وهم غلاة الشيعة في جبال الظنين، بين طرابلس وبعلبك، وربما تم أسر هؤلاء علي اعتبار ما تشير إليه المصادر من أنهم «وكانوا عصاة مارقين من الدين» فضلاً عما تشير إليه نفس المصادر بأنهم كانوا «يقطعون الطريق ويخطفون المسلمين ويبيعونهم

للكفار» أي إلي الفرنج ببلاد الشام، ولا شك أنه واضح هنا تأثير الاختلافات المذهبية في سلوك كل من الطرفين سواء المماليك أم هؤلاء النصيرية (٤٣).

مصير الأسرى:

وعن مصير هؤلاء الأسرى، فمن المعروف أن السلطان كان يأخذ لنفسه منهم من يشاء ثم يأمر بتوزيع بعضهم علي الأمراء، أما الغالبية العظمي منهم فكان يدفع بهم إلي المعتقلات الخاصة بالأسري في ذلك العصر (٤٤).

كما كان يتم اختيار بعض هؤلاء الأسري لإرسالهم كهدايا إلي ملوك الدول التي لها علاقات ودية مع سلطنة المماليك، مثال ذلك ما نسمعه في المصادر المعاصرة من أن السلطان الظاهر بيبرس أرسل في أوائل حكمه سنة (٦٥٩هـ-١٢٦١م) هدية إلي حليفه الإمبراطور منفرد بن فردريك الثاني ملك صقلية، من جملتها جماعة من أسري عين جالوت من التتار بخيولهم التترية وعدتهم، فأعجب الإمبراطور بالهدية (٤٥).

ومـا يرويه المقريزي في حـوادث سنة (٦٦٦هـ-١٢٦٧م) أيام نفس السلطان من أنه: بعد أن عقدت الهدنة في هذه السنة بين صاحب عكا والسلطان لمدة عشر سنين «بعث السلطان لصاحب عكا هدية فيها عشرون نفسًا من أسري أنطاكية...» (٤٦).

كذلك ما حدث سنة (٦٨٠هـ-١٢٨١م) أيام السلطان المنصور قلاوون عقب موقعة حمص التي انتصر فيها علي التتار، فعندما صعد السلطان إلي قلعة الجبل في يوم السبت ثاني عشر رمضان، وأسري التتار بين يديه، وقد حمل بعضهم الصناجق التترية وهي مكسورة وكانت له «حضرت رسل الملك المظفر شمس الدين يوسف بن عمر بن علي بن رسول متملك اليمن، وسألوا أن يكتب لمراسلهم أمان علي قميص، وتعلم عليه العلامة السلطانية، فأجيبوا إلي ذلك، وجهزت إليه هدايا وتحف فيها قطعة زمرد وعدة من أكاديش التتار، وشيء من عددهم» (٤٧). ويشير نفس المصدر إلي أنه في سنة (٧٠٥هـ-١٣٠٥م) أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون، فقد «رسم بتجهيز

الهدية إلي ملك الغرب، وصحبتها عشرون أكديشا من أكاديش التتر، وعشرون أسيرًا منهم وشيء من طبولهم وقسيهم...» [٤٨].

كما وردت عدة إشارات في المصادر المعاصرة تفيد أن سلطنة المماليك كانت تتيح الفرصة لبعض الأسري لافتكاك أنفسهم، فمن كان منهم ذا ثروة كان يدفع الفدية ويتم إطلاق سراحه، ذلك ما يرويه ابن حجر في ذكره لحوادث سنة (٧٨٧هـ-١٣٨٥م) أيام السلطان برقوق في سلطنته الثانية، من أن: بعض سفن الأسطول المماليكي صادفت مركبًا للجنوية بالقرب من سواحل دمياط، فأسروا من فيه وكانوا فوق الثلاثين، فبذل ثلاثة منهم عن أنفسهم ثلاثمائة ألف درهم، قيمتها يومئذ خمسة عشر ألف دينار، فتم افتكاك أسرهم [٤٩]، وما حدث سنة (٨٦٤هـ-١٤٥٩م) حيث تم أسر بعض الفرنج الذين تعدوا علي سواحل بلاد الشام، والذين بلغ عددهم «نحوًا من مائة وخمسين نفرًا، وكان فيهم قنصل الفرنج، فرسم السلطان بضرب رقاب جماعة منهم، وسجن جماعة، وقيد القنصل، وطلب منه مائة ألف دينار، ليفتدي نفسه بها، ثم بعد أيام أطلق، وعملت مصلحته في شيء من المال يرده» [٥٠].

وربما فسر لنا هذا تجول بعض الأسري في شوارع القاهرة وطرقاتها مكبلين بالقيود ومعهم بعض المكلفين بحراستهم، حتي يتسني لهم جمع المبالغ المقررة عليهم سواء لافتكاك أسراهم أو ما يعطونه لأرباب السجون، حيث يكلف الأسير من هذا النوع بإعطاء مقرر للسجّان وللشخص الذي يخرج صحبته، كما يفهم من المصادر المعاصرة أن زوجة السجّان كانت تأخذ نصيبًا من ذلك في كل ليلة جمعة وكذلك نقباء السجون، أما من يحاول من هؤلاء الأسري الهرب فقد كانت عقوبته التوسيط، بينما كانت عقوبة من يفشل منهم في الحصول إلي ما هو مقرر عليه من أموال الضرب والعصر [٥١].

كذلك نسمع عن وجود نظام المكاتبة الذي يعتمد علي اتفاق يوقع بين السيد وأسيره أو عبده بحكم الشراء أو الهبة بأن يدفع له الأسير مبلغًا من المال شهريًا، فإذا استوفي الأسير هذا المبلغ المتفق عليه أُطلق سراحه، ويكون نص العقد علي النحو التالي:

«كاتب فلان مملوكه الذي بيده وملكه المقر له بالرق والعبودية المدعو فلانًا الفلاني الجنسية، لما علم فيه من الخير والديانة والعفة والأمانة، ولقوله تعالي: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً﴾ علي مال جملته كذا وكذا، يقوم به منجمًا «شهريًا» في سلخ كل شهر كذا وكذا وأبرأه منه... وأذن له سيده في التكسب والبيع والشراء، فمتي أوفي ذلك كان حرًا... لا سبيل لأحد عليه إلا سبيل الولاء الشرعي، ومتي عجز، ولو عن الدرهم الفرد كان باقيًا علي حكم العبودية» (٥٢).

ولا يفوتنا أن نشير أن السلطات المملوكية كانت غالبًا ما تقوم باستجواب من يقع في أيديها من الأسرى، ومعرفة قصدهم وهويتهم، ثم تقوم بفرز هؤلاء الأسرى، فمن كان منهم ذا مكانة مرموقة فإنه يتم الاحتفاظ به؛ لأن أمراء وملوك الغرب الأوربي وبخاصة من يرتبطون منهم بمحالفات سيرسلون في طلبهم، وكنوع من كسب صداقة هؤلاء الحكام كان يتم الإفراج عنهم. وخير دليل علي ذلك تلك السفارة التي أرسلها ملك أرغونة إلي السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة (٧٠٥هـ-١٣٠٦م)، وتضمنت شفاعة ملك أرغونة في بعض الأسري وإن كان رد السلطان عليه بالإيجاب إلا أنه ذكر ملحوظة هامة، وهي أنه ليس من بين هؤلاء أسري من أرغونة أو رعاياها (٥٣)، كذلك السفارة التي أرسلها نفس ملك أرغونة سنة (٧١٤هـ-١٣١٥م) (٥٤).

كما تجب الإشارة أيضًا إلي أن إغراء الذهب كان له مفعوله لدي بعض سلاطين المماليك، خاصة إذا كان الأسير من أسرة نبيلة أو ثرية، مثال ذلك ما يرويه المقريزي سنة (٧٠٣هـ-١٣١٣م) أيام الناصر محمد بن قلاوون من أنه: عندما أرسل ملك أرغونة هدية للسلطان وسأل فتح كنائس النصارى، فأجيب إلي ذلك، وسأل كذلك «في فك أسر رجل ممن أسر بجزيرة أرواد، فأفرج عنه وسار معهم إلي الإسكندرية، فبعث بعض الأسري يعرف السلطان بأن هذا الذي أفرج عنه ابن ملك كبير، ولو أردتم فيه مركبًا ملآن بالذهب لحمله إليكم في فكه»، فكتب برده من الإسكندرية وقيد علي ما كان (٥٥).

وما حدث سنة (٧٠٥هـ-١٣٠٦م) عندما أطلق الناصر محمد بن قلاوون سراح اثني عشر أسيرًا بناء علي طلب ملك أرغونة، وعندما كانوا علي وشك الإقلاع من

الإسكندرية، فإن أحد الأفراد أخبر الناصر محمد بأن أحد هؤلاء الأسري هو ابن أحد أساقفة تاراجونا، وأخبره أنه لا يجب إطلاق سراحه إلا بعد الحصول علي فدية ضخمة، وعلي هذا الأساس فإن إغراء الذهب سرعان ما أحدث مفعوله وتردد السلطان في إطلاق سراحه (٥٦).

كذلك جرت العادة في ذلك العصر أن يأمر السلاطين بين الحين والحين بقطع رقاب بعض الأسري الذين كان يتم الحصول عليهم، أو من الموجودين فعلاً بالبلاد وتشير بعض المصادر المعاصرة إلي أن ذلك راجع لعدة أسباب منها: بث الرعب في قلوب الفرنج بوجه عام حتي يسارعوا إلي الاستسلام عندما تحاصرهم قوات المماليك في معاقلهم ببلاد الشام، أو الانتقام لمن استشهد علي أيديهم وفي محاربتهم (٥٧)، أو بقصد الانتقام منهم، مثال ذلك ما حدث سنة (٦٦٥هـ-١٢٦٦م) أيام الظاهر بيبرس، عندما قدم عليه الأسري من الغارة التي قام بها علي عكا فأمر بضرب أعناقهم أمام رسل الفرنج الذين قدموا عليه في غزة وقال لهم: إن عمله هذا في مقابل غارتهم علي بلاد الشقيف (٥٨)، وما يرويه لنا ابن أيبك الدواداري سنة (٦٦٩هـ-١٢٧٠م) أيام نفس السلطان من قول إنه: «في ربيع الأول وصل الخبر إلي السلطان أن الفرنج بعكا أخرجوا جماعة ممن كان عندهم من أسري المسلمين، نحو مائة نفر، وضربوا رقابهم بظاهر عكا، فأخذ السلطان أيضًا أعيان من كان عنده منهم، فغرقهم في البحر» (٥٩). أما الفترات التي تلت طرد الصليبيين من بلاد الشام عقب سقوط عكا سنة ١٢٩١م، فكان هذا الإجراء يتخذ كنتيجة لعبث الفرنج بالسواحل الشامية والمصرية، وما كانوا يلحقونه بها من أضرار، من قتل بعض أهلها وأسر البعض الآخر كلما أتيحت الفرصة، وفي هذه الحالة نلاحظ أن السلطان المملوكي كان يأمر بقطع رقاب بعض الأسرى، ويأمر بالاحتفاظ بالبعض الآخر ربما لاستبدالهم بأسري المسلمين، الذين كان يتم أسرهم أثناء تلك الإغارات (٦٠).

كما يتواتر في المصادر أن السلطان كان يلجأ أحيانًا إلي عرض بعض الأسري للبيع، من ذلك ما يذكره لنا ابن إياس علي سبيل المثال لا الحصر في ذكره لحوادث

سنة (٨٢٨هـ-١٤٢٤م) أيام السلطان الأشرف برسباي من أن أسري غزوة قبرص الأولي والذين بلغ عددهم نحو ألف وستين أسيراً، بعد أن تم عرضهم علي السلطان، أمر ببيعهم، كذلك ما يذكره عن غزوة قبرص الثانية سنة ٨٢٩هـ في عهد نفس السلطان من قول «باع السلطان جماعة كثيرة ممن أسروا من الفرنج من رجال ونساء».. وحمل ثمنهم إلي بيت المال [٦١]، وربما تشير هذه الحادثة إلي ما للظروف الاقتصادية من آثار في اتخاذ مثل هذا القرار، أو لتعويض تكاليف تلك الحملات، وكان يراعي عند بيع هؤلاء الأسري بعض الجوانب الإنسانية، كأن لا يفرق بين الابن وأبيه، أو الأخ وأخيه أثناء عملية البيع حسبما تشير بذلك المصادر المعاصرة [٦٢]، وهنا يجب أن نشير إلي أن شراء هؤلاء الأسري لم يكن قاصراً علي أبناء البلاد فقط، بل إنه كان يحق لأبناء الجاليات الأجنبية المقيمين في البلاد بشراء بعض الأسرى، خاصة من أبناء جلدتهم، والدليل علي هذا ما يذكره الأستاذ الراحل الدكتور صبحي لبيب من أنه عثر علي وثيقة في دار وثائق البندقية جاء فيها أن التاجر الفقيه شمس الدين محمد بن عساكر بن صابر الطرابلسي باع لنائب قنصل البندقية بالإسكندرية في ١٥ من جمادي الثانية سنة (٨١٨هـ/٢٢) من أغسطس ١٤١٥م أسيره الإيطالي فرين بن أنجلي البولي من أبوليا بكعب إيطاليا بمبلغ ٢٥ دوكات ودفع منها المشتري أي نائب قنصل البندقية بالإسكندرية ٣٥ دوكات وأجل دفع العشرة الباقية لمدة عشرة أيام، يدفعها عند تنفيذ العقد وتسليم الأسير، كما نص عليه العقد المبرم بين الطرفين [٦٣]، كما فهم من هذه الوثيقة أن المسلم كان إذا اشتري أسيراً لم يكن يجبره علي التخلي عن دينه، بل يترك له الخيار في هذا الأمر.

ومن المرجح أيضاً أنه قبل أن تتم عمليات قطع الرقاب، أو إرسال بعضهم كهدايا، أو عرضه للبيع أو توزيعهم علي سجون المماليك، كان يتم عرض الإسلام عليهم، فمن أسلم منهم كان يطلق سراحه باعتباره أصبح واحداً من المسلمين، لكن ربما كان يشترط عليهم عدم مغادرتهم البلاد والعودة لأوطانهم، بل والحيلولة دونهم وذلك حتي لا يكون ألواحد منهم عيناً علي دولة سلاطين المماليك لأبناء جنسه، ودليلنا علي ذلك ما ذكره لنا

ابن عبد الظاهر في حديثه عــن السلطان بيبرس، من أنه: في سنة (٦٦٢هـ-١٢٦٣م) قد أسلم علي يديه عدد كبير من التتار والفرنجة والنوبيين، وصـاروا كل يوم في زيادة، بحيث إن الأمير بدر الدين الخازندار فرق عليهم في ساعة واحدة مـائة وثمانين فرسًا، وبذلك أصبحوا ضمن الجيش المملوكي (٦٤).

كذلك يفهم مما رواه ابن تغري بردي أن: أسري التتـار بوجه خاص باعتبارهـم من العناصر الحـربية المتـازة، فضلاً عن أنهم من جنس غـالبـية المـاليك، فـإنهم كـانوا يوزعون علي الأمراء الذين يحـررونهم ويعرضـون عليهم الإسـلام ويدخلونهم في جـملة مماليكهم (٦٥)، ودليل آخر نسوقه علي حرص سلاطين المماليك علي عدم إخراج بعض مماليكهم من الأسـري في التـجاريد الحربية إلي مناطق قريبة من بلادهم الأصلية، ما حدث في عهد السلطان المنصـور قلاوون، عندما طلب منه بعض مماليكه إخراج الأمير قبجق - وهو من أسـري التتار والذي وصل إلي منصب نائب السلطنة في دمشق فيما بعد - في تجريدة إلي حلب فقال: «أعوذ بالله من أن أجـرد قـبجق إلي نحو الشـام، فإنني ما آمنه أن يدخل البلاد، ويظهر لي من وجهه الميل إلي المغل» (٦٦).

هذا إلي جانب ما يشير إليه ابن إياس في حديثه عن سنة (٨٤٩هـ-١٤٤٤م) أيام الملك المؤيد شيخ المحمودى، من أنه: قد أتي إليه من قبل ابن عثمان جماعة من أسري الفـرنج كـهدية «فلما حضـروا بين يدي السلطان عرض عليـهم الإسـلام فـأسلمـوا عن آخـرهـم طوعًا، فـأنزل السلطان جمـاعة بالديوان السلطاني، وفرق منهم جـماعـة علي الأمراء يكرون لخدمتهم بجوامك» (٦٧)، وكذلك ما يشير إليه ابن الصيرفي من أن قاعدة إطلاق سـراح من أسلم من الأسري ظلت سارية المفعول حتي أواخر العصر المملوكي، ففي سنة (٨٧٦هـ-١٤٧١م) علي سبـيل المثال وفي عـهد السلطان الأشرف قـايتبـاى، هاجم الفرنج مدينة دمياط وتم أسر عشرة منهم، وتم سجنهم بسجن المقشرة بالقاهرة، فلما طلبهم السلطان للعرض أمـامه، أسلم ثلاثة منهم طوعًا فـأطلق سراحـهم، وسـجن من تأخر منهم بلا إسلام بالمقشرة (٦٨).

الإشراف على الأسرى:

ونظرًا لأهمية الأسري في ذلك الوقت بالنسبة لدولة سلاطين المماليك، فإن سلاطين المماليك اتخذوا من الإجراءات ما لا يقل عما تتخذه الدول الحديثة نحو أسري أعدائها، فقد كان هناك موظف في ديوان الجيش أُطلق عليه بمصطلح ذلك العصر «كاتب الجيش» كانت مهمته تختص بالإشراف علي الأسرى؛ حيث كان يسجل أسماءهم، ودياناتهم وجنسياتهم، كذلك يدّون أسماء من يتم الإفراج عنهم بمرسوم من المراسيم، وعليه أن يدّون تاريخ ذلك المرسوم واسم من حضر علي يديه المرسوم ومن تسلم الأسير منهم، كما يدّون في سجلاته أسماء الأسري الذين اعتنقوا الإسلام ومللهم السابقة وأجناسهم وتاريخ إسلامهم، وكذلك تاريخ الإفراج عنهم، فضلاً عن أنه كان يدون أسماء من يهرب من الأسري أحيانًا أو من يُهلك منهم، وربما كان علي علم بأماكن تجمعاتهم أي في السجون والمعتقلات، وأعداد من ينزل منهم بكل منها [٦٩].

ويبدو لنا أنه مع تزايد أعداد الأسري في دولة سلاطين المماليك وتطور الجهاز الوظيفي بها أن استجدت وظيفة «ناظر الأسرى» والذي كان يجمع أحيانًا بين هذه الوظيفة وغيرها من الوظائف الأخرى، ولا بد أن يكون لناظر الأسري عدد من الكتبة أو المساعدين، والدليل علي ذلك ما يذكره لنا المؤرخ المعاصر ابن حجر العسقلاني في ذكره لوفيات سنة ٧٥٤هـ عندما يذكر لنا «علي بن يحيي بن محمد بن عبد الرحمن السلمي علاء الدين ابن النويره كان جيد الخط حسن الضبط ولي شهادة الخزانة ونظر الأسري ثم عزل عنها مرارًا وحصلت له بسبب ذلك كلفًا كثيرة...» [٧٠].

كذلك وجد بعض الموظفين للإشراف علي شئون الأسري في دور السلاطين وكبار الأمراء إلي جانب أعمالهم الأخرى، وهؤلاء كانوا من المماليك وكان يطلق على الواحد منهم لقب الأستادار [٧١]، إلي جانب المختصين بالبيوت السلطانية، مثل: «مباشر الفراش خاناه»، والذي كان ضمن اختصاصاته الإشراف علي الأسري الذين يكونون في صحبة السلطان للقيام برعاية الكلاب السلطانية وهم الذين تسميهم المصادر المعاصرة باسم «الكلابزية» [٧٢].

أما الأسري الذين يقيمون في «الحبوس» وهي السجون أو المعتقلات فيبدو أن الإشراف عليهم كان من اختصاص نائب السلطنة بالديار المصرية، ويتضح ذلك من نسخة التذكرة السلطانية التي كتب بها عن السلطان الصالح ابن الناصر محمد بن قلاوون لكافل السلطنة بالديار المصرية الأمير زين الدين كتبغا، عند سفر السلطان إلي البلاد الشامية سنة (٦٩٩هـ-١٢٢٢م)، والتي جاء فيها أنه عليه أن يحترز علي الأسرى، والرجال الذين يخرجون معهم، وأن يتمم عليهم في الحبوس، وأن يعين عليهم جاندارية موثوق بهم، وأن يتفقد قيودهم، ويضاعف الحراس عليهم في الليل، وغير ذلك من الاحتياطيات الواجب اتخاذها نحوهم [٧٣]. كما تجب الإشارة أيضًا إلي أنه جرت العادة في العصر المملوكي بحلق لحية كل أسير ليتميز بذلك عن بقية المسجونين، وعن بقية أفراد المجتمع، وكان يتعهد ذلك فيهم كلما نبتت شعور لحاهم [٧٤].

كما تعكس نصوص المعاهدات التي تم توقيعها بين سلاطين المماليك وأعدائهم خاصة من الفرنج - الاهتمام الواضح بأمور الأسري والرهائن وطريقة معاملتهم وتنظيم إطلاق سراحهم [٧٥]؛ حيث نسمع عن حالات يسمح فيها المسلمون لرسل الإفرنج بدخول البلاد الإسلامية لتفقد أحوال أسراهم ولا بد أن المسلمين كان يسمح لهم بالمثل [٧٦]، وقد اختلفت الشروط بالنسبة لمعاملة الأسري وفقًا لعوامل متعددة منها مكانة الأسير ومدي أهميته، وكذلك ما يكون عليه من التزامات للطرف الآخر، سواء أكان ذلك علي شكل مال أو غلة أو غيرها، وكان يتطلب أن يكون هناك شهود علي هذا الالتزام، ويطلق سراحه بعد أن يوفي ما عليه، ومما جاء في معاملة الأسري والرهائن والتي أتت في المعاهدة التي عقدها بين السلطان المنصور قلاوون وفرنج عكا في ٥ ربيع الأول سنة (٦٨١هـ-٣ يوليو ١٢٨٣م) المادة التالية: «وعلي أن الرهائن بعكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة، كل من عليه مبلغ أو غلة، فيحلف والي ذلك المكان الذي منه الرهينة، ويحلف المباشر والغائب في وقت أخذ هذا الشخص عليه كذا وكذا من دراهم أو غلة أو بقر أو غيره، فإذا حلف الوالي والمباشر والكاتب قدام نائب السلطان وولده علي ذلك يقوم أهل الرهينة عنه بما عليه» [٧٧].

دور الأسرى فى مجال الحياة السياسية:

لعل أول ما يسترعي انتباه الباحث في تاريخ سلاطين المماليك في تلك الفترة بشكل يبرز دور هؤلاء الأسري في الحياة السياسية ما تشير إليه كثير من المصادر المعاصرة عن استخدام بعض السلاطين المماليك لبعض الأسري الذين تم إسلامهم في دواوينهم، والاستفادة من معرفة هؤلاء الأسري ببعض اللغات مثل: اللغة اللاتينية والمغولية وغيرها في العمل لحساب دولة سلاطين المماليك، والتجسس علي أعدائها مثال ذلك ما يرويه لنا ابن عبد الظاهر في حوادث سنة (٦٦٦هـ-١٢٦٧م) أيام السلطان الظاهر بيبرس ما يفيد بأن: هذا السلطان كان لديه بعض المترجمين الذين يعرفون اللغة اللاتينية من أسري الفرنج والذين استعان بهم في معرفة ما يدور من مراسلات بين الفرنج بعضهم وبعض والوقوف علي ما بها، كما أنه استفاد من وجودهم في بعض الأحيان في كتابة رسائل «بالقلم الفرنجى» لإحداث الفرقة بين صفوف الفرج ببلاد الشام وتحريض بعضهم ضد بعض [٧٨].

وبديهي أن المعاهدات التي عقدت بين سلاطين المماليك وبين حكام وملوك الغرب الأوربى، أو بينهم وبين الصليبيين في بلاد الشام في بداية العصر المملوكى، أو بينهم وبين المغول، لم تكن سوي مرحلة ختامية وتتويجًا لجهود وأعمال دبلوماسية جادة قام بها تراجمة وسفراء اشتركوا في مفاوضات، وحملوا أثناء إجرائها ما حملوه من مراسلات ومكاتبات ليمهدوا لعقد المعاهدات، وأنهم في عملهم هذا كانوا يتحركون وفقًا لقواعد وشرائع وقوانين وتقاليد كان عليهم الالتزام بها ومراعاتها بدقة وتقدير لما يقومون به من مهام، ومن المرجح أن يكون كثير من هؤلاء التراجمة علي الأقل في بداية العصر المملوكي كانوا من هؤلاء الأسري الأجانب الذين تم إسلامهم ودخولهم في السلك الوظيفي المملوكي [٧٩].

وكما كان لهؤلاء التراجمة دورهم أثناء الإعداد للمفاوضات والمعاهدات، كان لهم دورهم أيضًا عند إحداث أي تعديل في تلك المعاهدات، وذلك عندما يجد الطرفان الموقعان علي المعاهدة أن الظروف التي أبرمت فيها قد اعتراها تغيير، مما يدفعهما إلي إعادة النظر

في بعض شروطها بالحذف أو بالإضافة أو التعديل، كذلك كان لهم دورهم في عملية فسخ المعاهدات، حيث كان يتم إيفادهم إلي الطرف الثاني وإبلاغه شفويًا بذلك الفسخ والأسباب الموجبة لذلك، كذلك في حالات خرق الهدنة حيث تتم المراسلات بين الجانبين، حيث يحاول كل طرف فيها أن يحمِّل الطرف الآخر وزر خرق الهدنة ونقضها [٨٠].

كما أنه من المرجح أن يكون سلاطين المماليك قد استفادوا من كثرة عناصر التتار من الأسري بوجه خاص، واستخدموهم للتغلغل داخل أجهزة المغول، بعد أن أغدقت عليهم الدولة الكثير من الأموال ونعموا بخيراتها [٨١]، وخير مثال لذلك ما رواه المؤرخ المعاصر «العينى» في ذكره لحوادث سنة (٧٢٣هـ-١٣٢٣م) من: أن الأمير المملوكي أيتمش المحمدي الذي كان يجيد اللغة المغولية بسبب أصله المغولى، فعندما اختاره السلطان الناصر محمد بن قلاوون رسولاً إلي «بوسعيد» عاهل مغول فارس قد دخل على السلطان ليستفسر منه عما يفعل في حالة إذا سألوه أن يتكلم بلسان المغل، فهل يتحدث معهم أم ينكر معرفته به، فرد عليه السلطان بأنه إذا طلبوا منه أن يتحدث معهم باللغة المغولية فليتحدث، وإذا لم يطالبوه بذلك فلا يتحدث [٨٢].

كما أنه مما لا شك فيه أن دولة سلاطين المماليك قد أدركت دور أسري الحرب كمصدر هام من مصادر الحصول علي المعلومات؛ لأنهم يقدمون قدرًا هائلا من المعلومات، وربما لجأ المماليك إلي استجواب هؤلاء الأسري وهو ما عُرف في مصطلح ذلك العصر «بالتقرير» وذلك عن طريق الأسئلة بريئة المظهر، خاصة عندما توجه هذه الأسئلة من أشخاص يتمتعون بخبرة عالية في عمليات الاستجواب، هذا إلي جانب إمكانية العثور مع هؤلاء الأسري علي بعض الوثائق التي قد تحتوي علي معلومات علي درجة من الأهمية من الناحية العسكرية، فضلاً عن أنها يمكن أن تزود المستجوب بفكرة واضحة عن أهمية هذا الأسير، وبالتالي تساعده علي الاستفادة منه أثناء عمليات الاستجواب[٨٣].

ويؤكد المقريزي هذا في حديثه عن سنة (٦٨٠هـ-١٢٨١م) أيام المنصور قلاوون بأنه «ورد الخبر بدخول منكوتمر أخي أبغا بن هولاكو بن طلوي بن جنكزخان إلي بلاد الروم بعساكر، وأنه نزل بين قيسارية والأبلستين، فبعث السلطان الكشافة، فلقوا طائفة

من التتر أسروا شخصًا منهم وبعثوا به إلي السلطان، فقدم إلي دمشق في العشرين من جمادي الأولى، فآنسه السلطان ولم يزل به حتي أعلمه أن التتر في نحو ثمانين ألفًا، وأنهم يريدون بلاد الشام في أول رجب»، فاستعد المنصور قلاوون لملاقاتهم مما كان عاملاً هامًا من عوامل الانتصار، في موقعة حمص الشهيرة [٨٤].

هذا إلى جانب ما يتواتر في المصادر المعاصرة من أن بعض سلاطين المماليك أنفسهم كانوا أصلاً من الأسري الأجانب من التتار ومن الفرنج بوجه خاص، مثال ذلك ما تشير إليه بعض المصادر العربية من أن السلطان سيف الدين قطز كان من أسري التتار وقدم إلي الملك المعز فرقّي حتي صار أتابك العساكر بمصر، ثم بقي سلطانًا[٨٥].

كذلك تشير المصادر إلي أن السلطان زين الدين كتبغا الذي ولي السلطنة سنة (٦٩٤هـ-١٢٩٤م)، وهو الذي لقب بإسم الملك العادل إلي أن خلع سنة (٦٩٦هـ-١٢٩٦م) كان من أسري التتار، أخذه الملك المنصور قلاوون في موقعة حمص الأولي سنة (٦٥٩هـ-١٢٦٠م) فصار من جملة المماليك السلطانية، وترقي في المناصب إلي أن أصبح نائب السلطنة معه في سلطنة الناصر محمد بن قلاوون ثم تولي السلطنة [٨٦].

كما يقال: إن السلطان بيبرس الجاشنكير كان من أسري الفرنج ببلاد الشام ثم اعتنق الإسلام، وأخذ يترقي حتي أصبح من كبار الأمراء ثم تولي السلطنة عقب السلطان زين الدين كتبغا في الفترة (٦٩٦هـ-١٢٩٦م إلي ٦٩٨هـ-١٢٩٨م)[٨٧]. أما عن الأسري الأجانب والذين قدّر لهم الانخراط في سلك الجندية المملوكية، ووصلوا إلي أعلي المناصب فيها، فإن المصادر المعاصرة ذاخرة بأسماء العديد والعديد منهم، ممن كانوا من أسري التتار أو الصليبيين أو الأرمن، نذكر منهم علي سبيل المثال لا الحصر بعض كبار الأمراء والذين قد قدّر لهم أن يتولوا الكثير من المناصب الهامة في الدولة، مثل الأمير بدر الدين المحسني، والذي يقول عنه المؤرخ المعاصر ابن أيبك أنه تم أسره من الفرنج من مدينة أنطاكية عندما فتحها السلطان الظاهر بيبرس، فأسلم وأصبح ضمن المماليك السلطانية، وقدر له أن يصبح والي القاهرة مرتين في عهد الناصر محمد بن قلاوون [٨٨].

ومن أسرى التتار أيضاً الأمير بهادر المنصوري الحلبي الحاج بهادر السلاح دار المتوفي عام ٧١٠هـ، كان مما أسر في موقعة عين جالوت، وأخذه السلطان الظاهر بيبرس، ثم خدم المنصور قلاوون إلي أن صار من أكابر الأمراء بمصر، ثم أمره حلب ثم بدمشق(٨٩).

ومنهم الأمير برلغي التتري الأشرفي ت٧١١هـ والذي يقول عنه ابن حجر: أنه «أسره مهنا أمير العرب في بعض غاراته علي التتار وبعث به إلي المنصور قلاوون فأعطاه لولده الأشرف خليل فترقّي في الخدم إلي أن غلب بيبرس وسار على الأمر فزاحمهما برلغي في الأمر والنهي وقويت شوكته بكثرة أتباعه من المماليك واستقر في وظيفة بيبرس بعد سلطنته ثم تزوج بنت بيبرس فتضاعفت حرمته ولما كانت وقعة شقحب انهزم هزيمة قبيحة فغضب منه السلطان ثم عفا عنه بشفاعة الأمراء فأمره علي الحج سنة ٧٠٢هـ فأبطل الأذان بحي علي حير العمل وجمع الزيدية ومنعهم من الإقامة بالمسجد الحرام» (٩٠).

ومن أسري الأرمن الأمير آل ملك سيف الدين الحاج النائب، كان أصله من الأبلستين، فلما غزا السلطان الظاهر بيبرس أرمينية الصغري كان ممن سبي فوهبه للمنصور قلاوون، فوهبه المنصور لابنه علي ثم ترقّي في الخدمة، ثم كان في أيام الناصر محمد بن قلاوون من أهل المشورة لرجاحة عقله وصواب رأيه (٩١)، وترقّي حتي صار نائب السلطنة زمن السلطان عماد الدين إسماعيل بن الناصر محمد، وله تنسب مدرسة آل ملك بالقاهرة، وجامع آل ملك بالحسينية، وكان قيراونيًا. ومن أسري التتار كذلك نسمع عن الأمير سلار نائب السلطنة في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وكان هو المتحكم في أمور البلاد في السنوات الأولي من عهد هذا السلطان، وقد كان من أسري موقعة الأبلستين سنة ٦٧٥هـ في عهد السلطان الظاهر بيبرس(٩٢)، ويقول عنه ابن إياس: إنه كان نائب السلطنة في عهد الناصر محمد بن قلاوون وفي عهد السلطان بيبرس الجاشنكير الذي ولي السلطنة سنة (٧٠٨هـ-١٣٠٨م) وقد ساس الناس في مدة نيابته بالديار المصرية وهي إحدي عشر سنة، وكان أحسن سياسة، وكانت الناس راضية عنه (٩٣).

ومن الأسرى الأرمن يذكر لنا المقريزي في وفيات سنة (٧٥٠هـ-١٣٤٩م) الأمير إياس الذي أسلم علي أيدي السلطان الناصر محمد بن قلاوون، فرقاه حتي عمله شاد العمائر، ثم أخرجه إلي الشام، ثم أحضره، وتنقل في الخدمة السلطانية إلي أن صار شاد الدواوين، ثم صار حاجبًا بدمشق، ثم نائبًا بصفد، ثم نائبًا بحلب، ثم أميرًا بدمشق [٩٤]، ومن الأسري الأرمن يذكر لنا المقريزي الأمير سيف الدين قرطاي ت سنة (٨٤١هـ-١٤٣٧م)، والذي جيء به إلي الديار المصرية، فترقّي في الخدمة، حتي صار من جملة الأمراء، وولي ابنه علي بن قرطاي نقابة الجيش [٩٥].

ومن الأسري القبارصة في عهد السلطان الأشرف برسباي سنة (٨٢٩هـ-١٤٢٥م) نسمع عن الأمير برديك الدوادار (ت٨٦٨هـ-١٤٦٣م) صهر السلطان الأشرف إينال الأجرود، كان قد اشتراه وأعتقه وزوجه بابنته، وصار صاحب العقد والحل في دولته [٩٦]، وهو الذي يقول عنه ابن تغري بردي أن الملك الأشرف إينال ملكه أيام أن كان أميرًا أي قبل أن يلي السلطنة، ورباه وأعتقه وجعله خازنداره وزوجه بابنته الكبرى، ثم جعله دواداره، ولما تسلطن أمره وجعله دوادارًا ثالثًا ثم جعله دوادارًا ثانيًا، ونالته السعادة، وعظم في الدولة وقصده الناس لقضاء حوائجهم، وشاع ذكره وبعد صيته، ومجدت سيرته، وعمّر الجوامع في عدة بلاد، وله مآثر وذكر في الصدقات والإعطاء، وداوم علي الدوادارية إلي أن نكب ابن أستاذه السلطان الملك المؤيد أحمد بن الملك الأشرف إينال، وخلع من السلطنة، فأمسك برديك هذا وصودر، وأخذ منه نحو من مائتي ألف دينار [٩٧].

فإذا أضفنا إلي هذا ما تشير إليه كثير من المصادر المعاصرة عن المؤامرات التي كانت تدير ضد السلاطين وكبار الأمراء، والتي شارك فيها عدد كبير من الأمراء والذين كانوا أصلاً من أسري التتار أو الفرنج لأدركنا أنهم قد لعبوا دورًا في الحياة السياسية في ذلك العصر [٩٨]، مهما قيل عنه، فهو بلا شك دور مؤثر، أما فيما يختص بشئون بلادهم الأصلية فتشير بعض المصادر في حديثها عن الأرمن سنة (٧٨٤هـ-١٣٨٢م) أيام الملك الصالح حاجي من أنه في شهر جمادي الآخرة «قدم جماعة من الأرمن من

مدينة سيس في طلب من يقوم بأمرهم، وقد مات نائبهم، فسعي بعض النصاري الأسري الذين بالكوم فيما بين جامع ابن طولون ومصر العتيقة، لشخص منهم يبيع الخمر، فأخلع عليه، واستقر في نيابة سيس، عوضًا عن النائب الذي كان بها»، ومن هذا يفهم أنه كانت لهم بعض المشاركة فيما يختص بشئون بلادهم السياسية (٩٩).

دور الأسرى فى الحياة الاجتماعية:

كان لبعض الأسرى تأثيرًا واضحًا في مجال الحياة الاجتماعية في دولة سلاطين المماليك بمصر بوجه خاص، والدليل علي ذلك ما يذكره لنا المؤرخ ابن إياس في حديثه عن الأمير سلار نائب السلطنة في عهد الناصر محمد بن قلاوون، وهو الذي ينسب إليه السلاري وهو عبارة عن قميص من الصوف الأبيض، مبطن بفراء النمور وكان يحلي عادة بزخارف غنية فخمة، وأحيانًا أخري كانت تنثر عليه اللالئ، والمناديل السلارية، وقد اقترح أشياء كثيرة من الملبوس، ومن قماش الخيل، وآلة الحرب (١٠٠)، وهي منسوبة إليه (١٠١)، كما نسمع عن قيام بعض الأسري بأداء بعض الألعاب المسلية التي تشبه ألعاب السيرك حاليًا، من ذلك ما يرويه لنا المقريزي عن أحد الأسري من الفرنج سنة (٨٢٩هـ-١٤٢٥م) أيام الأشرف برسباي والذي أسلم وتزيا بزي الجنود «فإنه نصب حبلا من أعلي مأذنة المدرسة الناصرية حسن بسويقة الخيل تحت القلعة، ومده حتي ربطه بأعلي الأشرفية من قلعة الجبل، ومسافة ذلك أربعة أسهم أو أزيد، في ارتفاع ما ينيف إلي مائة ذراع في السماء، ثم إنه برز من رأس المأذنة، ومشي علي هذا الحبل، حتي وصل إلي الأشرفية، وهو يُبدي في مشيه أنواعًا من اللعب، وقد جلس السلطان لرؤيته، وحشد الناس من أقطار المدينة، فعدَّ فعله من النوادر التي لو لم تشاهد لما صدقت، ثم خلع عليه السلطان، وبعثه إلي الأمراء، فما منهم إلا من أنعم عليه»(١٠٢).

كما لعب كثير من الأسري دورًا بارزًا في هدم المجتمع المصري في ذلك العصر عن طريق المشاركة في كثير من الأفعال القبيحة والأمور المنكرة، التي شاعت في المجتمع المصري في ذلك العصر، من ذلك ما تشير إليه كثير من المصادر المعاصرة من

أنه كان لهؤلاء الأسري دور كبير في إدخال بعض أنواع الخمور التي لم تكن معروفة في مصر من قبل، مثال ذلك مشروب «القمز» والذي أدخله أسري المغول إلي مصر منذ بداية العصر المملوكي، والذي كان يصنع من لبن الخيول، وأصبح يُلقي رواجًا لدي سلاطين وأمراء المماليك، وكذلك مشروب التمر بغاوي نسبة إلي الأمير تمريغا المنجكي وهو في الأصل من أسري المغول، وكان أول من أدخل هذا المشروب الذي كان يصنع من الزبيب يخلط بالماء والذي شاع شربه بشكل لم يسبق له مثيل أيام السلطان الظاهر برقوق (١٠٣).

وربما أدخل الأرمن بعض أنواع أخري من الخمور لم تكن معروفة في مصر من قبل، أو ربما كانت شائعة الاستعمال في بلاد الأرمن وجلبها هؤلاء معهم، فالمقريزي في حديثه عنهم يقول: إنهم كانوا يتجاهرون ببيع الخمور، ويعصرون من الخمور كل سنة ما لا يستطيع أحد حصره (١٠٤).

كذلك كان لهؤلاء الأسري من الأرمن دور كبير في رواج كثير من الأمراض الاجتماعية في تلك الفترة، مثل الزنا واللواط، وخير دليل علي ذلك ما يذكره المقريزي عن الأرمن الذين تزايد عددهم بشكل لم يسبق له مثيل منذ عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون، فيقول: «واتخذوا عندهم أماكن لاجتماع الناس علي المحرمات فيأتيهم الفساق ويظلون عندهم الأيام علي شرب الخمر ومعاشرة الفواجر والأحداث، ففسدت حرم كثيرة من الناس وكثير من أولادهم وجماعة من مماليك الأمراء فسادًا شنيعًا، حتي إن المرأة إذا تركت أهلها أو زوجها، أو الجارية إذا تركت مواليها، أو الشاب إذا ترك أباه، ودخل عند الأرمن بخزانة البنود لا يقدر أن يأخذه منهم، ولو كان من كان»، وفي موضع آخر يقول عنهم: «فصار لهم فيها أفعال قبيحة وأمور نكرة شنيعة من التجاهر ببيع الخمور والتظاهر بالزنا واللياطة وحماية من يدخل إليها من أرباب الديون وأصحاب الجرائم وغيرهم فلا يقدر أحد ولو جل علي أخذ من صار إليهم واحتمي بهم...» (١٠٥).

كذلك يذكر ابن إياس في حديثه عن خزانة البنود التي كانت مقرًا لهؤلاء الأسري من الأرمن قوله: «فلما بطل أمرها من السجن، صارت حانة، يجتمع بها أنواع

الفسوق، من المناحيس، والمقامرين، وكان يحصل منهم غاية الفساد، فلما ولي الحاج آل ملك نيابة السلطنة (سنة ٧٤٤هـ-١٣٤٣م) أيام الملك الصالح إسماعيل، أمر بهدمها، فهدمت، ثم أنشأ مكانها مسجداً للعبادة، فلما كمل بناؤه، لم يصل به أحد من الناس، لما تقدم في أرضه من سفك الدماء، وكثرة الرمم التي دفنت بأرضه، فامتنعت الناس من الصلاة فيه، فصار باب هذا المسجد لا يزال مقفولاً دائمًا لا يصلي فيه أحد من الناس»[١٠٦]، هذا إلي جانب ما يشير إليه أحد المؤرخين المحدثين من أن كثيراً من الأسري كانوا ينضمون إلي عصابات المجرمين وقطّاع الطرق وتجّار الخمور والحشيش، بحيث شكّلوا خطراً يهدد كيان المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك[١٠٧].

وإن كنا لا نميل إلي هذا الرأي؛ لأننا سبق أن أشرنا في الصفحات السابقة أن الكثير من الأسري الذين لم يتم افتكاك أسرهم كانوا يكبلون بالقيود ويودعون بالسجون والمعتقلات، وإن سمح لهم بالتجول في الشوارع كانوا في حراسة كثير من الجند المكلفين بهم، أما الأسري الذين يتم افتكاك أسرهم ويتم إسلامهم فإنهم ينضمون إلي سلك الجندية المملوكي عند السلاطين وكبار الأمراء، وبذلك أصبحوا في وضع يوفر لهم كل متطلبات الحياة من خلال الإقطاعات والرواتب والجوامك التي كانوا يحصلون عليها أو التي تصرف لهم، أما الذين كان يتم بيعهم لأفراد المجتمع من غير المماليك، فهؤلاء علي ما يبدو كانوا من القلة بحيث لا يمكن أن يشكّلوا خطراً، فضلا عن أنهم لا شك، قد وجدوا عند سادتهم كل متطلبات الحياة، ونري أن مبعث الخطورة هو ما أوضحه المقريزي من قيامهم بحماية من يلجأ إليهم من أرباب الجرائم أو من يحتمي بهم من ذوي النفوس الضعيفة لنيل مآربهم.

سكن الأسرى بالقاهرة:

واضح مما تشير إليه المصادر المعاصرة أن الأسري من الفرنج بوجه خاص وكذلك الأرمن والذين لم يعتنقوا الإسلام كانوا ينزلون في عدة أماكن خصصت لهم، هذه الأماكن يطلق عليها أحيانًا اسم السجون، وإن كان يبدو لنا أن هذه السجون

كانت أقرب إلي المعتقلات، حيث كان يسمح لهم فيها بممارسة كثير من أنوا ع النشاط والتي سبق أن أشرنا إليها، مثل: عصرهم للخمور، وممارستهم للدعارة والشذوذ الجنسى، إلي جانب قيامهم بتربية الخنازير وبيع لحومها(١٠٨)، وخير دليل علي أن هذه الأماكن كانت أشبه بالمعتقلات ما يذكره المقريزي نفسه عن أن خزانة البنود، وهي التي كانت في المنطقة الواقعة ما بين رحبة باب العيد ورحبة المشهد الحسيني «عملت منزلاً للأمراء من الفرنج يسكنون فيها بأهاليهم وأولادهم، في أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون...». وقوله في موضع آخر: «فأنزل فيها الملك الناصر محمد الأساري بعد حضوره من الكرك وأبطل السجن بها فلم يزالوا فيها بأهاليهم وأولادهم في أيامه...»، وفي موضع ثالث يقول: «وعمرًها السلطان الناصر محمد مساكنًا لهم، وتوالدوا بها»(١٠٩).

كما يؤيد القلقشندي صحة هذا الرأي بأن هؤلاء الأسري كانوا يعيشون في داخل هذه المعتقلات بكامل حريتهم لكن كانت تفرض عليهم بعض القيود، فعندما كانوا يخرجون للعمل في إحدي المشروعات الخاصة بالدولة كانت توثق أيديهم وأرجلهم بالقيود الحديدية والسلاسل، وكان يحترز في أمر الداخل إليهم وبخاصة إذا كان من جنسهم، كذلك كان يتم مضاعفة الحراس علي خزانة البنود وخزانة شمائل - قبل أن تهدم - بالليل وحولهما، وفي الأماكن المرتفعة فيهما، كذلك لم يكن يسمح لأحد من هؤلاء الأسري النازلين بهما بالمبيت خارجهما أو الخروج لحاجة تختص به ولا إلي حمًام أو كنيسة أو فرجة، وربما توافر لهم بداخلهما كل ما يحتاجون إليه من حمًام أو كنيسة (١١٠).

وجدير بالذكر أيضًا أن خزانة البنود التي تم هدمها سنة (٧٤٤هـ-١٣٤٣م) فإن الأسري الذين كانوا بها قد تم إنزالهم بالقرب من المشهد النفيسي بجوار كيمان مصر في مكان خصص لهم، وواضح تمامًا مما تشير إليه المصادر المعاصرة أن السبب في إقصائهم عن هذا المكان إلي تذمر الغيورين علي الدين مما اقترفه هؤلاء الأسرى؛ ولذلك تم نقلهم إلى مكانهم الجديد والذي يعتبر أحد أطراف القاهرة في ذلك العصر ، ويعبًر المقريزي عن فرح المعاصرين لهذا الإجراء بقوله: «وطهر اللّه تلك الأرض منهم

وأراح العباد من شرهم فإنها كانت أشر بقعة...» (١١١). ومن المرجح أن تكون هذه البقعة هي نفسها التي ذكرها المؤرخ ابن الصيرفي في سنة (٧٩٠هـ-١٣٨٨م) تحت اسم حارة اليسرا من النصاري (١١٢).

أما خزانة «شمايل» أو «شمائل» فهي التي تنسب إلي شمائل والي القاهرة في عهد الملك الكامل الأيوبى، وقد كانت هي الأخري ضمن الأماكن التي كان ينزل بها الأسري في ذلك العصر حسبما أشار بذلك القلقشندي (١١٣) إلي أن قام السلطان الملك المؤيد شيخ المحمودي بهدمها سنة (٨١٨هـ-١٤١٥م) وشرع في بناء المسجد الذي عرف باسمه في مكانها، وإن كنا نسمع أنها كانت في نفس الوقت تستخدم كسجن للمجرمين وأرباب الجرائم من المواطنين، بما يرجح بأن الأسري كانوا يودعون بها بصفة مؤقتة خاصة من سيتم الإفراج عنهم قريبًا لسبب أو لآخر (١١٤).

كما تشير بعض المصادر المعاصرة إلي مكان آخر كان ينزل به الأسري وهو سجن المقشرة، ويبدو لنا أيضًا أنه كان كسجن مؤقت لهم حسبما يفهم من رواية المؤرخ ابن الصيرفي في حديثه عن الأسري الذين ينزلون بهذا المكان في أيام السلطان الأشرف قايتباي (١١٥)، وربما قد طُبّق علي الأسري النازلين بهذا السجن ما كان يطبق علي المسجونين العاديين من إلزامهم بدفع مقرر السجون، وكما سبق أن أشرنا إلى ذلك.

كما تجب الإشارة إلي أن الأسري الذين كان يختص بهم السلطان كانوا ينزلون بالقلعة، ربما في مكان خصص لهم، فالمقريزي في حديثه عن السلطان الناصر محمد بن قلاوون يقول: «اتخذ الأسري وجلبهم إلي مصر من بلاد الأرمن وغيرها، وأنزل عدة كثيرة منهم بقلعة الجبل»، وفي موضع آخر يقول: «وكانت الأسري التي بالقلعة من خواص الأسرى، وعليهم كان يعتمد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون في أمر عمائره...» (١١٦)، وعندما قام الأمير الحاج آل ملك نائب السلطنة بهدم خزانة البنود وأراق ما هناك من خمور، ثم طلب «والي القلعة، وألزمه أن يفعل مثل ذلك ببيوت الأسري من القلعة، فمضي إليها وكسر جرار الخمر التي بها، وأنزلهم من القلعة،

وجعلهم مع نصاري خزانة البنود»، في موضع بجوار الكوم، فيما بين جامع ابن طولون ومصر، فنزلوه واتخذوا به مساكنهم، واستمروا بها إلى اليوم [١١٧].

هذا بالإضافة إلي بعض المناطق الأخري التي نزلوا بها في الوجه القبلي بطوله، حيث يذكر المؤرخ ابن تغري بردي علي سبيل المثال: أن السلطان الناصر محمد قد أقام كثيراً من الحظائر والتي أطلق عليها اسم «المراحات» لتربية الأغنام من قوص إلي الجيزة، وكان يأخذ منها ما يختاره، وأقام لها «خولة من نصاري الأسرى» [١١٨]، كذلك يفهم مما رواه ابن شاهين الظاهري عن «أحواش الصيد» أنه كان بكل إقليم من الديار المصرية حوش يشتمل علي عدة شباك وصيادين، وربما وجد بها أعداد من الأسري الذين يقومون بحمل ما يجمع من طيور، أو تجهيز تلك الطيور للأكل وخلافه [١١٩].

استخدامات الأسرى ومواردهم المالية:

يتواتر في المصادر المعاصرة استخدام كثير من الأسري من الفرنج والأرمن خاصة الذين لم يطلق سراحهم أو يعتنقوا الإسلام أو يتم إلحاقهم بالجيش المملوكى، في العمائر السلطانية مثال ذلك ما يرويه المقريزي في حديثه عن السلطان المنصور قلاوون: عندما شرع في بناء المارستان المنصوري والمدرسة والسبيل ومكتب الأيتام الملحقين بالمارستان وكذلك القبة فإنه أخذ ثلثمائة أسير، وجمع صناع القاهرة ومصر وأمرهم أن يعملوا بأجمعهم لتنفيذ عمائره تلك، ومنعهم أن يعملوا لأحد في المدينة قبل إتمام عمائره [١٢٠]، إلي جانب الأعمال الأخري من شق الترع، وعمارة الجسور والقناطر وحفر الخلجان [١٢١]، بالإضافة إلي استخدامهم في الحظائر التي أقامها سلاطين المماليك لتربية الخيول والأغنام والطيور المختلفة، وكذلك في أبراج الحمام الموجودة بقلعة الجبل لرعايتها وإطعام ما بها من حمام والعمل علي نظافتها، وحمل الأعلاف إليها، وفي رعاية كلاب الصيد والصقور تحت القلعة ورعاية أبقارها، ومنهم من اشتغل في المطابخ السلطانية ومطابخ قصور بعض الأمراء [١٢٢].

كما تشير المصادر المعاصرة إلي تقديم خدماتهم للجيش المملوكي خاصة عند حصاره لإحدي القلاع أو المدن، من ذلك ما يرويه لنا ابن عبد الظاهر، في حوادث سنة (٦٦٣هـ-١٢٦٤م) أيام السلطان الظاهر بيبرس من قول «وشرع السلطان في تقسيم أبراج أرسوف علي الأمراء، وجعل هدمها دستورهم، ورسم بإحضار الأساري لإخرابها» وما يرويه المقريزي من قول عن نفس الحادثة: «وعين السلطان جماعة من الأسري من الفرنج ليسيروا بهم، وقسم أبواب أرسوف علي الأمراء، وأمر أن يكون أسري الفرنج يتولون هدم السور، فهدمت بأيديهم» (١٢٣)، كذلك يفهم مما رواه المقريزي عند حديثه عن السلطان الأشرف خليل بن قلاوون عندما فتح قلعة الروم غربي الفرات والتي أصبحت تعرف فيما بعد باسم قلعة المسلمين أنه حمل إليها الأسلحة وحشد فيها المقاتلة، كذلك حمل إليها ألفا ومائتي أسير لرعاية تلك الأسلحة والقيام عليها بالحفظ(١٢٤).

كما تجدر الإشارة إلي أن هؤلاء الأسري كانوا يحصلون علي بعض الموارد المالية من جراء قيامهم ببعض تلك الأعمال السابقة، فقد أشرنا إلي بيعهم الخمور ولحم الخنزير، واشتغالهم بأعمال الدعارة. فضلاً عن المبالغ التي كان ينعم بها السلاطين والأمراء عليهم ضمن من قاموا بتشييد بعض العمائر، أو عند الانتهاء من حفر جسر من الجسور أو بناء إحدي القناطر، من ذلك ما يرويه ابن إياس أيام الناصر محمد بن قلاوون من: أنه عندما انتهي العمل في القصر الكبير «القصر الأبلق»، فقد أنعم علي الأسري ضمن من أنعم عليهم من المهندسين والبنائين والمرخمين والنجارية وغيرهم(١٢٥)، وواضح أن هذه كانت عادة السلاطين وكبار الأمراء، ففي عهد السلطان برقوق عندما انتهي العمل من مدرسته التي أنشأها بين القصرين فقد أنعم علي الأسري كل واحد منهم بخمسة دنانير (١٢٦).

فضلاً عن الأموال التي كان يمنحها لهم كبار الأمراء بناء علي توصية السلاطين لهم، مثال ذلك ما تشير إليه المصادر المعاصرة عن الناصر محمد بن قلاوون من أنه: كانت «عادته أن يبعث يوم النحر أغنام الضحايا إلي الأمراء مع الأبقار والنوق، فبعث

مرة في صحبة بعض الخولة النصاري إلي الأمير بيبغا حارس الطير ثلاثة كباش فأعطاه بيبغا عشرة دراهم فلوسًا فعاد الخولي إلي السلطان، فقال له: وأين خلعتك؟ فطرح الفلوس بين يديه وعرفه بها فغضب وأمر بعض الخدام أن يسير بالخولي إلي بيبغا، ويقول له: قال لك السلطان لا فتح الله عليك برزق ويلك، أما كان عندك قباء ترميه علي غلامي؟ وخله يلبسه طرد وحش فلما بلغه الخادم ذلك ندم وأخذ يعتذر، وألبس الخولي قباء طرد وحش» (١٢٧).

كذلك يفهم مما رواه ابن إياس في حديثه عن السلطان قانصوه الغوري أن الأسري المكلفين برعاية السواقي سواء في القلعة أم الميدان تحت القلعة وربما في دور الأمراء وغيرهم كانوا يقومون بتحصيل بعض الأموال من جراء قيامهم ببيع روث الأبقار التي تدير تلك السواقي لحسابهم الخاص (١٢٨). هذا بالإضافة إلي ما تشير إليه بعض المصادر من تخصيص رواتب من الخزانة السلطانية لكثير من الأسرى، إلا أنه نتيجة للأزمة الاقتصادية التي أخذت تظهر بوادرها أواخر القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر للميلاد فقد قطعت تلك الرواتب، فالمقريزي في حديثه عن سنة (٧٤٨هـ-١٣٤٧م) في بداية حكم السلطان الناصر حسن يقول: «وقطعت رواتب كثير من الأسري والعتالين والمستخدمين في العمائر، وأبطلوا العمارات من بيت المال» (١٢٩).

وأخيرًا، يمكننا القول: أن هؤلاء الأسري لم يكونوا بمعزل تمامًا عن بقية طبقات المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك بما تشمله من حكّام ومحكومين، وأنهم أثّروا في أبناء الطبقات المختلفة سواء سلبًا أم إيجابًا، وأنهم ذابوا وسط طبقات الشعب المختلفة علي مر الأيام، وكما هي عادة الشعب المصري دائمًا علي مر عصوره التاريخية، فكم من سلطان وأمير من المماليك، بل وفقيه من الفقهاء أو من الموسرين من التجّار وغيرهم قد أعتق أسيرًا، وبذلك أصبح هذا الأسير يدين له بالولاء ويكون له عصبة، عملاً بقول رسول الله صلي الله عليه وسلم: «إنما الولاء لمن أعتق»، وقوله صلي الله عليه وسلم: «الولاء لحمته كلحمة النسب» (١٣٠).

«الحمد لله»

الفصل الأول

(١) أبو الفدا «الملك المؤيد إسماعيل ت٧٣٢هـ»: المختصر في أخبار البشر، القاهرة، (د-ت) ج٤، ص٩١، المقريزي «تقي الدين أحمد بن علي ت٨٤٥هـ» : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، القاهرة، ١٩٤٢-١٩٧٢م، ج٢، قسم ١، ص٢٤٢ .

(٢) عبد العزيز عبد الدايم «دكتور»: «الصراع بين القوي المسيحية ودولة المماليك الجراكسة...» من كتاب مصر وعالم البحر المتوسط، القاهرة، ١٩٨٦، ص, ٢٠٦

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور «دكتور»: الحركة الصليبية، القاهرة، ١٩٦٣م، ج٢، ص١١٦٧ .

(٤) أحمد دراج «دكتور»: المماليك والفرنج، القاهرة، ١٩٦١م، ص, ١٨

(٥) المقريزي: السلوك، ج١، قسم ٢، ص٧١٦؛ ابن إياس «محمد بن أحمد بن إياس الحنفي ت٩٣٠هـ»: بدائع الزهور في وقائع الدهور، القاهرة، ١٩٦٠-١٩٧٢م، ج٤، ص٢٢٠ .

(٦) محمد مصطفي زيادة «دكتور»: «المحاولات الحربية للاستيلاء علي جزيرة رودس»، مجلة الجيش، ١٩٤٦م، ص٢٠٤، أحمد دراج: المماليك والفرنجة، ص٩ .

(٧) عن ذلك راجع مقالنا: «التبادل التجاري بين مصر وبلاد التكرور...» ندوة العرب في إفريقيا، جامعة القاهرة، أبريل، ١٩٨٧م.

(٨) Bovill: The Golden Trade of the Moors London, 1958, p. 233.

(٩) إبراهيم طرخان «دكتور»: «البرتغاليون في غرب إفريقية»، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، عام ١٩٦٣م، المجلد ٢٥، ص٢٠-٢٤ .

(١٠) Fage: An Introduction to the Hist. of west AFrica, Camir. 1955, pp. 44-55. Ibid, p, 47.

(١١) Maffei: Hist des Jndes trade Lyon, 1603, p. 262.

(١٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤، ص٢٢٠، وما بعدها.

(١٣) ابن واصل «جمال الدين محمد بن سالم ت ٦٩٧هـ»: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، القاهرة، ٥٣-١٩٦٠م، ج٢، ص٣٧؛ المقريزي: السلوك، ج١، قسم ١، ص٣٥٧ .

(١٤) Joinville: Chronical of the Grusade, London,1963, pp. 247-296.

(١٥) ابن تغري بردي «جمال الدين يوسف أبو المحاسن ت ٨٧٥هـ»: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة، ١٩٣٩-١٩٧٢م، ج٧، ص١٦٧-١٨٢ .

(١٦) السلوك، ج١، قسم ٢، ص٥٣٧ .

(١٧) الدرة الزكية، ص٢٤٤ .

(١٨) المقريزي: السلوك، ج١، قسم ٣، ص٩٣٩ .

(١٩) المصدر نفسه، ج٢، قسم ١، ص١٠٥-١٠٦ .

(٢٠) السلوك، ج١، قسم ٢، ص٤٧٢ .

(٢١) المصدر السابق، ج١، قسم ٢، ص٥٦٦-٦٣٨ .

(٢٢) المصدر نفسه، ج١، قسم ٣، ص,٧٤٧

(٢٣) المصدر السابق، ج١، قسم ٣، ص٧٩٥-٧٩١ .

(٢٤) المقريزي: نفسه، ج١، قسم ٣، ص٩٢٨-٩٢٩ .

(٢٥) الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ص٨٠ .

(٢٦) المقريزي: نفسه، ج٤، قسم ٢، ص٦٩٤-٦٩٦؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص١٠٩ .

(٢٧) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤، ص١٤٦ .

(٢٨) المصدر السابق: ج٤، ص٢٢ .

(٢٩) ابن أيبك: الدر الفاخر، ص٨٠؛ ابن الصيرفي «علي بن داود ت ٩٠٠هـ»: نزهة النفوس والأبدان، القاهرة، ٧٠-١٩٧٠هـ، ج١، ص٤٨٨، إنباء الهصر بأنباء العصر؛ القاهرة، ١٩٧٠م، ص٣٤١، ابن إياس: نفسه، ج٥، ص٣٧-٣٨ .

(٣٠) ابن الصيرفي: نزهة النفوس، ج١، ص٤٨٨، إنباء الهصر، ص٣٤١ .

(٣١) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص٢٧-٢٨ .

(٣٢) المصدر السابق، ص٢٧-٢٨؛ المقريزي: السلوك، ج١، قسم ٢، ص٤٧٣-٥٠٨ .

(٣٣) ابن الفرات: تاريخ، ج٨، ص٤٨-٥٠؛ ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص١٥٥؛ المقريزي: السلوك، ج١، قسم ٢، ص٦٢٢-٦٢٣ .

(٣٤) المقريزي: نفسه، ج١، قسم ٢، ص٦٠٨ .

(٣٥) حسن أحمد محمود "دكتور": الإسلام والثقافة العربية في إفريقية، ج١، ص١٩٤ .

(٣٦) السلوك، ج١، قسم ٢، ص٦٠٨ .

(٣٧) المقريزي: السلوك، ج١، قسم ٢، ص٦٢١-٦٢٣ .

(٣٨) الدرة الزكية، ص١٨٣ .

(٣٩) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص١٥٥؛ المقريزي: السلوك، ج١، قسم ٣، ص٧٣٧ .

(٤٠) ابن عبد الظاهر: نفسه، ص١٥٥ .

(٤١) المقريزي: نفسه، ج١، قسم ٣، ص٧٣٧ .

(٤٢) المصدر السابق : السلوك، ج١، قسم ٣، ص٧١٧ .

(٤٣) الحسن بن حبيب: تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، القاهرة، ١٩٧٦م، ج١، ص٢٦٨ .

(٤٤) فايد حماد عاشور "دكتور" : العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الأولى، دار المعارف، ١٩٧٦م، ص١٦ .

(٤٥) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١٢٤-١٢٥؛ أحمد مختار العبادي "دكتور" : قيام دولة المماليك الأولى، الإسكندرية، ١٩٨٢م، ص٢٠٣ .

(٤٦) السلوك: ج١، قسم ٢، ص٥٧١

(٤٧) المقريزي: السلوك، ج١، قسم ٣، ٧٠١-٧٠٢ .

(٤٨) المصدر السابق: ج٢، قسم ١، ص١٥ .

(٤٩) إنباء الغمر، ج١، ص٣٠٢ .

(٥٠) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٣٥٦ .

(٥١) ابن الصيرفي: إنباء الهصر، ص٢٠٣، ٢٠٤، ٢٩٠، ٢٣١ .

(٥٢) نهاية الأرب: ج٩، ص١١٣ .

(٥٣) Attiya: Egypt and Aragon, pp. 26-29.

(٥٤) Alarcon, op. cit, pp.356-361, Attiya: Egypt and Aragon, pp. 35-37.

(٥٥) المقريزي: السلوك، ج١، قسم ٢، في ذكر حوادث سنة ٧٠٣ .

(٥٦) Attiya: Op. Cit. pp. 33-34.

(٥٧) المقريزي: السلوك، ج١، قسم ٢، ص٥٥٩-٥٦٦ .

(٥٨) المصدر السابق، ج١، قسم ٢، ص٥٥٩ .

(٥٩) الدرة الزكية، ص. ١٥١

(٦٠) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، قسم ٢، ص٣٦، ج٢، ص٢٥٦ .

(٦١) بدائع الزهور، ج٢، ص١٠١-١٠٩ .

(٦٢) المصدر السابق، ج٢، ص١٠١ .

(٦٣) مصر وعالم البحر المتوسط، القاهرة، ١٩٨٦م، ص١٩٨ .

(٦٤) الروض الزاهر، حوادث ٦٦٢هـ؛ المقريزي: السلوك، ج١، قسم ٢، ص٥١١؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج٨، ص٥٥-٥٦ .

(٦٥) النجوم، ج٨، ص٥٥-٥٦ .

(٦٦) المقريزي: السلوك، ج١، قسم ٣، ص٨٧١-٨٧٢ .

(٦٧) بدائع الزهور، ج٥، ص٣٧-٣٨ .

(٦٨) إنباء الهصر، ص٤٤٥ .

(٦٩) النويري: نهاية الأرب، ج٨، ص٢٨٢ .

(٧٠) الدرر الكامنة، ج٣، ص١٣٩ .

(٧١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٢٠؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج٨، ص٢٣٢ .

(٧٢) النويري: نهاية الأرب، ج٨، ص٢٢١ .

(٧٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٣، ص٩٣ .

(٧٤) المصدر السابق، ج٣، ص٩٣ .

(٧٥) انظر معاهدة السلطان بيبرس مع الاسبتارية ٦٦٩هـ-١٢٧١م، صبح الأعشى، ج١٤، ص٤٩ .

(٧٦) عمر كمال توفيق: الدبلوماسية الإسلامية، الإسكندرية، ١٩٨٦م، ص٢١٦ .

(٧٧) المقريزي: السلوك، ج١، ص٩٩٣ .

(٧٨) الروض الزاهر، ص٢٩٦-٢٩٧ .

(٧٩) عمر كمال توفيق: الدبلوماسية الإسلامية، ص٣٤-٣٥ .

(٨٠) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٤، ص١٠٨-١٠٩؛ عمر كمال: نفسه، ص١٩٦-٢٠٩ .

(٨١) ابن عبد الظاهر: نفسه، ص١٣٥؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج٥، ص٣٧-٣٨ .

(٨٢) العيني: عقد الجمان في حوادث سنة ٧٢٣هـ، مخطوط.

(٨٣) علي السيد علي: «الجاسوسية في عصر سلاطين المماليك»، مجلة فكر للدراسات والنشر، العدد ١٠، ١٩٨٦م، ص١٣٩-١٤١ .

(٨٤) السلوك: ج١، قسم ٣، ص٦٩٠ .

(٨٥) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٣٠٢ .

(٨٦) ابن تغري بردي: النجوم، ج٨، ص٥٥-٥٦؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢؛ ص١١٢، ابن إياس: نفسه، ج٢، ص٢٨٦ .

(٨٧) عزيز سوريال عطية: العلاقات بين الشرق والغرب، القاهرة، ١٩٧٢، ص١٧٢ .

(٨٨) الدر الفاخر، ص٣٥٤ .

(٨٩) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج١، ص٥٠٠ .

(٩٠) المصدر السابق، ج١، ص٤٧٦-٤٧٧ .

(٩١) المصدر السابق، ج١، ص٤١١ .

(٩٢) المقريزي: السلوك، ج٢، قسم ١، ص٥ .

(٩٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، قسم ١، ص٤٢٥-٤٣٣ .

(٩٤) السلوك، ج٢، قسم ٢، ص٨١٣ .

(٩٥) المصدر السابق نفسه، ج٤، قسم ٢، ص١٠٦٣ .

(٩٦) بدائع الزهور، ج٢، ص١٠٩ .

(٩٧) ابن تغري بردي: النجوم، ج١٦، ص٣٢٥-٣٢٦ .

(٩٨) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، قسم ١، ص٤٣٥ .

(٩٩) ابن حجر: إنباء الغمر، ج١، ص٢٥٦؛ ابن إياس: بدائع، ج١، ص٣٠٧ .

(١٠٠) ماير: الملابس المملوكية، ص٤٤ .

(١٠١) بدائع الزهور، ج١، قسم ١، ص٤٣٦ .

(١٠٢) السلوك، ج٤، قسم ٢، ص٧١٣ .

(١٠٣) المقريزي: السلوك، ج١، ص٦٠٧؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج٧، ص١٢٥؛ ابن الصيرفي: نزهة النفوس، ج١، ص٣٦٩ .

(١٠٤) الخطط، ج١، ص٤٢٥ .

(١٠٥) المصدر السابق، ج١، ص٤٢٥ .

(١٠٦) بدائع الزهور، ج١، قسم ١، ص٥٠٠ .

(١٠٧) Lapidus : Muslim Cities in the later Middle Ages, Massachusseits, 1967, p. 84.

(١٠٨) المقريزي: السلوك، ج٢، قسم ٢، ص٦٤٠-٦٤١ .

(١٠٩) الخطط، ج٢، ص٣٦، ج١، ص٤٢٥؛ السلوك، ج٢، قسم ٢، ص٦٤٠-٦٤١ .

(١١٠) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٣، ص٩٣ .

(١١١) الخطط، ج١، ص٤٢٥؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج١، ص٢٧٠؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، قسم ١، ص٥٠٠ .

(١١٢) نزهة النفوس، ج١، ص٢٢٩ .

(١١٣) صبح الأعشى، ج١٣، ص٩٣ .

(١١٤) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٦ .

(١١٥) إنباء الهصر، ص٤٤٥ .

(١١٦) السلوك، ج٢، قسم ٢، ص٦٤٠-٦٤٢ .

(١١٧) المقريزي: نفسه، ج٢، قسم ٢، ص٦٤٠-٦٤٢ .

(١١٨) النجوم الزاهرة، ج٩، ص١٧٠-١٧١ .

(١١٩) زبدة كشف الممالك، ص١٢٧-١٢٨ .

(١٢٠) الخطط، ج٣، ص٣٨٩ .

(١٢١) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١١٨؛ ابن أيبك: الدر الفاخر، ص٣١٢-٣١٣؛ المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٦٣ .

(١٢٢) المقـريزي: السلوك، ج٢، قـسم ٢، ص٦٤٠؛ ابن تغـري بردي: النجـوم، ج٩، ص١٧٠-١٧١؛ ابن الصيرفي: نزهة النفوس، ج١، ص٤٦-٤٧؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج٥، ص٩١ .

(١٢٣) الروض الزاهر، ص٢٤٢؛ السلوك، ج١، قسم ٢، ص٥١٠ .

(١٢٤) السلوك، ج١، قسم ٣، ص٧٧٨؛ النويري: نهاية الأرب، ج٢٩، ص٣٠٠، مخطوط.

(١٢٥) بدائع الزهور، ج١، قسم ١، ص٤٤٥ .

(١٢٦) المصدر نفسه، ج١، قسم ١، ص٤٤٥ .

(١٢٧) المقريزي: السلوك، ج٢، قسم ٢، ص٥٣٢؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٩، ص١٧١ .

(١٢٨) بدائع الزهور، ج٥، ص٩١ .

(١٢٩) السلوك، ج٢، قسم ٣، ص٤٧٦ .

(١٣٠) ابن رشد: بداية المجتهد ونهاية المقتصد، ج٣، ص٣٠٠-٣٠٤ .

القاهرة في عيون الرحّالة الأوروبيين

في القرن الرابع عشر والخامس عشر

شهد القرن الرابع عشر الميلادي تحولاً علي جانب كبير من الأهمية في طبيعة العلاقات بين الشرق والغرب، ذلك أنه بسقوط عكا آخر المعاقل الصليبية ببلاد الشام عام ١٢٩١م، وعدم استطاعة الغرب الأوربي إرسال حملة صليبية جديدة، فضلاً عن أنه كان من الصعب علي الغرب أن يتخلي فجأة عن فكره الحرب الصليبية تخليًا تامًا، فقد كان علي الغرب الأوربي أن يبحث عن وسيلة جديدة للقضاء علي قوة المسلمين ممثلة في دولة سلاطين المماليك، وهي قوة تقوم علي أسس اقتصادية في المحل الأول[١]. وكان أن اتجه الغرب إلي تطبيق الحصار الاقتصادي علي مصر والشام باعتباره سلاحًا قاطعًا أجدي وأنفع يتواءم مع ما آلت إليه ظروف الغرب آنذاك، وفي نفس الوقت يمكن تسليطه علي رقاب المماليك لإضعاف دولتهم، وعندئذ يفعل الصليبيون ما يحلو لهم في الشرق ويقيمون في الأراضي المقدسة آمنين.

والواقع أن فكرة الحصار الاقتصادي هذه أخذت تظهر بوضوح في تفكير دعاة الحرب الصليبية أواخر القرن الثالث عشر الميلادى، من ذلك أن أحد الرهبان ويدعي "فيد نزيو Fidenzio من بادوا Padua" والذي عاش فترة طويلة في بيت المقدس، وشهد في سنة ١٢٦٦م سقوط مدينة صفد في أيدي السلطان بيبرس البندقدارى، كما شهد بعد ذلك بسنتين محاصرة المماليك لمدينة أنطاكية، وفي سنة ١٢٧٤م طلب منه البابا جريجوري العاشر (١٢٧١م - ١٢٧٦م) أن يعد تقريراً عن الحملة الصليبية التي يقترحها فعاد إلي الشرق حيث طاف بكل من مصر وبلاد الشام وقبرص وأرمينيا

وإيران، وفي سنة ١٢٩١م سلم تقريره إلي البابا نيقولا الرابع الذي خلف جريجورى، ومن أهم ما تضمنه تقريره ما كتبه عن الحصار البحري الاقتصادي الذي يجب فرضه علي مصر والبلاد الأخري التابعة لحكام المسلمين، بحيث يكون هذا الحصار فعالاً ضد رخاء المسلمين، كذلك تحدث عن ضرورة تحويل تجارة الهند عن البحر الأحمر ومصر إلي إيران وأرمينيا، كما تحدث عن ضرورة منع تجارة العبيد من الوصول من البحر الأسود للمماليك لإضعاف جيشهم، وبينما كان يتم دراسة المشروع الذي تقدم به في روما حلت الكارثة بالصليبيين في بلاد الشام بسقوط مدينة عكا(٢).

ومع بداية القرن الرابع عشر أيضا أخذت تتكون لدي الغرب الأوروبي - بسبب الظروف السياسية والاقتصادية والدينية - قناعة بأن إرسال حملة صليبية جديدة علي غرار الحملات السابقة لا يعني سوي الانتحار بالنسبة للصليبيين، بسبب قوة سلطنة المماليك الفائقة(٣).

ولعل خير دليل نسوقه علي صحة هذا الرأي بما يثبت التطور الذي حدث في العلاقات بين الشرق والغرب، أن غالبية رحَّالة القرنين المذكورين من الأوروبيين سيطرت علي أفكارهم وكتاباتهم الفكرة القائلة بضرورة استخدام الحصار الاقتصادي كسلاح لا بديل عنه، علي الرغم مما قد يبدو من أن هؤلاء الرحَّالة قد أتوا إلى الشرق في مهمات مختلفة، تجارية أو سياسية أو بقصد زيارة البقاع المقدسة المسيحية، لكنهم كانوا بالدرجة الأولي دعاة حرب أمثال سيرجون مانديفيل، وبيرو طافور، وفيلكس فابري وغيرهم(٤) ممن سنشير إليهم في حديثنا عن نواحي الحياة المختلفة في القاهرة. وجدير بالملاحظة أيضا أنه منذ القرن الرابع عشر غدت قبرس أصلح مكان لتنفيذ فكرة الحصار الاقتصادى، ولم تلبث الحرب الصليبية أن تطورت علي أيدي القبارسة إلي نوع من القرصنة، حيث نسمع عن كثير من الإغارات التي شنَّها ملوك قبرس علي شواطئ دولة سلاطين المماليك(٥). إلي أن انتهي الأمر بسقوط الجزيرة في قبضة سلاطين المماليك عام ١٤٢٦م في عهد السلطان الأشرف برسباى. وجدير بالذكر أيضًا أن سياسة الحصار الاقتصادي لم تقتصر علي البحر المتوسط فقط، بل تعدته إلى

البحر الأحمر، الأمر الذي تطلب من الغرب الأوروبي البحث عن طريق آخر غير طريق البحر الأحمر ترد منه تجارة الشرق الأقصي إلي أوروبا دون أن تمر بالبلاد التابعة لسلاطين المماليك، والذي انتهي بنجاح "فاسكو دي جاما" البرتغالي في كشف طريق رأس الرجاء الصالح ١٤٩٧م - ٩٩، هذا فضلاً عن محاولة الغرب استغلال الحبشة لتساعدهم في قطع التجارة الواردة إلي دولة سلاطين المماليك عن طريق البحر الأحمر، وإذا كان قد قدر الفشل لمحاولات فرض الحصار عن طريق البحر الأبيض، فقد كانت محاولة منع تجارة الشرق الأقصي من المرور بمصر أكثر تأثيراً، بل لا نغالي إذا قلنا أنه كانت بمثابة الضربة القاضية ضد دولة سلاطين المماليك ومكانتها التجارية.

وخير ما يعبر عنه هذا التطور والذي أيدّه كل حكّام أوروبا العقلاء ما كتبه الرحّالة «مارينو سانودو» وهو إيطالي تجول كثيراً في بلدان الشرق، حيث زار أرمينيا وبلاد الشام ومصر، وفي عام ١٢٨٦م عاش في الحي الخاص بالبنادقة في مدينة عكا، وقضي الفترة من ١٣٠٦ إلي ١٣٢١م في جمع المعلومات المختلفة التي ضمنها كتابه عن «أحوال الأرض المقدسة» والذي ركز فيه علي أنه يجب العمل أولاً علي إضعاف مصر وإفقارها اقتصادياً، وهذا ما يمكن لبلدان الغرب الأوروبي أن تفعله دون خطر يتهددها، أو أية تكاليف باهظة سواء في الأموال أم الأرواح، فإذا تم منع التجارة عن مصر لفترة فسوف يؤدي ذلك إلي دمارها اقتصادياً وإفلاس حكّامها، وكان تصوره أن تقوم مجموعة من الأساطيل الأوروبية بفرض الحصار علي كل من دمياط ورشيد والإسكندرية، ومحاولة منع تجارة الرقيق من البحر الأسود إلي الأسواق المصرية، كذلك رأي أنه من الممكن أن يستفيد أبناء الغرب الأوروبي من تحالفهم مع الحبشة المسيحية لغزو مصر من الجنوب. كما اقترح أيضا الاستغناء عن المنتجات المصرية وذلك بزراعتها أو بدائل لها في المناطق المسيحية في البحر المتوسط، مثل القطن الذي يمكن زراعته في قبرس ورودس وكريت وصقلية ومالطة، أما فيما يختص بتجارة الشرق الأقصي فيمكن نقلها عبر ممتلكات مغول إيران وأرمينيا. ثم تأتي المرحلة الثانية بعد ذلك وهي احتلال مصر حربياً، تليها المرحلة الثالثة وهي الاستيلاء علي الأراضي

المقدسة والإقامة فيها دون خشية أي تهديد من جانب مصر[٦]، والواقع أن فكرة تحييد مصر أو إضعافها لضمان أمن وسلامة الصليبيين في بلاد الشام فكرة ظهرت منذ بداية الحركة الصليبية، ولكن وجه الأهمية في كتابات هذا الرحّالة والذي لا شك أنه كان على علم بكل المشاريع الصليبية المختلفة وتطورها نظرا لإجادته اللغتين اليونانية واللاتينية، أنها ربطت بين العامل الاقتصادي والعامل الحربى.

وعلى هذا الأساس يمكننا تفسير ظاهرة كثرة أعداد الرحّالة الذين وفدوا إلى مصر والشرق بوجه عام، والقاهرة بوجه خاص آنذاك، في ضوء المتغيرات التي طرأت علي الفكرة الصليبية ولخدمة أغراضها، هذا من جهة، ومن جهة أخري يمكن ربط نشاط أو ازدياد أعداد هؤلاء الرحّالة بمنظور يوافق متطلبات ذلك العصر بالنسبة للغرب الأوروبى، أو ما يمكن تسميته الاهتمام بالتاريخ العسكري لخدمة الاستراتيجية الغربية إن صح هذا التعبير. حيث دوّن معظم هؤلاء الرحّالة الكثير من المعلومات المتعلقة بالموانى المصرية الهامة وأسهل الطرق للوصول إليها، والتحصينات المختلفة بها، وعادات وتقاليد سكانها، وأعداد الجنود والتحصينات الحربية من قلاع وحصون وأسوار، ونظم المماليك الحربية وتكوين جيوشهم، وعوامل القلاقل الداخلية، وطرق المواصلات الداخلية، وكلها معلومات علي جانب كبير من الأهمية للمشتغلين بالتاريخ الحربى، بل أكثر من هذا أن بعض هؤلاء الرحّالة قد تغلغل داخل النظام المملوكي الحربي مثل الرحّالة سيرجون مانديفيل الذي زار مصر سنة ١٣٢٢م وظل بها حتي سنة ١٣٤١م، حيث يذكر أنه عاش في قلعة القاهرة كواحد من جنود السلطان، بل وشارك في كثير من الحروب التي شنّها المماليك ضد البدو، بل أكثر من هذا أنه يروي إن السلطان الناصر محمد بن قلاوون عرض عليه أن يزوجه إحدي الأميرات الصغيرات، بشرط أن يعتنق الإسلام لكنه رفض هذه الفكرة، ثم غادر مصر بعد ذلك في عهد السلطان كجك[٧].

والأخطر من ذلك أن بعض هؤلاء الرحّالة قد استغل فرصة تواجده بالبلاد، وحاول أن يؤلب بعض العناصر المحلية ضد السلطات المملوكية، وأن يحصل على

موافقتها علي مؤازرة الحركة الصليبية، مثال ذلك: الرحَّالة الألماني Wilhelm Von Boldensele وهو راهب من طائفة الدومينيكان، زار بلاد الشرق سنة ١٣٣٣م وأثناء تواجده في بيروت تلقي تأكيداً من الموارنة بأنهم سيحاربون جنبًا إلي جنب الصليبيين ضد المماليك في حالة قدوم حملة جديدة إلي الشرق الإسلامى(٨).

كذلك نذكر الرحَّالة «بركارد» الذي زار البلاد عام ١٣٠٨م، وعاش منتقلا بين الشام ومصر قرابة أربع وعشرين سنة، مستغلا فرصة تواجده للعمل علي نشر المذهب الكاثوليكي بين المسيحيين الشرقيين وبخاصة الأرمن، وعندما عاد إلي أوروبا، وسمع باستعدادات فيليب السادس ملك فرنسا «١٣٢٨ - ١٣٥٠» للقيام بحملة صليبية، أسرع بوضع مشروعه الصليبي وقدمه للملك سنة ١٣٣٢م، وقد شرح في مشروعه الدوافع لهذه الحملة، كما أشار إلي المحطات البحرية التي يمكن أن يفيد منها الصليبيون في البحر المتوسط مثل كريت وقبرس، فضلاً عن ذكره لأهم الطرق المختلفة الموصلة لبلاد المسلمين في الشرق، كما يتضح الجانب الاقتصادي في مشروعه حيث طالب بضرورة تنفيذ الحصار الاقتصادي ضد البلاد الإسلامية، وأن تجدد البابوية قرارها بفرض حظر التعامل مع مواني الإسكندرية، ودمياط وغيرها من الأسواق الإسلامية، وقد درس الملك فيليب مشروع «بركارد» وبدأت الاستعدادات للحملة، وبينما كان يتفقد أسطوله في مرسيليا المزمع رحيله إلي الشرق واتته الأخبار ببدء الغزو من إنجلترا والذي يُعرف بحرب المائة عام(٩).

كما يمكننا تفسير كثرة أعداد هؤلاء الرحَّالة في تلك الفترة في ضوء ازدياد محصول المعلومات الجغرافية لدي الغرب الأوروبى، ولا أدل علي ذلك من كثرة الكتابات التي وضعت طوال فترة الحروب الصليبية، والتي حوت كثيراً من المعارف عن الشرق، ومن الطبيعي أن يكون وصف الطرق المتعددة بين الغرب وبيت المقدس هو المحور الأول لتلك الكتابات، ثم وصف بلاد الشام وأحوالها ومدنها وجبالها ومسالكها وخيراتها(١٠).

كما ازدادت معلومات الغرب عن مصر من خلال ما كتبه بعض أبناء الغرب الأوربي أمثال «جوانفيل»، وعلي الرغم مما شاب تلك الكتابة من مزج بين الخرافة

والواقع، فإنه يكفي أن هذه الكتابات وأمثالها زودًت الغرب الأوربي بقسط من المعلومات عن بلاد كانوا يجهلون كل شئ عنها تقريبًا[١١] ثم إن ازدياد النشاط التجاري في حوض البحر المتوسط جعل المدن الإيطالية تهتم بجغرافية ذلك البحر، فظهرت خرائط جغرافية مفصلة لمعالم حوض البحر المتوسط في أواخر القرن الثالث عشر الميلادى، وتجلي اهتمام تلك المدن في استغلال تلك المعلومات والخرائط، إلي جانب الرغبة المتزايدة لدي أبناء الغرب الأوربي في تسيير خطوط ملاحية شبه منتظمة ودائمة بين البلدان الأوربية بعضها وبعض، وبين بلدان الشرق الإسلامي بصفة خاصة[١٢].

كذلك يجب أن نضع في اعتبارنا أن رحالة القرن الرابع عشر، والذين استفادوا من المعلومات المتاحة عن الشرق وأحواله، ومدنه، والمسافات بين هذه المدن بعضها وبعض، وتكاليف الانتقال والرحلة بوجه عام، وكذلك الخدمة المصرفية التي سهلًها لهم جماعات الداوية، قد عادوا إلي مواطنهم بذكرياتهم العالقة في أذهانهم عن مخلفات السيد المسيح والمناطق التي شهدت كل ما يرتبط بالعقيدة المسيحية، قد عبًروا عن رغبتهم من أجل استعادة الأرض المقدسة لجيرانهم وأصدقائهم سواء بالرواية أم بالكتابة، وليس من السهل أن نتجاهل تأثير مثل هؤلاء في جذب أعداد أخري إلي الأرض المقدسة[١٣].

كما يمكننا أن نضيف عاملاً آخر يتعلق بدولة سلاطين المماليك، فبحلول القرن الرابع عشر الميلادي تضاءل خوف المماليك تدريجيًا من القوي المسيحية الأوربية، مما جعل سلاطين المماليك يخففون من القيود الشديدة التي كانت تُفرض علي أبناء الغرب الأوربى، وعلي تحركاتهم واتصالهم بالمسيحيين المحليين، وليس أدل علي تلك القيود من التحذير الصارم الصادر إلي بطريك الملكانية وهم جماعة الروم الأرثوذكس بأن يمنع جماعته «من الميل إلي غريب من جنسهم»[١٤] كما كانت الوصية الصادرة إليه بعد تعيينه تحذره من الاتصال بالخارج، أو أن يأوي أحد الغرباء القادمين إليه، أو إخفاء كتب ومراسلات ترد إليه من بعيد أو قريب، وتحذره من مكاتبة الملوك أو الاتصال بالخارج[١٥]. هذا فضلاً عن بعض القيود التي فرضت علي تحركات الأحباش ورصد

كل محاولة للاتصال بهم مع الغرب الأوربى، كذلك من المعروف أن سلطنة المماليك كانت حتي أواخر القرن الثالث عشر الميلادي تفرض قيوداً شديدة علي تحركات هؤلاء الأجانب وتمنع وصولهم إلي الوجه القبلي، وكان الهدف من هذا الإجراء هو ألا يتعرفوا علي أسرار طرق التجارة مع الهند. إلا أننا تلاحظ أنه منذ القرن الرابع عشر فصاعداً خفت حدة هذه القيود، وليس أدل علي ذلك مما يرويه لنا الرحَّالة الفرنسي Ogier والذي قام برحلته إلي الوجه القبلي والصحراء الشرقية، والتي استمرت من ٢٥ نوفمبر ١٣٩٥ إلي الثاني من ديسمبر من نفس العام، والتي شاهد فيها كثيراً من الأديرة العامرة بالرهبان، كما مشي هو ومن معه علي امتداد البحر الأحمر في زيارته هذه ولاحظ أن الطريق لم يكن آمنا مثل الطريق إلي دير سانت كاترين بسبب كثرة غزوات البدو الذين كانوا يهاجمون كل الأغراب[١٦].

ولنا أن نتساءل ما الذي دفع سلاطين المماليك إلي تخفيف مثل هذه القيود؟؟ وللإجابة علي هذا السؤال نستطيع القول أنه منذ القرن الرابع عشر ازداد اتصال الشرق بالغرب الأوربى، نتيجة لازدياد النشاط التجاري بينهما، مما ساعد سلاطين المماليك علي الوقوف علي مجريات الأمور التي تحدث في الغرب، بل أنهم استغلوا بعضًا من التجَّار الذين يرسلونهم إلي الغرب للحصول علي كل ما يتعلق بالغرب من أمور، وليس أدل علي هذا مما يرويه لنا الرحَّالة سيرجون مانديفيل، من أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون اختلي به يومًا، وأخذ يبين له مساوىء اليهود والمسيحيين الغربيين، وكيف تحقق النصر للمسلمين علي الغرب الأوربى، وذكر له السلطان كثيراً من الأمثلة عن أحوال الغرب مما أدهش مانديفيل الذي سأل السلطان عن كيفية معرفته بكل أحوال الغرب بهذا الشكل، فكان رد السلطان عليه أنه يعرف كل هذا من خلال رسله الذين يرسلهم إلي كل أنحاء البلاد متنكرين في هيئة تجَّار للأحجار الثمينة، والملابس الفاخرة وكثيراً من الأشياء الأخرى، لكي يتعرفوا علي أحوال كل بلد منها، خاصة بلدان الغرب الأوربى، ثم استدعي السلطان كل أمراء حاشيته، وقدم له السلطان أربعًا من كبار أمرائه، والذين أخبروه بكل صغيرة وكبيرة عن بلده، وعن كثير

من بلدان الغرب المسيحى، تماماً كما لو كانوا من نفس هذه البلاد، وكانوا يتحدثون الفرنسية بطلاقة وكذلك السلطان مما أثار دهشته[١٧].

كذلك يبدو أن سلاطين المماليك أدركوا أن أمثال هؤلاء الرحَّالة أصبحوا يشكّلون مورداً ماليًا لا يمكن إهماله، نظراً لما يمكن أن تجبيه الدولة منهم من رسوم حج وجمارك، ويؤكد لنا هذه الحقيقة قول الرحَّالة «فان دي جوز» من أن كل واحد من الرحَّالة الفرنسيين الذين صحبوه دفع في القاهرة لكبير التراجمة خمس دوكات[١٨] فضلا عما كان يدفعه هؤلاء عند دخولهم إلي المطرية قادمين من دير سانت كاترين، حيث يذكر لنا الرحَّالة سيجوليُ أنه كان يتم دفع مبلغ أربع دوكات عن كل شخص فور وصولهم زيادة علي المبالغ الكبيرة التي كانت تحصَّل منهم نظير الإقامة هناك[١٩] بالإضافة إلي ما يرويه لنا الرحَّالة فيلكس فابرى: أنه عندما وصل ومن معه من الحجاج الألمان إلي المطرية، وأرادوا زيارة حديقة البلسم، وأن يروا شجرة الجميز الضخمة التي تذكر الروايات التاريخية أنها كانت مأوي للسيدة مريم أثناء هروبها إلي مصر، دفع كل واحد منهم ست دوكات نظير تلك الزيارة[٢٠].

أضف إلي ذلك أن زيارة القاهرة كانت لها جاذبيتها الخاصة بما حوته من متاجر الشرق المختلفة، لذلك تلاحظ أن كثيراً من هؤلاء الرحَّالة كانوا حريصين علي شراء بعض الهدايا لأهليهم وأصدقائهم في رحلة العودة، فضلاً عما كانوا يدفعونه في شراء ما يلزمهم من مؤن سواء لرحلة العودة إلي أوطانهم إذا كانوا قادمين من دير سانت كاترين، أو في شراء ما يلزمهم في رحلة الذهاب إلي سانت كاترين ومنها إلي بيت المقدس، حيث كان عليهم أن يتزودوا من القاهرة بكثير من أنوا ع الطعام المختلفة مثل: السكر والجبن والبسكويت وخلافه، فضلاً عن قراب الماء والأدوات الأخري اللازمة للرحالة[٢١].

ومع هذا فقد ظل الحظر متمثلاً في بعض الموانى ذات الاستراتيجية مثل ميناء الإسكندرية، والذي يصفه لنا الرحَّالة «جيلبرت دي لانوى» الذي زارها سنة ١٤٢١م، من أن الميناء الجديد بها كان مفتوحاً أمام سفن الغرب الأوربي المسيحى، بينما الميناء القديم كان مخصصاً لاستخدامات المسلمين فقط[٢٢]. كما ظل هذا الحظر أيضاً على

الميناء الحربي الذي يقع عند فم فرع رشيد من النهر، حيث فرضت السلطات المملوكية علي الحجَّاج الغربيين وكذلك التجَّار المسلمين أن يهبطوا في رشيد قبل الوصول إلي ذلك الميناء، ومن هناك يستأجرون الدواب لحملهم خلال الأربعين ميلاً التي تقع بين رشيد والإسكندرية(٢٣).

علي أن وجه الأهمية في كتابات هؤلاء الرحَّالة أنها حوت الكثير من المعلومات الطريفة، والتي بدت غريبة وجديرة بالتسجيل أمام أعينهم، بعكس ما رآه كثير من المؤرخين المسلمين أمرًا عاديًا ومألوفًا غير جدير بالتسجيل، ومن ثم جاءت كتابات هؤلاء الرحَّالة لتمدنا بكثير من المعلومات عن أحوال القاهرة في تلك الفترة، والتي ستساعدنا بلا شك لإلقاء بعض الضوء علي الجوانب المختلفة من حياة المدينة، كذلك يجب ألا يغرب عن بالنا أن ما أشار إليه كثير من هؤلاء الرحَّالة ربما كان مجرد إشارات عابرة في حاجة إلي توضيح، وهو ما يفرض علينا بالضرورة الاستعانة ببعض المصادر العربية المعاصرة لتفسير تلك الإشارات العابرة حتي تكتمل الصورة. كما تجدر الإشارة أيضًا إلي أنه ليس الهدف من هذا البحث هو دراسة مدينة القاهرة من ناحية جغرافية أو تاريخية أو طبوغرافية أو اجتماعية، بقدر ما هي دراسة عامة فيها نبذة موجزة عن كل هذه الجوانب المختلفة. ومع هذا ونظرا لطبيعة البحث فسوف نقسم مشاهدات هؤلاء الرحَّالة إلي نوعين من المشاهدات هما:

١- مشاهدات اجتماعية

وسائل التسلية والترفيه

من خلال مشاهدات الرحَّالة طوال القرنين الرابع عشر والخامس عشر نستطيع أن ندرك أن سكان القاهرة كان لهم ولع خاص بوسائل التسلية المختلفة، ومن الطبيعي أن تختلف هذه الوسائل باختلاف أحوالهم الاقتصادية والاجتماعية، فقد روي لنا الرحَّالة فيلكس فابري والذي زار المدينة ١٤٨٣م: أن منزل كبير التراجمة كان يحتوي

علي مجموعات من الطيور والحيوانات النادرة، سواء الأليفة أم المتوحشة، مثل: النعام والببغاوات والأسود والدببة، كل هذا في فناء المنزل، كما شاهد بعض المصريين يقومون في منزله ببعض الألعاب المسلية والحيل مستخدمين الدببة والزراف والأسود في أداء ألعابهم، وهو ما يشبه إلي حد كبير بعض ألعاب السيرك في عصرنا الحديث(٢٤). ومهما قيل عن أن هذا المنزل كان معداً لاستضافة الرحَّالة الأجانب والحجَّاج الغربيين، وربما كان الهدف من ذلك هو تسليتهم، إلا أنه من الثابت أن كبير التراجمة كان كثيراً ما يستضيف كبار الأمراء والتجَّار والأعيان في منزله أيضًا، خاصة عقب عودته من رحلة إلي الخارج حيث يقيم الولائم وفي الختام يسمح لكثير من العامة بالدخول وتناول ما يتبقي منها حسبما يؤكد لنا الرحَّالة مارتين بوم جارتن(٢٥).

كما يحدثنا كثير من الرحَّالة عن رؤيتهم لبعض الحيوانات التي اعتبروها غريبة في ذلك العصر حيث لم يألفوا رؤيتها لديهم في الغرب الأوربى، مثل: الزراف والفيلة والثيران الهندية، ويبدو أنه كانت تخصص كثير من الأماكن في المدينة كي توضع فيها هذه الحيوانات، بما يشبه حدائق الحيوان في وقتنا الحالى، أو في بعض الدور التابعة لبعض الأمراء للقيام برعايتها وخدمتها، فضلاً عن تدريبها علي القيام ببعض الألعاب المسلية وكثيراً ما كان الناس يتوجهون لزيارة تلك الأماكن للفرحة والتسلية ولقضاء بعض الأوقات الممتعة، كذلك يبدو أن السلطات المملوكية قد حرصت علي السماح لكل الرحَّالة الأجانب بزيارة تلك الأماكن. فالرحَّالة بيرو طافور يذكر لنا: أنه عقب زيارته للأهرامات «فلما كان اليوم التالي ذهبنا لمشاهدة المكان الذي يحتفظون فيه بالفيلة فرأينا منها سبعة... ويظهر أن هذه الحيوانات ذكية جداً، فهي مدربة علي القيام بالحيل والألعاب، وتعمد في بعض الأحيان إلي ملء خراطيمها بالماء وترش به أي شيء أرادت، كما أنها تلعب بالرمح وتقذفه في الجو ثم تمسكه، كما تقوم بألعاب أخرى. وإذا كان الجو حاراً أخذها القوم عند ابتلاج الفجر ودفعوها إلي النهر لتبترد وإلا عجزت عن كبح جماح نفسها، وجلدها سميك جداً، وإذا جرحت وضعوها حيث يشرق القمر عليها فتبرأ في اليوم التالي. ويحمل سائقوها شوكة حديدية مثبتة إلي مدراة يضربونها بها خلف آذنها، ويوجهونها أني أرادوا.... (٢٦)

صيد التماسيح:

كذلك استرعى انتباه كثير من الرحالة ولع أهل القاهرة بصيد التماسيح من نهر النيل، ومن المؤكد أن كثرة التماسيح في النهر آنذاك هي التي شجعتهم علي ممارسة تلك الهواية، فضلاً عن الفوائد الاقتصادية التي كانوا يحصلون عليها من وراء صيد هذه الحيوانات، والتي يذكر الرحالة فيلكس فابري بعضها بقوله: «أنه كان يصنع كريم خاص للوجه من روث التمساح، والذي تستخدمه النساء بكثرة لإزالة تجاعيد الوجه ولتحسين البشرة كذلك كان يستخدم جلده الغالي الثمن في أغراض عديدة...» (٢٧).

كذلك يذكر لنا المقريزي بعض الاستخدامات الطبية التي كانت معروفة وشائعة في ذلك العصر، والتي ربما شجعت علي كثرة اصطياد تلك التماسيح حيث يقول: «.. وإذا عض التمساح إنسانًا، فوضع علي العضة شحم التمساح، برأ من ساعته.. ومرارته يكتحل بها للبياض في العين فيذهبه.. وزبل التمساح يزيل البياض من العين الحديث والقديم، وإن قلعت عيناه وهو حي وعلق علي من به جذام أوقفه.. وشحمه إذا قطر بعد أن يذاب في الأذن الوجعة نفعها، وإن أدمن تقطيره في الأذن نفع من الصمم، وإذا دهن به صاحب حمي الربع سكنت عنه...» هذا إلي جانب بعض الاستخدامات الأخري خاصة لعلاج بعض الأمراض التناسلية لدي الرجال(٢٨).

أما الرحالة بيرو طافور فيحدثنا عن طريقة صيد هذه التماسيح بقوله: «فإن أراد أحد قتلها استل حربة تنتهي بسهم ذي شوكات تنغرز في اللحم إذا دخلته وتمسك به، ويربط طرف الحربة الآخر بحبل يبلغ طوله ما بين مائة وخمسين قامة، فإذا قارب الصائدون الحيوان ضربوه تحت ضلوعه وهي النقطة الوحيدة المكشوفة التي فيها هلاكه، فينغرز فيها الحديد، حين إذٍ يشدون عليه الحبل شدًا عنيفًا، فلا يكاد وإذ الحيوان يحس بالإصابة حتي ينفلت إلي الماء فينهكه الحبل حتي تنحل قواه، حين إذٍ يسحبونه إلي الشاطئ ويحملونه ويسيرون به في المدينة يلتمسون الصدقات، شأنهم في ذلك شأن أهل قشتالة حين يقتلون أحد الذئاب... (٢٩).

كذلك استخدم أهل القاهرة كثيرًا من أنوا ع الحيوانات بعد تدريبها علي الإتيان بكثير من الحركات والألعاب المسلية المضحكة، وكانت تخصص بعض الأماكن التي يتجمع فيها الناس واللاعبون والحواة مدربو الحيوان مثل الأزبكية وميدان القلعة وغيرهما من الأماكن، ويبدو أن هذه الحيوانات كانت معروفة لدي الرحَّالة الغربيين لذا لم يتحدثوا عنها، إلا أن المصادر العربية تشير إلي بعض الحيوانات التي استخدمت في وسائل التسلية آنذاك، فالرحَّالة المغربي العياشي الذي زار المدينة عام ٩٠٧هـ يصف لنا ما رآه خارج القلعة بقوله: «... وهناك خلق من المصريين يلعبون في سائر الأيام كأنوا ع المشعوذين وأصحاب القرود، ومن ضاهاهم من أصحاب اللعب بأنوا ع الحيوانات: كالدُب والحمير والتيوس والكلاب... وبالجملة فأهل مصر لهم ذكاء زايد، وحيل غريبة، قد سخَّر لهم أنوا ع الحيوانات، فقليل من أصناف الحيوانات ما لا يوجد عندهم مسخرًا...» (٣٠).

كذلك كان نهر النيل من الأماكن المفضلة لدي أهل القاهرة كبارًا وصغارًا لقضاء بعض الأوقات في النزهة والتسلية خاصة في فصل الصيف، فعادة ما يخرج الكبار للتمتع بالحدائق والأشجار والحشائش والأزهار علي شواطئه أو لاستئجار بعض القوارب، ويبدو أن أهم الضواحي التي كانت تطل علي النيل آنذاك، والتي جذبت الكثيرين من سكان المدينة هما ضاحيتي بولاق ومصر العتيقة لكثرة ما بهما من حدائق وبساتين مطلة علي النيل، فضلاً عن كونهما من الأماكن التي يقصدها كثير من السلاطين وكبار الأمراء والذين يمتلكون أعدادًا كبيرة من القوارب والسفن المزدانة والتي تتناسب مع مكانتهم، فضلاً عن الأعداد الكبيرة من التجَّار والأعيان الذين يخرجون في المواسم والمناسبات إلي النيل في قواربهم المختلفة والتي كانت تملأ سطح النيل بأكمله(٣١). أما الصغار فحسبما يروي لنا الرحَّالة فريسكو بالدي يبدو أنه كانت لهم وسائلهم الخاصة للاستمتا ع بقضاء بعض الأوقات علي شاطئ النهر حيث يروي أنه شاهد عددًا كبيرًا من البنين والبنات واقفين علي شاطئ النهر والذين كانوا يطلبون من كل من يبحر أن يلقي ببعض حبات الليمون في الماء، حيث يتسابق هؤلاء الأطفال

في الغطس والسباحة والإتيان بذلك الليمون، وكانت هذه هي إحدى وسائلهم في قضاء بعض الوقت في مرح وسرور(٣٢).

تربية الطيور واستخداماتها:

ومن الأشياء التي لفتت أنظار بعض الرحَّالة في القاهرة وجود أعداد كبيرة من طائر الحمام، فيروي لنا الرحَّالة «سيجولىَ»: أن أول ما استرعي انتباهه وجود أعداد ضخمة منه، وهو يعيش في منازل وفي كل شبّاك من شبابيك منازل القاهرة، فليس هناك شبَّاك إلا وتجد به عشًا لهذه الطيور، كما جرت عادة المسلمين ألا يصيدونها لأنهم لا يأكلون لحومها، كذلك يعتقدون أنه من الإثم العظيم إيذاء تلك الطيور، لأنها لا تضر أحدًا ولذا فهي كثيرة العدد(٣٣). والحقيقة أنه لم يذكر لنا السبب في تربية تلك الأعداد الكبيرة منها، كذلك لم أجد في كثير من المصادر المعاصرة ما يفيد إقبال الناس علي أكل الحمام في تلك الفترة سواء أهل القاهرة أم حكَّامها من سلاطين وأمراء المماليك(٣٤). كذلك لم نسمع عند أحد الرحَّالة وخاصة الذين تحدثوا عن أنواع الأطعمة التي شاهدوها وخاصة من الطيور من ذكر الحمام كما يرجح أن تربية الحمام بهذه الكثرة كان لأغراض أخري غير الأكل. ويفسر لنا المقريزي السبب في ذلك وهو قيام بعض سكان القاهرة ببناء ما يسمي «بالغية» فوق أعلي منازلهم، حيث يقومون بإطلاق أسراب الحمام منها والتمتع بمنظرها وهي تحوم في السماء في مجموعات كبيرة فوق المنازل، وخاصة قبيل الغروب في أحياء القاهرة القديمة مثل: حي الجمالية والسيدة زينب والقلعة وغيرها من الأحياء، بل يذكر لنا أن بعض السلاطين صار يجتمع، «ومطيري الحمام، فكان يقف معهم يراهن علي الطير الفلاني والطيرة الفلانية... (٣٥). هذا إلي جانب كثرة استخدام أنواع الحمام الزاجل في المراسلات لدي سلاطين المماليك، وكانت بعض أقفاص هذا النوع من الحمام تلازم السلاطين حتي في رحلات صيدهم ونزهاتهم، ويذكر لنا الرحَّالة الألماني شيلتبرجر كيفية تدريب هذا النوع من الحمام لاستخدامه بقوله: أن أول خطوة كان يتم اتخاذها بوضع ذكر وأنثى من

هذا النوع معا في قفص واحد، وتتم إضافة السكر لطعامهما، وبعد فترة مناسبة يتم إخراج الذكر، وعليه علامة تحدد سكنه وموطنه، ثم يتم وضعه في قفص منعزلاً، بعيداً عن الإناث ومنعه كذلك من وضع السكر في طعامه، كل هذا حتى تكون لديه الرغبة في العودة بأقصي سرعة ممكنة للمكان الذي كان يعيش فيه من قبل وحيث تم تدريبه[٣٦].

وتجدر الإشارة إلي أن الاهتمام بتربية الطيور لم يكن قاصراً علي أنواع الحمام فقط، بل تعداه إلي أنواع أخري من الطيور مثل القماري والهزازات والشحارير والببغاوات والسمان وغيرها، وتنافس كثير من الناس علي اقتنائها حتي كان يطلق عليهم «غواة طيور المسموع ...» والذين بلغ بهم الترف أن يتأنقوا في أقفاصها وتغالوا في أثمانها حيث نسمع: «أنه بيع طائر من السمان بألف درهم فضة عنها يومئذ نحو الخمسين ديناراً من الذهب كل ذلك لإعجابهم بصوته[٣٧] ومما شجع علي تلك الهواية أن كثيراً من الطيور الحسنة الصوت كانت متوفرة في مصر وخاصة في الصعيد، بحيث يحمل منها إلي البلدان الأخري في المشرق والمغرب[٣٨].

وإلي جانب استخدام بعض هذه الطيور في المناقرة والمقامرة كما سبقت الإشارة بذلك، فإن بعض الأشخاص استخدموا بعضاً من الطيور في معرفة الطالع، حيث كان يفترش بعض ما يمكن تسميتهم «بالمنجمين» الأرض في حدائق الأزبكية ليكشفوا عن الطالع لأحد الأشخاص باستخدام الطير، وكان علي من يرغب أن يقرأ أحدهم له طالعه أن يعطي الطير بعض النقود «الفلوس» فيلتقطها الطائر بمنقاره، وبعد أن يودع المبلغ في صندوق صغير، يلتقط ورقة كتب فيها الطالع، وكثيراً ما يكون مخيبا للآمال[٣٩].

كذلك تجب الإشارة إلي أن سكان القاهرة اهتموا بالتفريخ الصناعى، وكانت مهارتهم فيه حديث السياح الذين زاروا القاهرة طوال الفترة التي نتحدث عنها، فهم لم يكتفوا بالتفريخ الطبيعي المعروف في سائر البلاد، بل استعاضوا عن ترقيد الطيور للتفريخ بالطريقة الطبيعية المعروفة بطريقة أخري صناعية، ولا تختلف الكتاكيت التي يحصلون عليها بهذه الطريقة الطبيعية في شيء أبداً، وجدير بالذكر أن هذه الطريقة قد

توارثوها عبر أجيال، حيث كانت شائعة لدي قدماء المصريين[٤٠]. ولقد جذبت معامل التفريخ هذه أو معامل «ترقيد الفروج» كما كان يُطلق عليها في ذلك العصر انتباه كثير من الرحالة، حيث اعتادت نساء المدينة أن يحضرن إلي تلك المعامل ما لديهن من بيض الدجاج والبط والأوز، حيث يوضع ذلك البيض في أفران خاصة يعملون علي جعلها دائمًا موقدة، حيث يقومون بتغطية البيض بروث البهائم، ثم تحضر النساء بعد ثلاثة أسابيع أو شهر ويتسلمن الفراريج، ويقمن بتربيتها من جديد، ثم يحضرن بيضها بعد ذلك لنفس الغرض، ولهذا فإن البلاد مليئة بالدجاج والأوز والبط»[٤١] ويبدو أن هذه المعامل كانت موجودة بكثرة في المنطقة الواقعة بين القاهرة و «مصر العتيقة» حسبما يروي الرحَّالة بيلوتي الكربتى[٤٢]. أما الرحَّالة فيلكس فابري فيروي: أنه عندما اتجه هو ومجموعة من الحجاج الألمان الذين كانوا بصحبته إلي هذه المنطقة، عرفوا بوجود معمل للتفريخ وطلبوا زيارة هذا المكان وإن كان الحظ لم يحالفهم لأن الوقت لم يكن أوان التفريخ، وعندما اقتربوا من المكان حضر إليهم أحد الرجال المسنين من المسلمين وأخبرهم أن الوقت وقت راحة، وأنه في شهور الصيف يُحضرن النساء البيض إلى ذلك المعمل وكان يشترط فيه أن يكون جيداً وطازجًا، وهذا المعمل كان عبارة عن طابقين، في الطابق العلوي كان يتم وضع البيض في فتحات صغيرة مستديرة الشكل، ويغطي جيداً بالروث - وهنا تجدر الإشارة إلي أن استخدام روث البهائم من الناحية البكتريولوجية يؤدي إلي رفع درجة حرارة البيض نتيجة للتخمرات البكتيرية، وربما قد توصل الناس آنذاك إلي ذلك عن طريق الممارسة - كما يذكر أنه في الطابق السفلي من الفرن كان يوجد به النيران المتدرجة في الحرارة، بحيث يعمل كل من الروث والنيران مع حرارة جو البلاد علي تفريخ ذلك البيض، وفي نهاية فترة تتراوح ما بين اثني عشر يومًا وخمسة عشر يومًا تخرج الكتاكيت والتي يتم تسليمها لإحدي السيدات لترعاها وتغذيها، ثم تتم المناداة بأنه تم الفقس وسيتم تفريغ المعمل مما به في يوم محدد، حيث تأتي النساء لتسلم ما لهن من كتاكيت[٤٣] ويؤكد لنا السيوطي أن العمل كان يتم في هذه المعامل وفق أساليب وخبرة ودراية فائقة حيث يقول: «... ويعمل بها البيض بصنعة، ويوقد بنار يحاكي نار الطبيعة في حضانة دجاج البيض... »[٤٤]

والحقيقة أنه لم تذكر لنا المصادر المعاصرة كيفية محاسبة أصحاب البيض، فهل كان يتم الاحتفاظ بعدد من الكتاكيت لصاحب المعمل لتغطية النفقات كما هو متبع منذ القدم[٤٥] أم كان يتم تحصيل بعض الأموال نقداً نظير ذلك.

بعض عادات أهل القاهرة:

ومن المشاهدات الطريفة ما ارتبط ببعض عادات أهل القاهرة وحياتهم اليومية حيث جرت عادة الناس ألا يطبخوا طعامهم في منازلهم، وإنما يحصلون علي كل ما تشتهيه الأنفس من الأسواق لدي الطباًخين الذين يقومون بإعداد كثير من الأطعمة ليلاً ونهاراً في أواني كبيرة من النحاس، وقد بلغ عدد المطابخ أكثر من أربعين ألف مطبخ[٤٦] بالإضافة إلي ما يرويه لنا الرحّالة بيرو طافور: «من أنه كان لكل حاجة تجّارها في الشوارع يسألون عما إذا كان ثمة من يحتاج إليهم، حتي أن الطباخين ليغدون جيئة وذهاباً حاملين المواقد والنيران وأطباق المحشي المعدة للبيع، علي حين تري سواهم حاملين صحاف الفاكهة[٤٧].

والحقيقة أنه وُجد في ذلك العصر نوعان من المطاعم: المطابخ التي كان الطباخون يعدّون فيها الأطعمة التي يبيعونها لحسابهم، وحوانيت «الشرائحيين»، أو الشرائحية «والتي كان الناس يرسلون إليها ما يريدون طهيه من لحوم وخضروات وغيرها، ويقوم الشرائحية بطهيها بعد خلطها بالتوابل وغيرها، ثم يرسلونها مع صبيانهم إلي المنازل في قدور مغطاة، وذلك مقابل أجر معين يأخذونه من زبائنهم[٤٨] هذا إلي جانب وجود كثير من الباعة الذين كانوا يفترشون الأرض في الشوارع والأسواق، وبجوار الجوامع وأمامهم شتي صنوف الطعام التي يبيعونها للناس[٤٩]. أما الخبز، فكان منه ما يباع جاهزا في الأسواق، ومنه ما يعجن في البيوت ثم يُرسل إلي الأفران، كما كان بعض الناس يخبزون في الفرن مشاهرة، علي حين كان البعض الآخر يدفع نقداً في كل مرة. والجدير بالذكر أن «الخباز» في ذلك العصر كان يعني من يصنع الخبز لبيعه في السوق، أما «الفران»: فهو الذي يخبز الخبر الخاص بالبيوت لقاء أجر معين[٥٠].

ومن عادات أهل القاهرة ما ارتبط بشهر رمضان خاصة في الليل حيث يصف لنا الرحَّالة «فيلكس فابرى» أن الناس في كل مكان في القاهرة قد خرجوا ومعهم العديد من المصابيح والقناديل والشموع، كما لو كان العالم كله في احتفال مهيب، ولم يكن هذا الموكب في أحد شوارع القاهرة فقط بل في كل شوارع المدينة[٥١] والمقريزي في حديثه عن سوق الشماعين الذي كان يشهد رواجًا هائلاً في رمضان يعرض لنا وصفا رائعا لأنواع الإضاءة التي كانت تتم في القاهرة من «شموع موكبية» و«فانوسية» و «طوافات» ومن الشمع الذي يُحمل علي عجل ويبلغ وزن الواحدة منها القنطار وما فوق كل ذلك يوصف مواكب الصبيان لصلاة التراويح وبما يعكس لنا مدي ثراء الناس في القرن الرابع عشر وحتى منتصف القرن الخامس عشر، إلا أنه يلاحظ أن كثيراً من مظاهر هذا الثراء تلاشت بسبب ما ألمَّ بالبلاد من أزمات اقتصادية وأوبئة وطواعين وما نجم عنها من آثار اقتصادية، وخير ما نستشهد به علي ذلك قول المقريزي نفسه: «وقد تلاشي الحال .. بفقر الناس وعجزهم ....» [٥٢].

أما عن عملية «التسحير» فيروي لنا الرحَّالة «سيجولى»: أنه شاهد المسحراتي والذي أعتقد أنه أحد رجال الدين المسلمين، حيث كان يمر ثلاث مرات في الشوارع ليلاً ومعه طبلة يدق عليها، منادياً الناس بأسمائهم كي ينهضوا من نومهم، ويتناولوا سحورهم، كذلك يروي: بأن الطباخين طوال شهر رمضان يبقون في محلاتهم طوال الليل كي يبيعوا اللحوم وكل ما تشتهيه الأنفس.

ومن العادات الطريفة والتي تعكس لنا مدي ثراء أهل القاهرة وبخاصة في القرن الرابع عشر الميلادى، ما يرويه لنا الرحَّالة سيجولى، حيث يؤكد لنا أن أهل القاهرة رجالاً ونساءاً كان لهم ولع خاص باستخدام الطيب من الروائح، حيث يذكر: أنه التقي مع أحد تجَّار الفرنج من مدينة كانديا Candia والمقيم بالقاهرة، والذي أخبره شيئا عجيبًا حقًا، من: أن الرجال والنساء في القاهرة ينفقون في اليوم الواحد في شراء الأعشاب العطرية والورود التي يضعونها علي صدورهم، وفي شراء المسك وماء الورد وبعض أنواع الزينة التي يستخدمونها ثلاثمائة بيزنت ذهبًا أي ثلاثمائة دينار ذهبى[٥٣].

بعض طرق معالجة الأمراض:

كذلك يذكر لنا بعض الرحَّالة بعضًا من العادات المتعلقة بشفاء بعض الأمراض التي عرفها أهل القاهرة: من ذلك أنه جرت العادة لدي كثير منهم في حالة شعوره بتعب أو مرض أن يتوجه إلي شجرة الجميز التي آوي إليها المسيح بالمطرية وينام بداخلها قليلاً فيشفي مما به من آلام، وذلك لاعتقادهم الكبير في قدرتها علي الشفاء وبركتها(٥٤). فضلاً عن أن حديقة البلسم المزروع بجوارها والتي كان السلطان يستأثر بإنتاجه، حيث يستخدم في علاج كثير من الأمراض: مثل اضطرابات الجهاز التنفسي وأمراض الأنف، واللمباجو، وآلام المفاصل، بينما كان الغربيون يستخدمونه علي نطاق واسع في علاج الصداع والتسمم وغيره(٥٥). فضلاً عما يرويه الرحَّالة اليهودي موشلام بن مناحم الفولتيري من أن أهل القاهرة كانوا علي دراية بمعالجة الإصابات الناجمة عن بعض الحشرات، حيث نصحوه عندما عزم علي زيارة بيت المقدس أن يأخذ معه بعض الليمون، حيث ستخرج عليه أسراب من حشرات موجودة في رمال الصحراء منها حشرة تسمي «قملة فرعون» والتي يبلغ طول الواحدة منها ضعف طول الذبابة، لونها أحمر ولا علاج للدغتها غير عصير الليمون الذي يمنع الجروح من أن تتقيح، ولولا عمله بنصيحة بعض أهل القاهرة لعاني كثيراً من هذه الحشرة(٥٦).

ومن العادات ما ارتبط بالأفراح وحفلات الزواج وما يرويه لنا الرحَّالة سيجولي، حيث يصف عرسًا لدي المسلمين بالقاهرة فيقول: في الليلة التي تسبق القران فإن كثيراً من الحمالين يذهبون إلي منزل العروس حيث يرسل العريس - حسب إمكانياته - إلي منزل الزوجية شخصًا يحمل السرير وأواني وأباريق دمشقية الصنع، وهي في الحقيقة من أجمل ما يصنع في العالم. وشخصًا آخر يحمل الكتان، وآخر يحمل صناديق الثياب جميلة الصنع، بحسب مكانة العروس، كما يذهب الحمَّالون محملين بالأثاث. وفي الليل تتجمع كل النساء من الأقارب والجيران في منزل العروس، ويقمن بخلع ملابسها ويجعلنها تدور في وسطهن، حيث تقوم كثير من النساء بتجميلها وتزيينها، حيث ينقشن كثيراً من أشكال الزينة لها، ثم يقمن بإلباسها أجمل الثياب ذات

الألوان الخلابة، والتي تختلف من امرأة لأخري بحسب مكانتها ومكانة العريس، وعادة ما ترتدي العروس سبع حُلل في تلك الليلة من القطن الأبيض، والذي يعتبر من أجمل أقطان العالم وأحسنها، وكانت هذه الحُلل تبدو وكأنها من الحرير الأبيض الناصع. ثم يذهبن معها إلي منزل الزوجية، حيث تأخذ العروس سيفًا معقوفًا جيد الحد، تعطيه للعريس، ثم تسحبه من غمده وتسلمه له. وفي إحدى القاعات الفسيحة بالمنزل عادة ما يوجد سرير مكون من ست أو ثمان حواشي واحدة فوق الأخرى، ومغطي بمفرش جميل من الحرير، تجلس عليه العروس وتلتف حولها النساء بالرقص واحدة تلو الأخرى، وقبل أن ترقص الواحدة منهن، تتجه نحو العروس وتقدم لها بعض الهدايا بحسب مقدرتها، وعادة ما تكون بعض المبالغ النقدية أو إحدي الهدايا الذهبية كقرط أو عقد أو خلافه، وتقوم بوضعه علي جبهة العروس ثم تبدأ في الرقص، وتأخذ العروس هذه الهدية وتضعها في إناء مجاور لها وعندما تنتهي واحدة من رقصها تقوم أخري وهكذا(٥٧). إلا أن المقريزي في حديثه عن سوق «الكفتيين» يعطينا صورة واضحة لشوار أو جهاز العروس حسب مصطلحنا الحديث في ذلك العصر والذي يدل علي مدي ثراء أهل القاهرة بوجه خاص طوال القرن الرابع عشر وحتي منتصف القرن الخامس عشر، كما أنه يشير إلي حدوث بعض التغيرات في هذا «الشوار» بما يفيد سوء الأحوال الاقتصادية التي أخذت تمر بها مصر بوجه عام منذ منتصف القرن الخامس عشر أو التي ظهرت آثارها بوضوح في تلك الفترة(٥٨).

ومن الاحتفالات العائلية التي لفتت أنظار بعض الرحّالة ما كان يقام بمناسبة ختان أحد الأطفال، حيث يذكر لنا الرحّالة «مارتن بوم جارتن» أنه شاهد بعض السكان وهم يحتفلون بإحدي المناسبات وهم يرقصون، وكان هناك حشد كبير منهم، وهم وقوف فيما عدا واحد فقط كان جالسًا علي ظهر حصان في وسطهم وبذلك فهو يعلو الجميع، وعندما استفسر عن ذلك أخبروه أن هذا الشخص قد تم ختانه ذلك اليوم وأن الناس يحتفلون به بهذه المناسبة، ويذكر أن المصريين مثلهم مثل باقي المسلمين لا بد وأن يختتنوا قبل أن يصل الواحد منهم سن الثالثة عشر من عمره، وفقًا للشريعة الإسلامية(٥٩).

كذلك يذكر لنا الأب «سوريانو» بعضا من عادات أهل القاهرة الخاصة بزيارة القبور حيث اعتادت النساء أن تذهب إلي المقابر حاملة معهن الريحان والزهور ويقمن بوضعها حول القبور مساء يوم الخميس أو ظهر يوم الجمعة(٦٠). كما يذكر لنا الرحّالة «بوم جاتن»: أن سكان المدينة اعتادوا في أحزانهم أن يلطخّوا أنفسهم بالروث والقذارة عندما يبكون موتاهم، كذلك جرت عادتهم أن يدفنوا موتاهم إما داخل بعض المنازل أو في المقابر(٦١). والحقيقة أننا لم نسمع في المصادر المختلفة بمثل هذا التعميم، فالمعروف أن النساء كن يقمن بتلك الأعمال لإظهار حزنهن، وهي عادة لم تزل حتي الآن تشاهد عند قلة من الناس، أما ما ذكره عن دفن الموتي في المنازل فربما يقصد بذلك دفن بعض الموتي في القباب أو الربط والخوانق أو الزوايا التي كانت تخصص للصوفية، ويدفن فيها واقف المبني الذي كان يشترط أن يقوم الصوفي بتلاوة بعض آيات القرآن وإهدائها لروح الواقف.

فيضان النيل:

ومما استرعي انتباه بعض الرحّالة الكيفية التي كان يتم بها المناداة علي زيادة نهر النيل حيث كان يخرج عدة من الخيّالة يرفعون الأعلام فوق أكتافهم، ويتجهون نحو مقياس النيل عند جزيرة الروضة لمعرفة مقدار الزيادة، ثم يسيرون خلال شوارع المدينة معلنين عن الزيادة ذلك أثناء موسم الفيضان، وعندما يصل منسوب المياه إلي المستوي المطلوب لري الأراضي، كان يقام احتفال كبير بهذه المناسبة(٦٢). وجدير بالذكر أن هؤلاء الخيّالة هم الذين أطلقت عليهم المصادر العربية اسم «مناديو البحر» والذي كان واجبهم الأساسي نقل أخبار زيادة النهر اليومية أثناء موسم الفيضان إلي عامة الناس(٦٣). حيث جرت العادة أن يؤخذ قاع النهر في السادس والعشرين من شهر بؤونة، ثم يقوم صاحب المقياس بقياس مقدار الزيادة عصر كل يوم بعد ذلك، وفي الصباح يخرج المنادون يعلنون مقدار زيادة النهر بالأصابع فقط دون التصريح بعدد الأذرع(٦٤) وذلك لعدم بث الخوف والهلع وخاصة إذا كان النهر ناقصاً، في نفس الوقت

يقوم صاحب المقياس بكتابة بعض الرقاع إلي أعيان الدولة بمقدار الزيادة في ذلك اليوم من الشهر العربي موافقته من الشهر القبطى، وعدد الأذرع التي وصلت إليها الزيادة، وحين يكمل النهر ستة عشر ذراعًا وهي علامة الوفاء يبدأ «مناديو البحر» في التصريح بعدد الأذرع، كما كانت تحيط باحتفالات وفاء النيل، وكسر الخليج كل مظاهر الفخامة والعظمة التي ميزت تلك الفترة، بحيث تكون ليلة وفاء النيل من الليالي العظيمة بمصر والقاهرة، ويوقد فيها الأهالي القناديل والشموع ويتحول ليل القاهرة إلي نهار من كثرة الأضواء(٦٥).

المشاهدات :

ويروي لنا الرحّالة اليهودي موشلام بن مناحم الفولتيري بعضًا من عادات أهل الذمة خاصة اليهود حيث يقول: وعندما يريدون إظهار نوع من التكريم لأي شخص فإنهم يحضرون بعض النبيذ القوى، وعليك أن تشرب مرتين قبل أن يقدموا لك أي شئ لتأكله من الفاكهة، كما إنه عليك أن تشرب في صحة كل الموجودين حولك، وكل واحد يشرب يقول لجاره في صحتك ويأخذ حبة فاكهة ويضعها في يده ويقول له «بالهناء والشفاء»، ويقوم كل الحاضرين بهذا العمل بالتناوب، وعلي الواحد منا أن ينتظر نحو الساعتين قبل أن يتناول الطعام، وإذا لم تشرب معهم اعتبروا ذلك إهانة للمضيف(٦٦) كذلك يذكر الرحّالة اليهودي عوبديا والذي وُجد في القاهرة حوالي سبعمائة عائلة يهودية أن من عادة اليهود أن يظهروا أنهم فقراء في البلاد، وهم يتجولون كشحاذين، يتواضعون أمام المسلمين، وهم ليسوا كرماء بالرغم مما لديهم من ممتلكات كثيرة وقطع الذهب(٦٧).

أما الرحّالة «بيلوتى» فيحدّثنا عن طبائع سكان القاهرة بوجه عام فيقول: وهنا يجب أن يذكر ما يتصف به سكان القاهرة من دماثة الخلق، والتي تتجلي في تعاملهم بعضهم مع بعض بطريقة حسنة، كما يؤكد أن الطبيعة قد أثرت في سلوكيات وأخلاق

السكان، فهم يميلون دائما إلي المسالمة والموادعة ويبتعدون عن العنف، وهم علي جانب كبير من الظرف، معتدلون في كل شيء، خاصة في مساكنهم، وليسوا شديدي الانفعال والتأثر، كما أنهم يتعاملون بتعاطف شديد وحرارة مع من يقابلهم، وهم في رقتهم وعذوبتهم مثل الماء السلسبيل، لذا فهم يعيشون في سعادة يفتقدها الكثيرون[٦٨]. ويؤكد لنا الرحّالة «فريسكو بالدى» ما سبق وذكره «بيلوتى» عن سكان القاهرة بقوله: وأحيانا يتشاجرون – يقصد الرجال – ولدرجة أنه يبدو لك أنهم علي وشك أن يمزقوا بعضهم بعضًا إربًا، ولكن عندما ينادي أي شخص قائلاً: «استغفروا الله» ففي الحال تنفض المشاجرة وكأن شيئًا لم يكن[٦٩].

ومن الأشياء التي لفتت أنظار كثير من الرحّالة في تلك الفترة كثرة أعداد الأسري والعبيد والجواري في القاهرة، وقد دهش كثير منهم عند مشاهدته لأسواق العبيد في القاهرة والتي خصص البعض منها للعبيد السود والأخري للبيض، وشاهدوا كيفية اختبار العبد منهم لمعرفة قدرته علي الكلام والسمع والإبصار، كما كان يتم خلع ملابسه لفحص ما قد يوجد به من عيوب جسمانية، كذلك كان يتم إجباره علي المشي أو الجري أو الانحناء، ثم بعد ذلك تتم عملية المساومة بين المشتري والبائع حول سعر العبد، وعندما يتم بيع أحدهم ويستعد للانتقال مع مشتريه فعادةً ما تحدث بعض الصيحات والبكاء من بعض العبيد الآخرين[٧٠]، بينما يذكر البعض الآخر من الرحّالة أنه كانت تراعي في عمليات البيع أن يكون الزوج مع زوجته، والأم مع أولادها غالبًا[٧١]. إلا أننا نرجح أن يكون مثل هذا الاستثناء من الحالات النادرة وكان يخضع لمشيئة المشتري أولاً وقبل كل شيء. كذلك تجب الإشارة إلي أن أعداد الأسري بوجه خاص أخذت تتزايد بشكل ملحوظ منذ بداية القرن الرابع عشر، حيث يذكر المقريزي: أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون أكثر من الأسري من بلاد الأرمن وغيرها وجلبهم إلي مصر، وأنزل عدة كثيرة منهم بقلعة الجبل، وجماعة أخري بخزانة البنود، فملأ أولئك خزانة البنود حتي بطُل السجن بها، وعمَّرها السلطان مساكن لهم، وتوالدوا بها[٧٢].

وجدير بالذكر أن هؤلاء الأسري والخدم والعبيد قد لعبوا دورًا خطيرًا في حياة مجتمع القاهرة في تلك الفترة، فعلي الرغم مما تشير إليه المصادر المعاصرة من أنهم استخدموا في تشييد كثير من المباني الخاصة بالسلاطين والأمراء، وأن البعض منهم استخدموا في الدور السلطانية، وفي الإشراف علي تربية الخيول والأوز والأغنام ورعاية كلاب الصيد(٧٣) إلا أنهم في الوقت نفسه كانوا أداة تدمير في المجتمع نفسه، فيروي المقريزي في حديثه عن الأسري الأرمن أنهم عصروا الخمر وباعوها جهارًا، واتخذوا عندهم أماكن لاجتماع الناس علي المحرمات، حيث يأتيهم الفسّاق من كل مكان ويظلون عندهم الأيام علي شرب الخمور ومعاشرة الفجور والأحداث، بحيث إذا تركت إحدي النساء أهلها أو زوجها، أو الجارية مواليها أو الشاب أهله ودخل عند الأرمن بخزانة البنود، "لا يقدر أن يأخذه منهم، ولو كان من كان ..." (٧٤). ولم يكن نشاطهم قاصرا علي ما روجوا له من أمراض اجتماعية خطيرة ممثلة في الزنا واللواط وشرب الخمر، بل إنهم انضموا إلي عصابات المجرمين وتجّار الحشيش(٧٥).

كذلك وجدت مجموعات من العبيد السود التي شكّلت بعض العصابات المنظمة، والتي يمكن إرجاع السبب في تكوينها إلي سوء الأحوال التي عاش فيها هؤلاء العبيد، فضلاً عما لقيه البعض منهم من تشجيع من بعض أمراء المماليك أو سائر طبقات المجتمع، والتي شكّلت خطرًا يهدد العاصمة لكثرة عمليات السلب والنهب التي كانوا يقومون بها، خاصة في القرن الخامس عشر بسبب ضعف السلطة المملوكية، مما شجع هؤلاء العبيد علي الطغيان والخروج عن الطاعة، بحيث لم يعد لأسيادهم عليهم سلطة، والأخطر من هذا أن هذه الجماعات أخذت تحمي من يأوي إليها من العبيد الهاربين من أسيادهم والذين لم يكن من السهل استعادتهم، بل لقد شكلت بعض جماعات العبيد فيما بينها حكومة لها سلطان علي غرار سلطنة المماليك، ولم يكن الهدف من ذلك بطبيعة الحال سياسيًا، كما شارك هؤلاء العبيد في الفتن التي قامت بين أمراء المماليك بعضهم وبعض، كما أن ثوراتهم كان يحركها دائما نقص موارد الطعام، والتي غالبًا ما كانت تنتهي بعمليات سلب ونهب للمحلات، وحتي مهاجمة حمّامات النساء، كما أن حالة التوتر بين العبيد السود وبين المماليك كانت علي درجة كبيرة،

وأدت إلى كثير من المعارك التي كانت تحدث في شوارع المدينة بالرغم من أن العبيد كانوا ممنوعين من حمل الأسلحة(٧٦).

كذلك يمكننا القول أن النظام السياسي نفسه كان مسئولاً عن ذلك العنف وتلك الجرائم، فكثير من الأمراء استفادوا من خدماتهم، فضلاً عن أن بعضًا منهم كان يستأجر هؤلاء العبيد لمصالحهم الخاصة، كذلك كان النظام نفسه مشجعا لهم، حيث فرض عليهم أن يدفعوا مقابل ممارستهم لبعض الأعمال مثل بيع الخمور والحشيش كثيرا من المبالغ التي كان يتم تحصيلها منهم، هذا فضلاً عن أن النشاط الأساسي لمثل هذه العصابات هو: أن يؤجروا أنفسهم كقوات مساعدة يعتمد عليها الأمراء في حروبهم ضد أعدائهم، وفي مقابل العطايا ومن أجل إطلاق أيديهم في القيام بعمليات السلب والنهب في أحياء المدينة وأسواقها، ونذكر علي سبيل المثال: ما قام به هؤلاء من مساعدة للسلطان "برقوق" من أجل استعادته السلطنة، وقذفهم أعداءه بالحجارة، ونهبهم للمنازل، وفي مقابل ذلك لقوا كل حماية من السلطان بحيث منع القبض عليهم أو معاقبتهم(٧٧). بل لقد تطور الأمر بهم في عهد السلطان نفسه إلي فرض نوع من الإتاوات علي الأعيان وكبار التجَّار، إذ جرت العادة أن يفرض زعيم هؤلاء مبلغًا من المال علي أحدهم، فإذا رفض دفع ذلك المبلغ، كان عليه أن يتحمل عاقبة ذلك الرفض، خاصة في عيد النوروز" حيث ينعدم الأمن لانشغال الجميع بوسائل التسلية والاحتفال بتلك المناسبة"(٧٨).

أما عن حياة المرأة ودورها في المجتمع في تلك الفترة، فإن هؤلاء الرحَّالة باعتبارهم أغراب عن المجتمع، فضلاً عن أن الغالبية منهم لم يمضوا في القاهرة إلا فترات وجيزة باستثناء القليل منهم وحتي هذه القلة وإن اختلطت ببعض سكان القاهرة، فقد وقفت التقاليد الشرقية حائلاً دون تغلغلهم في حياة الأسر في تلك الفترة، لذا اقتصرت ملاحظاتهم علي ما شاهدوه في شوارع المدينة وطرقاتها وأسواقها. وأهم ما لفت أنظار هؤلاء الرحَّالة في المرأة القاهرية: أنها تفننت في إظهار جمالها، وحرصت علي العناية بنفسها وجسدها، وليس أدل علي ذلك مما رواه الرحَّالة بيرو

طافور من: أنه شاهد عدداً كبيراً من العبيد السود الذين تتراوح أعمارهم بين العاشرة والثانية عشر يسيرون في الشوارع وهم يصيحون: "من يريد الزيانة" ولما استفسر عن حقيقة ذلك، قيل له أنهم يقومون بتحفيف النساء اللائي لا يرغبن إتمام هذه العملية في الحمَّامات العامة(٧٩) بالرغم من أن هذه العادة كانت محل استهجان واستنكار بعض الفقهاء المعاصرين(٨٠) كذلك يذكر لنا الرحَّالة اليهودي موشلام بن مناحم الفولتيري: أن النساء في القاهرة اعتدن أن يزين أجسادهن بالرسومات المختلفة، والتي لا يمكن إزالتها من الجلد لمدة ستة أشهر علي الرغم من أنهن يذهبن كثيراً إلي الحمَّامات، وهو يقصد بذلك عملية "الوشم"(٨١) هذا بالإضافة إلي ما يشير إليه بعض الرحَّالة الآخرين من أن النساء في ذلك الوقت كن يقمن بتخضيب أيديهن وأرجلهن بالحناء، كما اعتدن طلاء أظافرهن بطلاء أحمر اللون(٨٢).

إلا أنه تجب الإشارة إلي أن ذلك الاهتمام الذي أبدته المرأة القاهرية بزينتها كان يتم بوجه خاص عند خروجها من المنزل، بينما يقل هذا الاهتمام داخل المنزل بشكل ملحوظ، مما دفع كثيراً من فقهاء ذلك العصر إلي نصح النساء باستكمال زينتهن داخل المنازل والتطيب بالطيب أمام الزوج، وعدم إهمال أنفسهن داخل المنزل خاصة أمام أزواجهن(٨٣). وجدير بالذكر أيضاً أنه عند خروج إحداهن فقد كانت تتعطر وتلبس من الحلي ما تقدر عليه. ومن الحلي التي كانت تستخدمها تلك القلائد المصنوعة من العنبر والتي سميت "بالعنبرية" خاصة في القرن الرابع عشر، حيث يذكر المقريزي: "أنه لا يكاد يوجد بأرض مصر امرأة وإن سفلت إلا ولها قلادة من عنبر..." فضلاً عن الأساور المحلاة بالجواهر(٨٤). بالإضافة إلي ما يرويه لنا الرحَّالة اليهودي موشلام بن مناحم الفولتيري من: أن نساء القاهرة كن يرتدين السراويل التي تزين أطرافها الأحجار الكريمة واللؤلؤ، كما يضعن في آذنهن الأقراط الفضية المرصعة بالأحجار الكريمة واللآلىء إلي جانب أن عدداً من النساء كن يثقبن آذانهن ما بين ثمانية وعشرة ثقوب، ويثبتن فيها اللآلىء المختلفة(٨٥). ومن الطبيعي أن يشهد القرن الخامس عشراً هبوطاً ملحوظاً في زينة النساء بسبب سوء الأحوال الاقتصادية التي بدت بوضوح في ذلك

القرن الذي يذكره المقريزي في قوله: "... فاضطر حال نساء أهل مصر إلي ترك ما أدركنا فيه من لبس الذهب والفضة والجواهر ولبس الحرير"(٨٦).

كذلك تجب الإشارة إلي أنه بالرغم من حرص النساء في تلك الفترة بوجه عام علي إظهار مفاتنهن، ومبالغتهن في الزينة والملابس إلا أن الرحّالة فيلكس فابري يؤكد لنا: أنهن من حيث زينتهن وملابسهن واتخاذهن الحجاب، وشكلهن الخارجي كن وقورات بحيث لا يمكن مقارنتهن بنساء الغرب الأوروبي آنذاك(٨٧).

أما عن نصيب المرأة في الحياة العامة في تلك الفترة بوجه خاص بل وطوال عصر سلاطين المماليك بوجه عام فيبدو لنا أنه بلا شك نصيب كبير. ذلك أن الرحّالة "فريسكو بالدى" في حديثه عن نساء القاهرة يؤكد أنه وجد بها كثيراً من النساء اللاتي يقمن بكثير من الأعمال التجارية ، فهن يذهبن إلي الإسكندرية عن طريق رشيد ودمياط، بل يتجولن في كل أنحاء البلاد للتجارة، يركبن الخيول الرائعة، والغالبية منهن جميلات وحسان ويتزين بكل أنواع الزينة(٨٨) كذلك لاحظ الرحّالة "سانودو" أن النساء يتمتعن بقسط وافر من الحرية، حتي أن بعضهن كن يتغيبن عن منازلهن أوقات كثيرة من النهار، ومع ذلك قلما يتعرضن للوم أزواجهن(٨٩) ويكفينا أن نشير إلي أن "السخاوى" أفرد جزءاً كاملا في كتابه "الضوء اللامع" خصصه لتراجم أكثر من ألف من النساء اللاتي تُوفين في القرن التاسع الهجرى، الخامس عشر الميلادي ولمعظمهن نصيب كبير في الحياة العامة في ذلك القرن(٩٠) بالإضافة إلي ما تشير إليه كثير من المصادر المعاصرة من مشاركة المرأة في مجال الحياتين العلمية والدينية(٩١) كما سلكت بعضهن طريق التصوف، فلبسن الخرقة كما يلبسها المتصوفة من الرجال وأطلقن عليهن الشيخات(٩٢)، وكثيرا ما شاركن في الأفراح والاحتفالات العائلية وكما سبق أن أشرنا بذلك، فضلا عن خروجهن إلي المقابر وأماكن اللهو والفرجة، وأخيرا تجب الإشارة إلي أنه وردت عبارة لدي الرحّالة "بيرو طافور" تؤكد لنا: أنه كان لبعض بنات الأسر المسلمة بوجه خاص رأي في اختيار أزواجهن، وبخاصة إذا كان هذا الزوج ممن أسلموا حديثا، ونال حظوة من جانب السلطات المملوكية، ففي حديثه عن كبير التراجمة

"تغري بردى" في عهد السلطان الأشرف برسباي يقول: " إذ المألوف أن ينظر إلي زواج المسلمة الأصل من مثل هذا الرجل باعتباره عيبًا كبيرًا ..." أي أنه بالرغم من إسلام أمثال هذا الرجل، فإن بنات الأسرات المسلمة العريقة كن يرفضن الزواج من أمثاله(٩٦) ومن المؤكد أن ذلك راجع إلي إدراكهن بأن إسلام هؤلاء مشكوك فيه، أو أنه تم لمصلحة شخصية أو غير ذلك من الأمور، علما بأن هذه الفترة قد شهدت إسلام كثيرين من أهل الذمة خاصة من اليهود الذين وفدوا إلي البلاد(٩٤).

ومن الأشياء التي تحدَّث عنها كثير من الرحَّالة في تلك الفترة تعدد انتشار الطاعون في القاهرة طوال القرنين الرابع عشر والخامس عشر بشكل غير عادى، فقد اختلفت روايات هؤلاء الرحَّالة حول ضحايا تلك الطواعين سواء اليومية منها أم إجمالي عدد الوفيات، نذكر علي سبيل المثال الرحَّالة "سوريانو" الذي يذكر أنه: في سنة ١٤٩٠م مات في القاهرة وحدها خمسة ملايين وفقا لما سمعه من كبير التراجمة تغري بردي آنذاك، ويذكر أن السبب في هذا راجع للإهمال بسبب اعتقاد الناس "أنه مكتوب علي جبين الشخص أن يموت"(٩٥) بينما يذكر الرحَّالة برينارد ينو فينالي الإيطالي أنه مات في نفس السنة ثلاثة ملايين في القاهرة(٩٦).

ويجدر بنا أن نشير أن سلسلة الطواعين التي تعرضت لها مصر بوجه عام والقاهرة بوجه خاص، سلسلة طويلة ومتتالية ومتقاربة في بعض الأحيان بحيث يصعب الحديث عن كل منها علي حدة، وقد قمنا بإحصاء عدد المرات التي انتشر فيها الطاعون في القاهرة في تلك الفترة التاريخية، فبلغ عددها أربعًا وثلاثين مرة أولها سنة ٧١٦هـ / ١٣١٦م وآخرها ٩٠٤هـ / ١٤٩٨م(٩٧). ويلاحظ أن الغالبية العظمي منها حدث إما نتيجة لتوقف زيادة نهر النيل إبان موسم الفيضان وما يتبع ذلك من تأخر الزراعة فإرتفاع الأسعار ثم حدوث المجاعة التي تقتل الكثيرين جوعًا، وتمتلىء البلاد بهذه الجثث التي تجيف فتنتشر عن طريقها الأمراض الوبائية لتسكن الألوف التراب(٩٨). أو نتيجة لانتشار العدوي عن طريق التجار والمتاجر القادمة إلي البلاد إما من الشرق أو الغرب.

كما تجدر الإشارة إلي أن الناس في تلك الفترة اختلفوا في تفسير السبب في تلك الطواعين، فمنهم من فسرها من وجهة نظر دينية وأخلاقية بحته، حيث أرجعوا أسبابها إلي غضب الله سبحانه وتعالي من جراء فساد الأخلاق وانتشار الفسق والفجور، وسيادة الظلم، مثال ذلك ما يرويه لنا ابن تغري بردي في ذكره لحوادث سنة ٨٤١هـ / ١٤٣٧م في عهد السلطان "برسباى": والذي عقد مجلسا للفقهاء سألهم فيه، عما إذا كان الله يعاقب الناس بالطاعون بسبب ما اقترفوه من الذنوب، فأجابه البعض: بأن الزنا إذا تفشي بين الناس ظهر فيهم الطاعون[٩٩]. ومنهم من قال: أن السبب هو فساد الهواء كابن خلدون في قوله: "وسببه في الغالب فساد الهواء بكثرة العمران لكثرة ما يخالطه من العفن والرطوبات الفاسدة. وإذا فسد الهواء وهو غذاء الروح الحيواني وملابسه دايما لسري الفساد إلي مزاجه. فإن كان الفساد قويًا وقع المرض في الرئة. وهذه هي الطواعين..." [١٠٠]. ومنهم من أرجع السبب الرئيسي في حدوث تلك الطواعين إلي سوء تدبير الزعماء والحكّام، وغفلتهم عن مصالح العباد[١٠١]. ومنهم من فسر كثرة تلك الطواعين من وجهة نظر تتعلق بعادات وتقاليد خاصة بأهل مصر بوجه عام مثال ذلك ما يذكره المقريزي من قول أنه: "... من أخلاق أهل مصر الإعراض عن النظر في العواقب، فلا تجدهم يدخرون عندهم زاداً كما هي عادة غيرهم من سكان البلدان... ومن أخلاقهم: الانهماك في الشهوات، والإمعان في الملاذ، وكثرة الاستهتار، وعدم المبالاة... قال لي شيخنا الأستاذ أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون رحمه الله تعالى: أهل مصر كأنما فرغوا من الحساب..." [١٠٢].

إلا أنه تجب الإشارة إلي أن التفسيرات السابقة لم تكن هي السبب الرئيسي والمباشر في انتشار الطاعون، إذ المعروف طبيا أن السبب الرئيسي في انتشار الطاعون يرجع إلي الفئران والقوارض، حيث ينتقل المرض من هذه الحيوانات عن طريق براغيث الفئران وحيث تكون هذه البراغيث معدية بسبب مص دماء تحمل العدوى، وتتكاثر البكتريا في القناة الهضمية للبراغيث، ثم تنتقل هذه البكتريا إلي حيوان آخر غير مصاب أثناء امتصاص دمائه، وعندما يتفشي المرض بين هذه الحيوانات وتموت أعداد كبيرة من الفئران، عندئذٍ تنتقل البراغيث إلى الإنسان،

حيث تغزو البكتريا المسببة للمرض الغدد اللمفاوية التي تتورم بدورها وتتقيح مع حدوث ارتفاع في درجة الحرارة. يلي ذلك حدوث انتشار كبير وتكاثر البكتيريا في الدم مما يؤدي إلي تسممه تسممًا حادًا، وعندما ينتقل الدم الملوث هذا إلي الرئتين بسبب الطاعون الرئوي وهو أخطر مراحل المرض، حيث تنتقل العدوي بسرعة إلى الأشخاص الغير مصابين عن طريق إفرازات الجهاز التنفسي المحتوية علي البكتريا عن طريق الهواء[١٠٣]. وعلي هذا الأساس يمكننا اعتبار الأسباب التي ذكرها المؤرخون المعاصرون عوامل مساعدة علي انتشار المرض لما لها من آثار سيئة علي سوء التغذية بوجه عام، وبالتالي ضعف المناعة لدى الأشخاص لمقاومة ذلك الوباء.

كذلك تجب الإشارة إلي أنه بالرغم مما تذكره بعض المصادر المعاصرة عن وجود بعض وسائل الوقاية من هذا المرض[١٠٤]. إلا أن الناس لم يملكوا إزاء تلك الطواعين سوي الاستسلام انتظارًا لارتفاعها عنهم تلقائيًا، إذ لم يكن معروفًا لديهم ما نعرفه اليوم من إجراءات وقائية وعلاجية خاصة فيما يتعلق بالسبب الرئيسي لانتشارها والأدوية المؤثرة، علي الرغم من معرفتهم بالحجر الصحي وإغلاق الأماكن الموبوءة حيث ورد في الحديث النبوي الشريف "إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها"[١٠٥]. كما هو واضح أن الهدف من هذا الحديث فرض نوع من الحجر الصحي أو العزل، ولكن يبدو أن الكثيرين أمام أهوال الطواعين لم يعملوا بما جاء في هذا الحديث مما كان من ضمن عوامل سرعة انتشار المرض، كذلك لا يستطيع أي باحث أن يتجاهل الآثار المختلفة لهذه الطواعين في شتي مجالات الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والتي لا يتسع المجال في هذا البحث الحديث عنها.

المشاهدات السكانية :

مما لا شك فيه أن مدينة القاهرة قد تركت انطباعًا عند كل من زارها في تلك الفترة بوجه خاص، من حيث كبر حجمها واتساعها بما يفوق كثيرًا من المدن التي

عرفوها في الغرب الأوربي آنذاك، نذكر علي سبيل المثال ما قاله عنها الرحّالة الألماني فيلكسن فابري الذي زارها سنة ١٤٨٣م من أن: مساحتها كانت تساوي مساحة مدينة باريس سبع مرات، أو مساحة مدينة أولم Olm الألمانية أربعا وثمانين مرة[١٠٦]. كذلك قال عنها الرحّالة الفرنسي فان دي جوز أنها: بلا شك أكبر مدينة عرفها في العالم آنذاك، وقد بلغت من كبر حجمها واتساعها حدا بحيث لا يستطيع المرء أن يقوم بجولة في أنحائها في أقل من اثنتي عشرة ساعة راكبًا، كما أنها طويلة أكثر مما تكون عريضة، وهي لا تطل في كل اتجاه علي نهر النيل ولكن فقط عند طرفيها، وفي وسطها فهي تبتعد كثيراً عن النهر بينما تقترب منه عند طرفيها، وأحد طرفيها هو المنطقة التي تُعرف باسم "مصر العتيقة" بينما يمتد طرفها الآخر إلي منطقة عامرة بالسكان تسمي "بولاق"[١٠٧].

اتساع القاهرة المستمر:

ومن المهم أن نشير هنا إلي أن قاهرة القرن الرابع عشر كانت أقل مساحة من قاهرة القرن الخامس عشر، وذلك راجع إلي ما حدث في أوائل القرن الخامس عشر وبالتحديد سنة ١٤٠٣م، وما اصطلح المؤرخون المعاصرون علي تسميته بعملية طرح البحر، والمقصود بها ظهور أراض جديدة بسبب قوة جريان مياه النيل وقت الفيضان ، حيث يزداد تأثير هذه القوة في المناطق التي يكون فيها مجري النهر ضيقًا بحيث تحمل مياه النيل معها الطمي إلي المناطق التي يتسع فيها المجرى، وحيث يكون تأثير التيار بسيطا، فيرسب هذا الطمي مما يتسبب عنه ظهور أراض جديدة، وبذلك يبعد النيل عن القاهرة وتتسع أراضيها[١٠٨]. وفي هذا الطرح الذي ذكرناه حدث أن تحول النيل إلي جهة الغرب مما أدي إلي ظهور مساحة جديدة في المنطقة الواقعة بين شارع ٢٣ يوليو "فؤاد الأول سابقًا" عند تقابله بشارع المطبعة الأهلية، وبين النقطة التي يتقابل فيها شارع أبو الفرج بشارع جزيرة بدران في شمال عنابر السكك الحديدية[١٠٩].

وجدير بالذكر أن هذا الطرح كان الطرح الثامن للنيل، والثالث في عصر سلاطين المماليك حيث سبقه الطرح السادس سنة ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م والذي نتج عنه ظهور المنطقة التي يمر بها الآن شوارع الأنتكخانة المصرية وشامبليون ومعروف والنمر والطرح السابع الذي حدث سنة ٥٨٠هـ / ١٢٨١م والذي نتج عنه ظهور الأرض التي عليها الآن قسم بولاق بأكمله وجزء من قسم الازبكية، والأرض الواقعة بين السكك الحديدية الموصلة إلي الصعيد وبين شارع جزيرة بدران من قسم روض الفرج[١١٠]. وبسبب هذا الطرح الأخير "السابع" والذي اتصل بما سبقه من الطروح في المسافة الواقعة بين مستشفي القصر العيني القديم من الجنوب وبين شارع جزيرة بدران من الشمال انتقل شاطئ "النيل الشرقي تجاه القاهرة إلي جهة الغرب وأصبح النيل يجري في مجراه الحالي من كوبري "محمد على" الواقع علي سيالة الروضة إلي مبني "الهيلتون" وجامعة الدول العربية فالكاتدرائية الإنجليزية ثم يسير في شارع ماسبيرو[١١١].

كذلك جدير بالذكر أيضًا أنه منذ القرن الخامس عشر الميلادي كانت القاهرة تشغل المساحة التي كانت تشغلها حتي أوائل القرن التاسع عشر قبل أن تتسع وتمتد ضواحيها الحالية، كما لم يكن هناك فارق يُذكر بين حال القاهرة خلال ذلك القرن وتلك القاهرة التي أجاد وصفها فوج من الرحّالة والمستشرقين الأوروبيين في النصف الأول من القرن التاسع عشر[١١٢]. وليس أدل علي ذلك مما ذكره المقريزي في حديثه عن ضواحي القاهرة المختلفة[١١٣]. كما أن المدينة كانت مقسمة إلي أحياء عُرفت تحت اسم "الحارات" أو "المحلات" أو "الأخطاط"، وكل حي من هذه الأحياء عبارة عن وحدة سكنية صغيرة لها أسواقها المحلية، وربما وجدت بها بعض الدكاكين، وقد بلغ عدد هذه الحارات حسبما يذكر المقريزي في بداية القرن الخامس عشر سبعًا وثلاثين حارة[١١٤]. بينما يذكر الرحّالة اليهودي موشلام بن مناحم الفولتيري سنة ١٤٨١م: أن عدد الأحياء بها قد بلغ أربعًا وعشرين حيًا بما فيها القاهرة القديمة والتي يطلق عليها السكان المحليون اسم الفسطاط، وأنه لكل حارة من الحارات – يقصد بها الأحياء – شيخ "كان من ضمن اختصاصاته أن يدون عدد المواليد والوفيات اليومية في الحي الخاص به،

ثم يقوم بالتبليغ عنها يوميًا[١١٥]. ومن المؤكد أن كل شيخ من مشايخ الحارات أو الأحياء كان واسطة الاتصال بين السلطة وأهل الحى، أو مساعدا للسلطة لتحديد وجمع الضرائب، وخصوصًا الضرائب غير العادية والتي تضطر الدولة لفرضها من حين لآخر، حيث كان دوره هو: محاولة التفاوض مع السلطة لتخفيض تلك الضرائب، فضلاً عن قيامه بجهد كبير في تنظيم عمليات فتح وغلق المحلات، وفي منع الجرائم، ومنع بيع الخمور ومراعاة الأمن بالليل ومنع عمليات السلب والنهب خاصة في الأوقات التي ينعدم فيها الأمن، حيث يشرف علي بناء البوابات لحماية الأهالي من خطر اللصوص[١١٦].

وجدير بالذكر أن هذه الأحياء كان كل منها يضم جماعة متجانسة نسبيًا من الناس، كعمال يمارسون نفس المهنة، أو أناس تنتمي أصولهم لبلدة واحدة، أو يدينون بنفس الدين[١١٧]. وغالبًا ما يشكّلون وحدة اجتماعية ذات روابط أسرية، ومن الطبيعي أن تختلف تلك الأحياء في حجمها واتساعها وعدد سكانها، كذلك كانت بعض الأحياء تشكل وحدة علي جانب من الاكتفاء الذاتى، حيث وجد في سوقها كل ما يحتاجه أهل الحي من مستلزمات يومية من طعام وكساء، إلي جانب وجود بعض المؤسسات الاجتماعية مثل الحمّامات، وليس أدل علي ذلك مما يرويه لنا المقريزي عن حارة برجوان بالجمالية والتي كان يقطن فيها[١١٨].

أما عن عدد سكان القاهرة في هذه الفترة فقد اختلف هؤلاء الرحّالة حول تقدير عدد سكانها، خاصة في القرن الرابع عشر الميلادى، فقد ذكر البعض أن الذين يمكن عدهم من السكان ٢٤,٠٠٠ من الطبّاخين، ٤٨,٠٠٠ من الخبازين والفرانين، ٢٠,٠٠٠ من السقّائين ممن يجلبون مياه الشرب، وعلي هذا يمكنك تقدير عدد من يشربون ويأكلون[١١٩]. كذلك يذكر الرحّالة سيمون فتزسيمون Simon Vitz Simon الذي زارها سنة ١٣٢٤م: أن القاهرة تبلغ في حجمها علي الأقل ضعف حجم مدينة باريس، وعلي الأقل أربعة أمثالها من حيث عدد السكان[١٢٠]. والتي بلغ عدد سكانها آنذاك حوالي مائتي ألف نسمة حسبما يروي هنري بيرن[١٢٢]. بينما يذكر الرحّالة فريكسو

بالدي: أن عدد سكان المدينة قد بلغ حوالي ثلاثة ملايين نسمة، ويتفق معه في الرأي أيضًا الرحّالة جوتشي والذي استمد معلوماته هذه من بعض التجّار البنادقة المقيمين بالمدينة(١٢١). أما الرحّالة بيلوتي الكريتي والذي قضي الفترة من ١٣٩٦ إلي ١٤٢٨م في مصر متنقلا بين القاهرة والاسكندرية وغيرها من المدن، يقول عنها: إن القاهرة تعتبر من أكبر مدن العالم التي رآها، وأن عدد سكانها لا يحصى، ومن كثرتهم تري أعدادًا كبيرة منهم يقيمون في الشوارع، وأمام أبواب المنازل ينام عشرات من الأشخاص أو نحو ذلك، وذلك بسبب كثرة عدد السكان بها(١٢٣) هذا بالإضافة إلي ما يذكره أحد الباحثين المحدثين من أن عدد سكان المدينة في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي بلغ حوالي ستمائة ألف نسمة(١٢٤) ولم يذكر لنا المصادر التي اعتمد عليها في تقديره لهذا العدد، والحق أنني أرجح الأخذ بهذا الرأي مع شيء من التحفظ، لعدة أسباب منها: أننا إذا وضعنا في اعتبارنا ما قاله الرحّالة سيمون فتز سيمون: من أن عدد سكانها قد بلغ أربعة أمثال سكان مدينة باريس والذي بلغ مائتي ألف نسمة حسب رواية هنري بيرن، وكذلك لو رجعنا إلي بعض المصادر علي سعة سكانها وأماكنها..." (١٢٥) كذلك يذكر كل من المقريزي وابن تغري بردي في حديثهما عن الطاعون الذي اجتاح مصر سنة ١٣٤٨م: أنه عندما أحصيت الجنائز بالقاهرة فقط في مدة شهري شعبان ورمضان سنة ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م فكان عددها تسعمائة ألف سوي من مات بالحسينية والصليبية وباقي الخطط خارج القاهرة(١٢٦). بالإضافة إلي ما يرويه العيني في حديثه عن نفس الطاعون مؤكدًا أنه قضي علي حوالي ثلثي جمهرة السكان آنذاك(١٢٧). فإذا استثنينا من تلك الأعداد المذكورة والجماعات التي فرت إلي المدينة هربا من الطاعون وهي جماعات بلا شك كبيرة، يمكننا تقدير عدد سكان القاهرة قبل حدوث ذلك الطاعون بما لا يقل عن مليون من السكان، بقي منهم علي قيد الحياة أقل من نصف مليون علي وجه التقريب، وهو تقدير يبدو معقولاً خاصةً وإذا وضعنا في اعتبارنا ما قاله الرحّالة الفرنسي Ogier الذي زار المدينة سنة ١٣٩٥م، أي بعد ذلك الطاعون بحوالي نصف قرن، مع مجموعة من الحجّاج حيث ذكر أن القاهرة جذبت انتباههم لكبرها وللعدد الهائل من سكانها(١٢٨).

كما يبدو أن المدينة منذ القرن الخامس عشر الميلادي كانت في تزايد مستمر، والدليل علي ذلك ما سبق وذكرناه من قول الرحَّالة "بيلوتي الكريتى:" أنه من كثرة عدد السكان فإنك تري أعداداً كبيرة منهم يقيمون في الشوارع، كذلك ما يرويه لنا الرحَّالة "جيلبرت دي لانوى" والذي زار القاهرة سنة١٤٢١م حيث يذكر: أن المدينة كانت مكتظة بالسكان والتجار من كل أنحاء العالم، كما أن أسوار المدينة كانت تبدو لمن يمر بها غير مرئية بسبب كثرة تزاحم المنازل في الضواحي المجاورة للأسوار من كل جانب(١٢٩) هذا بالإضافة إلي ما يرويه لنا الرحَّالة اليهودي "موشلام بن مناحم الفولتيرى" سنة ١٤٨١م من قول: أنه لو أمكن وضع كل من مدن روما وميلان، وبادوا وفلورنسة بالإضافة إلي أربع مدن أخري إليها، فإنها لن تستوعب معاً عدد سكان القاهرة(١٣٠)، كذلك ما يرويه لنا الرحَّالة الفرنسي "فان دي جوز" Van de Joose سنة ١٤٨٣م من أنه: وجد أعداداً كبيرة جداً من السكان، حيث كانوا يعيشون كل ثلاث أو أربع أسرات في منزل واحد، ولا يمكن أن تتسع المدينة لهذا العدد الضخم من السكان، لذا تري كثيراً من الناس يسكنون حول المدينة(١٣١). كذلك يقول عنها الأب "سوريانو" رئيس طائفة الرهبان الفرنسيسكان في بيت المقدس والذي زارها سنة ١٤٨٩م: أن هذه المدينة بها من السكان عدد ضخم، من المعتقد أنه بلغ مليوناً ونصف مليون نسمة ويتفق معه في هذا الرأي الأب "باجانى" من طائفة الرهبان الفرنسيسكان أيضاً وكان معاصراً للأب "سوريانو" بأن عدد سكانها قد وصل مليوناً ونصف مليون وليس أقل من ذلك(١٣٢).

شوارع القاهرة:

أما عن شوارع القاهرة، فإن أهم ما استرعي انتباه الرحَّالة في ذلك الوقت أنها كانت تعج بالناس من مختلف الأجناس والأديان والمكانة الاجتماعية، بحيث يستطيع الشخص الخبير بأحوال الشرق أن يتعرف علي ديانة أي فرد في الشارع ومكانته الاجتماعية من خلال عمامته، فبينما يرتدي المسلمون اللون الأبيض، يرتدي المسيحيون اللون الأزرق، أما اليهود فيرتدون اللون الأصفر، وكلما كبر حجم العمامة دل ذلك على

مدي مكانة صاحبها، كما كان الضغط يزداد في الشوارع بسبب الأعداد المتزايدة من الحمير والخيول والبغال والجمال، فلا أحد يسير علي قدميه سوي الفقراء، وأنه لشيء خطير حقا أن تسير علي قدميك في هذه الشوارع بسبب الزحام الشديد والفائق علي الحد، ففي كل مكان في الشوارع خاصة علي النواصي والأركان يقف كثير من الأولاد ومعهم الحمير المسرجة الجميلة، وكل من يريد دابة منها لتحمله فسوف يجدها[١٣٣].

هذا إلي جانب الحشد الهائل من الباعة الجائلين والذين يعرضون بضائعهم، فهناك باعة الفاكهة والخبز، والحلوي والحطب والكثير من السلع الأخرى، فضلاً عن الأعداد الضخمة من الجمال التي تسير في الشوارع حاملة الماء لتوزيعه علي السكان، بالإضافة إلي آلاف السقائين الذين يحملون قراب الماء ويقومون بتوزيعه علي كل من يريده، بجانب العديد من الطهاة سواء من اللحوم والأسماك أم أطباق اللبن حيث ينادون بصوت عال علي سلعهم، فيطلب منهم سكان الشوارع التوقف للحصول علي ما يشتهون، أما المارة فيمكنهم الجلوس عند أحد أركان الشارع ويأكلون مما يبتاعون منهم، كذلك كان يوجد العديد من باعة المشروبات المحلاة بالسكر وبعض الحلوي والمربات الأخرى، وهي أجمل من مثيلاتها في أي مكان آخر في العالم[١٣٤]. أضف إلي ذلك بعض أصحاب الحرف مثل: الحلاقين الذين كانوا يزرعون شوارع القاهرة جيئة وذهابًا وقد ثبتوا المرايا إلي صدورهم ينادون علي صناعتهم ويحلقون لمن يطلب منهم[١٣٥]. يضاف إلي كل هذا كثرة الخيول التي يركبها المماليك ويركضون بها وسط الشوارع المزدحمة، وهم يضربون الناس يمنة ويسرة. ليفسحوا لهم غير مبالين إذا سقط بعض المارة تحت حوافر خيولهم، وقد أدي ضيق هذه الشورا ع لكثرة من فيها من مارة وما فيها من دواب إلي أن محتسب القاهرة كان يشدد علي أصحاب هذه الدواب بأن: "... يشدوا في أعناق دوابهم الأجراس وصفاقات الحديد والنحاس ليعلو جلبة الدابة إذا عبرت السوق، فينحذر منها الضرير والإنسان الغافل والصبيان وكذلك يفعل المكارية والتراسين وحمالي الحطب ومزابل الطين وغيرهم"[١٣٦].

ويروي لنا الرحَّالة باسيل Basil الذي زار القاهرة سنة ١٤٦٥م: أن بالقاهرة أربعة آلاف شارع ودرب، كل منها له بابان وحارسان، وفي بعض هذه الشوارع ما يقرب من خمسة عشر ألف مسكن، ولكل شارع سوق كبير لسد احتياجات سكانه اليومية[١٣٧] أما الرحَّالة اليهودي "عوبديا" الذي زارها سنة ١٤٨٧م فيقول: أنه يمكنك الخروج في شوارع القاهرة ليلاً مثلما تخرج بالنهار لأن الشوارع كلها مضاءة بالمصابيح[١٣٨]. والرحَّالة فريسكو بالدي قد شد انتباهه أن الناس في القاهرة يمشون في الشوارع دون حمل أسلحة علي عكس ما هو معروف في الغرب الأوروبى، وهذا الوضع من الأمن الداخلي لم يكن معروفًا في كثير من مدن الغرب الأوروبي في نفس الفترة[١٣٩]. ويؤكد لنا المقريزي حرص السلطات علي نشر الأمن في الشوارع خاصة في الليل، حيث تشدد الحراسة عليها، فيرتب لها جماعة من الطواف لكشف الأزقة وغلق الدروب وتفقد أسطح الأرباع وتأديب المخالف ومن سار في الليل بسبب غير مقبول كان يقبض عليه، كذلك خصص بعض الأمراء والأجناد للطواف ليلاً لتفقد الأمن[١٤٠].

وجدير بالذكر أنه بذلت كثيراً من الجهود لتحسين تلك الشوارع والعناية بها وتوسيعها نذكر علي سبيل المثال: ما يرويه المقريزي من أن الباعة كلفوا في تلك الفترة بكنس الشوارع ورشها باستمرار، كذلك كانوا يقومون بقطع ما عساه تربي من الأوساخ في الطرقات حتي لا تعلو الشوارع[١٤١]. كما قام "المشاعلية" بنزح أسربة البيوت والحمَّامات وتنظيفها من حين لآخر مقابل أجر معلوم[١٤٢]. بالإضافة إلي حرص السلاطين علي تطهير المدينة من البرصاء والمجذومين، فضلاً عن عنايتهم بتطهير شوارعها من الكلاب لأنها من الحيوانات المكروهة لنجاستها، فأمروا بإمساكها ونفيها إلي الجيزة لذلك كان يتقرر علي كل أمير أو تاجر عدد معين من الكلاب أن يمسكها ويسلمها للوالى، ولذا لجأ العوام إلي إقتفاء أثر الكلاب لبيعها للتجَّار حتي بيع الكلب سنة ١٣٧٩م بدرهم[١٤٣].

المنازل

أما عن منازل القاهرة في القرن الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، فهناك شبه إجماع بين كل من زاروها في تلك الفترة بأنها جميلة ورائعة وضخمة وعالية في نفس الوقت، مثال ذلك ما يرويه لنا الرحَّالة "جوتشى" سنة ١٣٨٤م أثناء حديثه عن سوق القصبة "شارع المعز لدين الله" بقوله: ويحيط بهذا السوق كثير من المنازل الجميلة، وهي ضخمة وعالية، وكلها عامرة بالسكان[١٤٤]. أما الرحَّالة الفرنسي Ogier الذي زارها سنة ١٣٩٥م فهو يقول عنها: أنها شدت انتباهه هو ومن معه من الحجاج الفرنسيين لكبر حجمها، وشرفاتها الواسعة[١٤٥]. والرحَّالة الفرنسي "فان دي جوز" يروي أن: أغلب منازلها لها أسقف منبسطة، ولها شبابيك كثيرة عليها المشربيات التي ينفذ منها النسيم العليل، وبما أن درجة الحرارة مرتفعة في البلاد، فإن داخل هذه المنازل كان يرش بالماء ثلاث مرات يوميًا[١٤٦].

والحقيقة أن خير من يصور لنا طريقة بناء منازل القاهرة هو الرحَّالة العربي عبد اللطيف البغدادي حيث يقول: "... وغالب سكناهم في الأعالي ويجعلون منافذ منازلهم تلقاء الشمال والرياح الطيبة، وقلما تجد منزلاً إلا وفيه باذاهنج - يقصد بذلك المناور العلوية التي تجعل في أسطح الغرف العليا - وباذاهنجاتهم كبار، واسطة للريح. عليها تسلط ويحكمونها غاية الإحكام، حتي أنه يغرم علي الواحد منها مائة دينار إلي خمس مائة ... وأبنيتهم شاهقة، ويبنون بالحجر النحت والطوب الأحمر وهو الآجر، وشكل طوبهم علي نصف طوب العراق. ويحكمون قنوات المراحيض، حتي أنه تخرب الدار والقناة قائمة، ويحفرون الكنف إلي المعين، فتمر عليها برهة من الدهر طويلة ولا يفتقر إلي كسح، وإذا أرادوا بناء ربع أو دار أو قيسارية - استحضر المهندس - وفوض إليه العمل فيعمد إلي العرصة وهي تل تراب أو نحوه فيقيسها في ذهنه ويرتبها بحسب ما يقترح عليه ثم يعمد إلي جزء من تلك العرصه فيعمره ويكمله بحيث ينتفع به علي انفراده ويسكنه، ثم يعمد إلي جزء آخر، ولا يزال كذلك حتي تكمل الجملة بكمال الأجزاء من غير خلل ..." [١٤٧].

ويؤكد لنا "ستانلي لين بول" أن منازل قاهرة القرن الخامس عشر ظلت علي حالتها حتي القرن التاسع عشر، وقد كانت جميع منازل القاهرة قريبة الشبه إلي حد كبير، ولكنها تختلف من حيث الحجم وكثرة الزخارف أو قلتّها، وأن أهم ما كان يميز هذه المنازل هو وجود المشربيات التي كانت تُضفي علي المنزل بهجة وبهاء، والتي كانت مكانًا رطبًا للإنسان كما هو لقلال الماء، كما أن الجالس فيها يمكنه أن يري الناس بالشارع من حيث لا يرونه، فتستطيع النساء أن يشاهدن المارة دون أن يتمكن هؤلاء من رؤيتهن، ومع ذلك فهناك نوافذ صغيرة في المشربيات يمكن فتحها إذا رغب أصحابها في ذلك.

أما أبواب هذه المنازل فيبدو أن أغلبها تميز بوجود بعض النقوش العربية في الجزء العلوي منها، وهذه النقوش تكسب الباب في العادة صورة رائعة، وعندما يدخل الشخص من الباب سيجد أمامه منعطفًا بعد خطوة أو خطوتين يحول دون مشاهدة أي شيء في الداخل، وفي نهاية هذا الممر المنعطف نجد أنفسنا أمام فناء متسع به بئر ماء في أحد الأركان، هذا الفناء تطل عليه غرف الرجال وحجرات الاستقبال وما إلي ذلك لأن غرف النساء منعزلة تمامًا عن هذا الفناء ولا تطل عليه. ويتميز الطابق السفلي بوجود حجرات كثيرة منفصلة يمكن أن ينام فيها أهل البيت أو تستخدم لاستقبال الضيوف والأهل والأصدقاء.

وجدير بالذكر أيضا أنه لم تكن هناك حجرة بعينها تخصص للنوم، أو علي الأخص بها أثاث للنوم كما هو معروف لدينا الآن، فكل ما كان يلزم القاهري آنذاك حشية ووسادة لينام، وربما احتاج الأمر إلي بطانية في الشتاء وناموسية في الصيف، وكل هذه الأشياء يمكن طيها في الصباح وإيداعها في خزانة خاصة أو في غرفة جانبية، وعند ذلك تتحول حجرة النوم إلي غرفة للجلوس(١٤٨) ومن الطبيعي أن تتفاوت منازل القاهرة تبعا لمستوي دخل أصحابها ومكانتهم الاجتماعية وليس أدل علي ذلك مما رواه الرحّالة "مارتن بوم جارتن" الذي زار القاهرة سنة ١٥٠٧م من: أن منازل كبار الرجال والأعيان عادة ما تكون غاية من الروعة والفتنة والحسن كأي شيء آخر لديهم(١٤٩).

الهوامش

(١) د. سعيد عاشور الحركة الصليبية، ج٢ ، ص١١٨٧ – ١٢٠٨,

(٢) Atiya (A.S): The Crusade In The Later Middle Agese London, 1988, PP.36 - 44.

(٣) د. سعيد عاشور: نفس المرجع، ج٢، ص١٩٩٩.

(٤) عن هؤلاء الدعاة وجهودهم راجع: Ibid: Op. Cit. PP. 128 - 230

(٥) النويرى: الإلمام بالاعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في واقعة الإسكندرية. مخطوط.

(٦) Atiya: Op. Cit. PP. 116 - 124

(٧) Mundeville : The Travels of. PP. 27 - 31 : Thomas Wright: Early Travels in Pales-tine London, 1886, PP. 144 - 146

(٨) Atiya : Op. Cit. P. 161. 9-

(٩) د. سعيد عاشور الحركة الصليبية، ج٢ ، ص١٢٧٩ – ١٢٨٠ ,

(١٠) Ibid, PP. 98 - 113.

(١٢) Cam. Med. Hist., Vol. 5, P. 327; Thompson : Economic and Social Hist. of the Middle Ages, Vol. I, P. 430

(١٣) Joinville : La Vie de Saint Roi Louis, London, 1963, PP. 76 - 78.

(١٤) Atiya : Op. Cit. PP. 181 - 186. القلقشندي : صبح الأعشى، ج١٠، ص٢٩٢ – ٢٩٣,

(١٥) ابن فضل الله العمرى. التعريف بالمصطلح الشريف، ص١٤٤ – ١٤٥,

(١٦) Atiya : Op. Cit. P. 181.

(١٧) Thomas Wright : Op. Cit. PP. 198 - 199.

(١٨) Le voyage En Egypte PP. 16 - 17 .

(١٩) A Visit to the Holy Places. P. 166

(٢٠) Prescott : Once To Sinie, London, 1957, P. 118.

(٢١) Ibid, P.152;

(٢٢) A Visit to the Holy Places. P. 52 53.

(٢٣) Atiya : Op. Cit. P.192

(٢٤) Prescott : Op. Cit. P.176.

(٢٥) Margoliouth : Cairo, Jersulem and Damascus. London, 1907, P. 160.

(٢٦) The Travels of Martin Baumgarten, N.D, PP. 441 - 42. د. حسن حبشي: رحلة طافور، ص٧٢ .

(٢٧) الخطط، ج١، ص٦ .

(٢٨) Prescott : Op. Cit. P.178.

(٢٩) د. حسن حبشي: رحلة طافور، ص٦١ .

(٣٠) الرحلة العياشية، ص١٢٥، ١٢٩، ١٣٢، ١٥٥ .

(٣١) Van de Joose : Le Voyage En Egypte, PP. 57 - 66.

(٣٢) A Visit to The Holy Places. P. 165 .

(٣٣) Ibid, P. 170.

(٣٤) المقريزى: السلوك، ج٢، قسم٢، ص٥٣٩، ابن تغري بردى: النجوم، ج٩، ص١٧٧ .

(٣٥) السلوك، ج٢، قسم٢، ص٦٩٥، ج٢، قسم٣، ص٧٣٩ .

(٣٦) المقريزى: الخطط، ج٢، ص٩٦ .

(٣٧) Prescott : Op. Cit. P.150.

(٣٨) السيوطى: حسن المحاضرة، ص٣٢٧ . .

(٣٩) د. عبد الرحمن زكى: القاهرة، ص١٩٦ .

(٤٠) وليم نظير: الثروة الحيوانية عند قدماء المصريين، ص١٦٩.

(٤١) Thomas Wright : Op. Cit. P. 152;

(٤٢) The Travels of Sir John Mandeville, P. 39.

(٤٣) Dopp : Op. Cit. P. 38.

(٤٤) Prescott : Op. Cit. P.146 - 147. حسن المحاضرة، ج٢، ص٢٣٣ .

(٤٥) وليم نظير: نفس المرجع، ص١٧١.

(٤٦) Atiya : Op. Cit. P. Isl; A Visit to The Holy Places. PP. 49 - 52, P. 167.

(٤٧) د. حسن حبشي: رحلة طافور، ص٩٧ - ٩٨.

(٤٨) ابن الحاج: المدخل، ج٣، ص١٨٦ - ١٨٩، د. قاسم عبده قاسم: دراسات اجتماعية، ص٥٢ .

(٤٩) المقريزى: الخطط، ج٢، ص٩٣، ابن الحاج: نفس المصدر، ج٢، ص٧٩ - ٨٠ . د. قاسم عبده قاسم: نفس المرجع، ص٩٧ .

(٥٠) ابن الحاج: نفس المصدر، ج٤، ص١٨٢، د. قاسم عبده قاسم: نفس المرجع، ص٩٧ .

(٥١) Prescott : Op. Cit. P.124

(٥٢) الخطط، ج٢، ص٩٦ . A Visit to The Holy Places. P. 175 , 167

(٥٣) Ibid, P. 176.

(٥٤) Ibid, P. 198.

(٥٥) Prescott : Op. Cit. P.115 - 120.

(٥٦) Adler : Jewish Travelers. London, 1930, P. 178.

(٥٧) A Visit to The Holy Places. PP. 167 - 168.

(٥٨) لمزيد من المعلومات راجع: الخطط، ج٢، ص١٠٥ .

(٥٩) The Travels of Martin Baumgaraten, P. 441.

(٦٠) Treatise on the Holy Land. Jeruselem, 1940, PP. 192 - 193.

(٦١) Dopp : Op. Cit. P. 20. د. حسن حبشي: رحلة طافور، ص٧٣ – ٧٤،

(٦٢) The Travels of Martin Baumgaraten, P. 440 .

(٦٣) ابن إياس : بدائع الزهور، ج٥، ص٥٦ .

(٦٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٢٩٧ .

(٦٥) د. قاسم عبده قاسم: النيل والمجتمع المصرى، ص٤٢ – ٤٦ .

(٦٦) Adler : Op. Cit. P. 169.

(٦٧) Ibid, PP. 225 - 228.

(٦٨) Dopp : Op. Cit. P. 67.

(٦٩) A Visit to The Holy Places. P. 48.

(٧٠) Prescott : Op. Cit. PP. 167 - 168.

(٧١) Van de Joose : Le Voyage En Egypte, PP. 20 - 21.

(٧٢) السلوك، ج٢، قسم٣، ص٦٣٠ .

(٧٣) المقريزى: السلوك، ج٢، قسم٢، ص٥٣٢، ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة، ج٩، ص١٧٠ – ١٧١ .

(٧٤) السلوك، ج٢، قسم٣، ٦٤٠ – ٦٤١ .

(٧٥) Lapidus : Musilm Cities. Camb. 1967, P.84.

(٧٦) Ibid, P. 171.

(٧٧) Ibid, P. 171 - 174.

(٧٨) Margoliouth : Op. Cit. P. 103.

(٧٩) د. حسن حبشي: رحلة طافور، ص٩٧ .

(٨٠) ابن الحاج: المدخل، ج٤، ص١٠٦ .

(٨١) Adler : Op. Cit. P. 168.

(٨٢) Schefer : Voyage de Msenifique P. 211

(٨٣) ابن الحاج: نفس المصدر، ج١، ص٢٤٤ – ٢٤٥ .

(٨٤) الخطط، ج٢، ص١٠٢، السلوك، ج٢، ص٥٢٨ .

(٨٥) الخطط، ج٢، ص١٠٤ .

(٨٦) Adler : Op. Cit. P. 168

(٨٧) A Visit to The Sehefer : Le Voyage d'outremer. P. 33.

(٨٨) Prescott : Op. Cit. PP. 155.

(٨٩) Holy Places. P. 46.

(٩٠) الضوء اللامع، ج١٢ .

(٩١) ابن حجر: إنباء الغمر، ج١، ص٥٥٥، السخاوى: الضوء اللامع، ج١٢، ص٢، ٤، ١١، ١٣١ .

(٩٢) ابن حجر: نفس المصدر، ج٢، ص٨٤١ .

(٩٣) د. حسن حبشي: رحلة طافور، ص٦٥ .

(٩٤) Adler : Op. Cit. P. 228

(٩٥) Treatise on the Holy Land. P. 192.

(٩٦) Ibid, P. 192.

(٩٧) عن تلك الطواعين راجع د. قاسم عبده قاسم: النيل والمجتمع المصرى، ص١٣٠ – ١٣٧ .

(٩٨) نفس المرجع السابق، ص٦٧ .

(٩٩) النجوم، ج٦، ص٧٦ .

(١٠٠) المقدمة، ص٢٢١ .

(١٠١) المقريزي: إغاثة الأمة، ص٤ .

(١٠٢) الخطط، ج١، ص٤٩ .

(١٠٣) Abla El Mishad : Manual of Praetical Microbiology, P. 126; Yehie A El Batewi : Maunel of Microbial Infection of Man. PP. 70 - 75.

(١٠٤) السيوطي: ما رواه الواعون في أخبار الطاعون، ص٨٨ .

(١٠٥) صحيح البخاري، ج٣، ص١٤ .

(١٠٦) Margoliouth : Op. Cit. P. 156.

(١٠٧) Le Voyage En Egypt. PP. 16 - 19.

(١٠٨) عن طرح البحر، راجع المقريزي: الخطط، ج٢، ص١١٣ .

(١٠٩) د. عبد الرحمن زكي: القاهرة، ص٢٣٩ – ٢٤٠ .

(١١٠) نفس المرجع السابق، ص٢٣٥ – ٢٣٩ .

(١١١) نفس المرجع، ص٢٣٦ - ٢٣٩ .

(١١٢) نفس المرجع، ص١٠٦ .

(١١٣) راجع الخطط، جذ، ص٢٨٥، ج٢، ص١٠٢، السلوك، ج٣، قسم١، ص٢٠٦، ج٣، قسم٢، ص٥٢٣ .

(١١٤) الخطط، ج٢، ص٢ - ٣٢ .

(١١٥) Adler : Op. Cit. PP. 166 - 167.

(١١٦) Lapidus : Muslim Cities, PP. 85 - 95.

(١١٧) المجلة التاريخية، المجلد العشرون ١٩٧٣، ص٢١٣ - ٢١٩ .

(١١٨) الخطط، ج٢، ص٩٨ - ٩٩ .

(١١٩) Margoliouth : Op. Cit. P. 157

(١٢٠) A Visit to The Holy Places. P. 99.

(١٢١) Economic and Sociel Hist. P. 174.

(١٢٢) A Visit to The Holy Places. PP. 99 - 100

(١٢٣) Dopp : Op. Cit. PP. 3, 101.

(١٢٤) Ashtor : A Social and Economic hist, PP. 225 - 291.

(١٢٥) الرحلة، ص٣٦ .

(١٢٦) السلوك، ج٢، قسم٣، ص٧٨٢، النجوم، ج١٠، ص٢٠٧ .

(١٢٧) عُقد الجمان، ج١٤، في حوادث سنة ٧٤٩هـ، مخطوط.

(١٢٨) Jussernand : English Wayfaring Life. P. 238.

(١٢٩) Atiya : Op. Cit. PP. 193.

(١٣٠) Adler : Op. Cit. PP. 151 - 156.

(١٣١) Le Voyage En Egypt. PP. 18 - 20.

(١٣٢) Treatise on the Holy Land. PP. 191 - 193.

(١٣٣) Margoliouth : Op. Cit. P.161.

(١٣٤) Ibid, PP. 162 - 163.

(١٣٥) د. حسن حبشي: رحلة طافور، ص٩٧ .

(١٣٦) ابن الأخوة: معالم القربة، ص٢٤٠ - ٢٤١ .

(١٣٧) د. سعيد عاشور: المجتمع المصرى، ص٨٤،

(١٣٨) Dopp : Le Caire Vu, Tome 26. P. 107.

(١٣٩) Adler : Op. Cit. PP.228.

(١٤٠) Atiya : Op. Cit. P. 175، السلوك، ج٢، ص١٩، د. سعيد عاشور: المجتمع المصرى، ص٨٤ .

(١٤١) الخطط، ج٢، ص١٠٧ .

(١٤٢) ابن تغري بروى: النجوم، ج٩، ص٤٨ .

(١٤٣) ابن حجر: إنباء الغمر، ج١، ص١٢٥، د. سعيد عاشور: المجتمع المصرى، ص٨٥ .

١٤٤- A Visit to The Holy Places. P. 107.

(١٤٥) Atiya : Op. Cit. P. 299.

(١٤٦) Le Voyage En Egypte. P.20

(١٤٧) نقلا عن د. عبد الرحمن زكي: القاهرة، تاريخها، ص٩١ .

(١٤٨) سيرة القاهرة، ص٢٨ – ٣٤، Dorothea Russell : Medieval Cairo, PP. 42 - 53.

(١٤٩) The Travels of P. 443.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع العربية مرتبة حسب الأحرف الهجائية:

١- ابن إياس: "محمد بن أحمد بن إياس الحنفي ت ٩٣٠هـ".

بدائع الزهور في وقائع الدهور، الجزء الخامس، نشر محمد مصطفى، القاهرة، ١٩٦١م.

٢- ابن بطوطة: "أبو عبد الله محمد بن ابراهيم اللواتي ت ٧٧٩هـ".

تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المعروفة بالرحلة - بيروت ١٩٦٤م.

٣- ابن تغري بردي: "أبو المحاسن جمال الدين يوسف ت ٨٧٤هـ".

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة أجزاء من ٧ - ١٥، دار الكتب المصرية ١٩٣٩ - ١٩٧٣م.

٤- ابن الحاج: "أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري الفاسي المالكي ت ٧٣٧هـ" المدخل إلي الشرع الشريف، ٣ أجزاء - القاهرة. ١٣٢هـ.

٥- ابن حجر العسقلاني: "شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد ت ٨٥٢هـ".

إنباء الغمر بأنباء العمر جزءان، تحقيق د. حسن حبشي - القاهرة ١٩٦٩ - ١٩٧١ .

٦- حسن حبشي: "دكتور".

رحلة طافور في عالم القرن الخامس عشر الميلادى، دار المعارف بالقاهرة، ١٩٦٨م.

٧- السخاوى: "شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ت ٩٠٢هـ".

الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج١٢، القاهرة ١٣٥٥هـ.

٨- د. سعيد عاشور: "دكتور".

المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٦٣م.

٩- السيوطى: "جلال الدين بن عبد الرحمن بن ابي بكر ت ٩١١هـ".

ما رواه الواعون في أخبار الطاعون، تشر كريمر، فيينا ١٨٨٠م.

حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة جزءان، القاهرة ١٣٢٧هـ.

١٠- عبد الرحمن زكي: "دكتور".

القاهرة، تاريخها وآثارها - الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦م.

١١- العمري: "ابن فضل الله احمد بن يحيي ت ٧٥٥هـ".

التعريف بالمصطلح الشريف، مطبعة العاصمة بمصر ١٣١٢هـ.

١٢-العيني: "بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد بن موسي ت ٨٥٥هـ".

عقد الجمان مخطوط بدار الكتب المصرية.

١٣- قاسم عبده قاسم: "دكتور".

النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك: دار المعارف بالقاهرة ١٩٧٨ .

دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، دار المعارف، ١٩٧٩ .

١٤- القلقشندى: "أبو العباس أحمد بن علي ت ٨٢١هـ".

صبح الأعشي في صناعة الانشاء ج٣، دار الكتب المصرية ١٩١٤م.

١٥- المقريزى: "تقي الدين احمد بن علي ت ٨٤٥هـ".

- الخطط المقريزية - المسماة بالمواعظ والاعتبار ٣ أجزاء طبع بولاق ١٢٧٠هـ.

- إغاثه الأمة بكشف الغمة، نشر د. مصطفي زيادة، د. جمال الدين الشيال - القاهرة ١٩٤٠م.

- السلوك لمعرفة دول الملوك أجزاء ٣ القاهرة ١٩٧١ - ١٩٧٢ .

١٦- وليم نظير: الثروة الحيوانية عند قدماء المصريين - القاهرة ١٩٦١م.

ثانيًا: المصادر والمراجع الأجنبية :

(17) Abla El Mishad : Manual of practical Microbiology : Cairo 1974.

18- Adler : Jewish Trevellers, London 1930.

19- Ashtor : A social and economic history of the near East in the Middle Ages, London 1976.

20- Atiya (AS) : The Crusade In The Later Middle Ages, London 1938.

21- Dopp : L'Egypte au commencement du quanzieme siecle, Le Caire 1950.

22- Docthea Rkussell : Medieval Cairo, Cairo 1939.

23- Frescobaldi : A visit to the Holy Places, Jerusalem 1948.

24- Henri Pirenne : Economic and Social History of Med Europe, London 1927.

25-Joinville : La vie de Saint Roi Louis, Paris 1963.

26- Jusserrand : English Wayfaring Life in the Hiddle Ages, London 1961.

27- Lapidus : Muslim Cities in the later Middle Ages, Cambridge 1961.

28- Margolioulh : Cairo, Jerusalem and Damascus. London 1907.

29- Martin Baumgarten : The Travels of Martin Baumgarten. 3 Vols. N. D.

30- Mundeville : The Travels of Sir John Mundeville : Ne Yourk 1895.

31- Prescott : Once Yo Sinia, London 1957.

32- Schefer : Le Voyage d;Outremer de Jean Thenaud, Paris 1864.

33- Voyage du Megnifique et tres illustre Chevalier Domenico Trevisan, Paris 1864.

سبل نقل الخبرة لدى أبناء الطوائف الحرفية

فى عصر سلاطين المماليك

ليس من شك فى أن الذين ساهموا فى بناء صروح الحضارة العربية على أرض مصر الحبيبة يستحقون منا التوفر على دراسة أحوالهم وظروف معيشتهم. ونقصد بهم طوائف أرباب الحرف، والذين جاء ذكرهم فى بعض مصادر العصر المملوكى على أنهم يمثلون الشريحة السادسة فى التقسيم الطبقى للمجتمع. أما الشريحة الأولى فهم أهل الدولة، تليهم شريحة أهل اليسار من التجّار، ثم الباعة، يليها أهل الفلح، فطلاب العلم والعلماء، ثم هذه الشريحة وهم أرباب المهن والأجّراء والحمّالين والخدم والسواس والحاكة والبناة والفعلة ونحوهم، وأخيرًا ذوو الحاجة والمسكنة وهم السؤال[1]. وواضح أنهم كانوا فى تناقص مستمر بسبب الأوبئة والمجاعات التى حلت بالبلاد؛ فقد قال عنهم المقريزى فى بداية القرن التاسع للهجرة، الخامس عشر للميلاد: "لم يبق منهم إلا القليل لموت أكثرهم"[2].

على الرغم من أنه فى الآونة الأخيرة قد حظيت الدراسات الحضارية المملوكية باهتمام كبير من الباحثين، إلا أنه فيما يتعلق بأرباب الحرف بوجه خاص فليس هناك سوى النادر من الدراسات حول هذا الموضوع، وأننى وإن كنت سأحاول اليوم الحديث عن وسائل نقل الخبرة لدى الطوائف الحرفية، فهذه المحاولة ما هى إلا مجرد إلقاء بعض الضوء، لأن الموضوع شائق وشائك، ويحتاج لمزيد من الوقت والجهد وهما أمران لم يتوافرا لى.

هـذا مـن جهـة، ومـن جهة أخـرى فإننى أرى أن أفضـل تسمية للتنظيمات التى انضوى تحتها أرباب الحرف فى العصر المملوكى هى: "طوائف أرباب الحرف"، عـلى الرغم مما يردده بعض البـاحثين من أن نظام النقابات كان موجودا فى مصر على الأقل منذ فترة سابقة على العصر الرومانى؛ أى سنة ٣٠ق٠م إلى سنة ٢٨٤م(٣). وإذا كان برنارد لويس قـد أفاض فى الكلام عـن النقابات الإسلامية ونظمها، إلا أنه لم يخص عصر سلاطين المماليك فى مصر والشام والحجاز بجزء من بحثه الذى يركز فيه على وجود هذه النقابات(٤). ويرى بعض البـاحثين أن نقابات أرباب الحرف كانت شـائعة فى مصـر إبان الفـتح العربى، ويعلل ذلك بأن العرب ورثوا هذا النظام ضـمن ما ورثوه من النظم البيزنطية، والتى أبقوا عليها، وظل هذا النظام معمولاً به منذ عصر الولاة إلى نهاية الدولة الفاطمية أى من سنة ٢٠-٥٦٧هـ/٦٤١-١١٧١م(٥).

أما عن وجود نقابة أو نقابات حرفية فى العصر المملوكى بالذات، فلم نعثر فى المصادر التاريخية المعاصرة على نص يفيد ذلك، وإن كان مصطلح "نقيب" قد كان معروفًا وتم استخدامه فى المصادر المعاصرة للدلالة على رئيس الأشراف: وهم سـلالة الرسول وسلالة على بن أبى طالب، أو رئيس أرباب العمامة أى جماعة المثقفين؛ حيث وردت العبارات: "نقيب الأشراف"، و "نقيب الطالبيين"، و"نقيب المتعممين" (٦). وهناك بعض المؤشرات التى قد توقع فى الخطأ مثل: مصطلح "شيخ القراءات"، و "كبير التجَّار"، و "شيخ الحرافيش"، و "شيخ الأطباء"، "الرئيس"، "عمدة المؤرخين"، و "عين المحدثين" و "شيخ الحجارين"، والحقيقة أنها كلها ما هى إلا مجرد ألقاب شرفية، أطلُقت على من كان حاذقًا لمهنته، قديمًا فيها، معولاً عليه، ثقة فى مجال تخصصه.

كذلك لم تتحدث كتب الرحلات عن وجود مثل تلك النقابات فى مصر فى ذلك العصر، وحتى كتب التراجم لم تشر إلى هذه النقابات من قريب أو بعيد، وكذلك كتب الحسبة لم تشر إليهم إلا على أنهم أرباب الصناعات، أو السوقة والمتعيشون فقط، ولعل السبب فى ذلك راجع إلى ما تميز به ذلك العصر من مميزات، فهو عصر إقطاع أولاً، احتكرت فيه الدولة كثيراً من وسائل الإنتاج، وانتشرت فيه كثير من الحمايات

التى فرضها بعض كبار الأمراء على الأسواق. فضلاً عن سياسة البذل والبرطلة التى شاعت فيه.

أضف إلى ذلك أننا لم نعثر على أية إشارة تفيد أنه كان لكل نقابة مجلس إدارة ورئيس، ولائحة تنفيذية تنظم شئونها، وتنص على أهدافها، وتوفر أفضل ما يمكن من الفرص لمستوى معيشتهم وكسب رزقهم، فضلاً عن مساعدتهم فى المناسبات التى تقتضى ذلك.

ومما يؤكد أن أرباب الحرف كانت تضمهم مجموعة الطوائف التى اختفت عند نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ليحل محلها نظام النقابات، وأن هذه الطوائف حرفية واجتماعية فى نفس الوقت(٧)، وأن أرباب هذه الطوائف تركزوا فى سكنهم وعملهم فى أماكن بعينها كشارع أو جزء من مدينة؛ ذلك لأن الإنسان بحكم غريزته الاجتماعية يميل إلى ممارسة نشاطاته ومن جملتها النشاط الاقتصادى فى إطار جماعة متعاونة، لا سيما إذا ارتبطت كل شئون عملهم بهذا المكان دون غيره. وفى بعض الحالات تباعدت أماكن ممارسة العمل بعضها عن بعض مثل "الحمَّامية"؛ أى المشتغلون فى الحمَّامات لتباعد مراكز العمل، أو مثل "الحجَّارين" أو "قلائى الأسماك" وباعة النقانق، وكذلك "القصَّارين" و"الصبَّاغين"، و"صنَّاع الفخار" و"الطحانين"، إلى جانب تفرق "الرباع"؛ أى المساكن الشعبية التى سكنها كثير من أرباب الحرف المختلفة(٨). على أن أهم ما يميز أرباب هذه الطوائف هو شعورهم بالكيان الاجتماعى الواحد؛ حيث قويت الرابطة بينهم، وصار كل يُشعر بالارتباط الوثيق بزملائه من أهل حرفته، بل ولعله سار من أقوالهم المأثورة: "الصناعة نسب"(٩).

ومن المرجح أنه كان من تقاليد الطوائف الحرفية فى ذلك العصر اختيار شيخ الطائفة، وربما جرت العادة – وكما كان الحال منذ العصر الفاطمى على الأقل – أن يتم اختيار هذا الشيخ بناء على رضاء كبار أرباب الحرفة ورغبتهم فى شغله لهذا المنصب. أما بالنسبة لاختصاصات شيخ الطائفة – رغم عدم وجود نص صريح يتعلق بأرباب الطوائف الحرفية – فإننا نستطيع قياسا على ما ذكرته بعض المصادر عن

نقابة الأشراف والطالبيين أن نقول: "لا يكون إلا من شيوخ هذه الطائفة وأجلّهم قدراً، وله النظر فى أمورهم، ومنع من يدخل فيهم من الأدعياء، وإذا ارتاب بأحد أخذه بإثبات نسبه، وعليه أن يعود مرضاهم، ويمشى فى جنائزهم ويسعى فى حوائجهم، ويأخذ على يد المعتدى منهم، ويمنعه من الاعتداء، ولا يقطع أمراً من الأمور المتعلقة بهم إلا بموافقة مشايخهم ونحو ذلك(١٠). ولما كان دخول أى فرد جديد فى حرفة من الحرف من شأنه أن ينافس أصحابها الأصليين، فإنهم كانوا لا يمرنون أحداً على طرق صناعتهم إلا أن يكون من أبنائهم، ولا يسمحون لأى شخص بمشاركتهم إلا أن يكون أتى ليحل محل أحدهم، وفى هذه الحالة يُقبل بشروط خاصة. وقد وصف لين lane الاحتفال الكبير الذى كان يقام عند قبول عضو جديد فى إحدى الطوائف فى الفترة ما بعد ذلك. وفى القرن السابع عشر للميلاد كان مشايخ الطوائف يقومون بتحصيل رسوم للقبول فى الطائفة، وعند التحول إلى أسطى، أو فتح حانوت، وكذلك رسوم على المنتجات المصنوعة(١١). كل هذا يؤكد أن هذه الطوائف كانت عبارة عن تجمعات لم تنضج بعد النضج الكافى لتصبح نقابات.

التدريب وأصوله:

بداية يجب أن نشير إلى أن مسألة التدريب، ومدته، والأجر عليه كانت كلها معروفة وممارسة قبيل الفتح العربى لمصر، وأن التدريب شمل الصبيان والبنات. إذ تشير أوراق البردى إلى قيام طوائف أرباب الحرف بمساعدة هؤلاء الحرفيين وتدريبهم على يد معلمين مهرة فى المهنة أو الحرفة. كما وجدت عقود تدريب ترجع إلى العصر البيزنطى، وتتضمن مدة التدريب والأجر عليه، وبعد الفتح العربى استمرت التقاليد التى كانت معروفة من قبل، كما كانت الخبرة مما يساعد على تعلم المهن واكتسابها، كما كانت أسرار الصناعات تنقل شفهيا وعمليا من أرباب الحرفة وشيوخها إلى أبنائهم داخل الحوانيت(١٢).

وفى عصر سلاطين المماليك فمنذ العصر الفاطمى وطوال عصر سلاطين المماليك شهدت البلاد تطوراً كبيراً فى مجال الفنون والصناعات المختلفة، ونشاطا ملحوظًا فى الحركة العلمية وازدهار العلوم والآداب، إذ نرى العديد من المؤلفات التى وضعت فى مجال صناعة الزجاج وسك النقود والصناعات المدنية الدقيقة، وفى صناعة التشييد والبناء، وكان أكثر المؤلفات فى صنعة الكيمياء وتطبيقاتها العملية، ولا شك أنه أمكن الاستفادة منها فى مجال التدريب والتعليم، وهذا يدل على أن الحرفى فى ذلك العصر أصبح رجلاً متعلماً يمارس مهنته على أصول مقررة مسطورة فى كتب وضعها رجال الصنعة الممارسين لها، ومن العلماء البارزين فى نفس الوقت، والذين ربما كانوا من أبناء أرباب الحرف المختلفة، لأنهم كانوا يستخدمون المصطلح الدارج بينهم والعبارات التى لا يفهمها إلا أرباب الحرفة أنفسهم. وأدرك المعاصرون ما أدركناه نحن فى العصر الحديث من أن الفرد منذ بداية وعيه فى حاجة إلى التدريب حتى يصبح عضواً منتجا فى مجتمعه. وأن ذلك لن يتأتى إلا عن طريق التدريب الذى هو بمثابة عملية تعليم مقصودة ومنظمة ومقننة لتعليم وإجادة حرفة معينة، وأن تدريب الفرد يعد من أكبر العوامل التى تؤدى إلى رفع مستوى إنتاجيته، وزيادة كفاءته على الأداء، والتقليل من كمية التلف فى الأدوات والمواد المستخدمة فى عملية الإنتاج(١٣) وهذا ما عبَّر عنه خير تعبير ابن خلدون – وهو معاصر – عندما قال: إنه لا بد للصانع من معلم، وعلى قدر جودة التعليم وملكة المتعلم تكون المهارة وحصول الملكة(١٤). ولأن كثيراً من الحرف كانت تمارس بشكل وراثى داخل العائلة الواحدة، وتنتقل من الآباء إلى الأبناء ليرثوها ضمن ما يرثون من وضع اجتماعى عبر عصور موغلة فى القدم(١٥)، فإن التدريب كان بقصد المحافظة على أسرار الحرفة فى نطاق الأسرة الواحدة التى تتوارث هذه الحرفة أو تلك، بالإضافة إلى الاشتهار بالمكانة وجودة الأداء، وكسب رضا المنتفعين، وما يترتب على ذلك من رواج، إلى جانب تجنب الوقوع تحت عقاب السلطة الحاكمة ممثلة فى المحتسب وأعوانه(١٦).

ولأن الخروج من دائرة أرباب الحرف كان أمراً متعذراً؛ لذلك دأب أصحاب الحرف على استمالة ذويهم إلى ممارستها بغرض الحث على استمرار وتوارث الحرفة،

وتوريث الأبناء أدوات ممارسة الحرفة ومهارتها مما أثمر بقاء الحرفة وتوريثها بين ظهراني ممارسيها(١٧). كما كان من تقاليد الطوائف الحرفية أن يحتفظ أفرادها بالأسرار الفنية الدقيقة للحرفة التى حصلوا عليها بالخبرة والممارسة العملية(١٨). ومن الواضح أنهم كانوا يراعون القدرات الفردية لكل متعلم، فيكلفونه بالأعمال التى تتفق وهذه القدرات، وكذلك الإمكانات العقلية الفردية(١٩).

كما كان من النادر أن يقوم بعض شيوخ الحرف أو المعلمين فى ذلك العصر بوضع مؤلفات، يمكن الاستفادة منها فى أعمال التدريب، ولكن تولى هذه المهمة بعض الفقهاء الذين دونوا كثيرا من تلك المعلومات فى كتاباتهم خاصة منها ما يتعلق بكتب الحسبة، أو كتب النقد الاجتماعى، مثل المقريزى فى كتابه: إغاثة الأمة بكشف الغمة، والسبكى فى كتابه: معيد النعم ومبيد النقم، وابن الحاج فى كتابه: المدخل إلى الشرع الشريف، وابن خلدون فى كتابه: المقدمة، وإن كانت هناك بعض كتب فى فن الطهى مثل: كتاب المؤلف المجهول واسمه كنز الفوائد فى تنويع الموائد، وكتاب وصلة الحبيب فى وصف الطيبات والطيب لمؤلف مجهول كان موجوداً سنة ٦٩٦هـ، يتحدث فيه عن كيفية طبخ الأطعمة حسب الطريقة المتبعة فى عصر سلاطين المماليك.

وبالرغم من اتخاذ الأبناء حرفة آبائهم، غير أنه لم يكن هناك ثمة ما يقتضى إتباع هذه القاعدة على الدوام، فبعض الأبناء اتخذوا من الحرف ما يشاءون عن طريق التلمذة الصناعية، وكلمة تلمذة معربةٌ عن السريانية، وهى تطلق على المتعلم على يد أستاذ، كما شاع استخدام الكلمة على الصانع الذى ينتسب لأستاذ فى صنعته، وذلك كما ورد فى بعض الكتابات على التحف الفنية العربية(٢٢). أضف إلى ذلك أن الكثيرين من الفقهاء، وكبار رجال الدين، والشعراء، وأرباب الوظائف المختلفة عند الترجمة لهم نعثر على ألقاب نسبتهم إلى كثير من الحرف كأن يقال لواحد منهم: ابن الخيّاط، ابن الجزّار، ابن الصائغ، ابن النجّار، ابن البناء، ابن القيّم، ابن الخرّاط.

ومما لا شك فيه أن نظام الطوائف الحرفية نفسه كان بمثابة مدارس فنية تشرف على إعداد الصبية "الصبيان" ليكونوا بدورهم أرباب حرف. فالعبارة التى ذكرها

المقريزى في حديثه عن قيسارية طاشتمر وقال فيها: كان بها عدد كبير من عقادى الأزرار حتى غصت بهم مع كبرها وكثرة حوانيتها، وكان لهم منظر بهيج فإن أكثرهم من بياض الناس وتحت يد كل مُعَلِّم منهم عدة صبيان من أولاد الأتراك وغيرهم"(٢٣). فكلمة "معلِّم" هنا قصد بها ذلك الحرفى الذى حذق أسرار مهنته، وجلس يشرف على "الصبيان" يلقنهم ويعلمهم أسرار المهنة، ويدربهم عليها ليكونوا من أرباب هذه الحرفة مستقبلاً. ونراه فى موضع آخر وهو يتحدث عن سوق المحايريين - والمحاير جمع محارة وهى مرادفة للمحفة، صندوقان يشدان إلى جانب الرحل كالهوادج التى تحمل على الجمال ويُسافر فيها إلى الحجاز والقدس وغيرها - هذا السوق مكانه قرب الجامع الأقمر، واستحدث آخر قرب الجامع الطولونى على عهد المقريزى، واشتهر الباعة فيه بتحديد أثمان منتجاتهم بغير مساومة. يقول المقريزى: "وبلغنى عن شيخ كان بهذا السوق أنه أوصى بعض صبيانه فقال له: يا بنى لا تراع أحداً فى بيع فإنه لا يحتاج إليك إلا مرة فى عمره فخذ عدلك فى ثمن المحارة فإنك لا تخش من عوده مرة أخرى إليك وسوف إذا عاد من سفره إما إلى الحجاز أو القدس يحتاج إلى بيعها فتراقد عليه فى ثمنها واشترها بالرخيص وكذلك يفعل أهل هذا السوق إلى اليوم فإنهم لا يراعون بائعاً ولا مشترياً"(٢٤). ويفهم من هذا النص أن التدريب شمل أيضاً فن البيع والشراء، وأنه كان يتم تدريب الصبيان على ضرورة مراعاة الزبائن والبيع لهم بسعر معقول لاجتذابهم، وليصبحوا زبائن مستديمين عندهم. ومن فنون البيع التى حرص أرباب الحرف على تعليمها لصبيانهم ألا يثنى الواحد منهم على السلع بما ليس فيها، ويتعلم أن يثنى على السلعة بما فيها من مزايا ومحاسن وفوائد وغير ذلك(٢٥).

وكما شمل التدريب الإتقان، فقد شمل ضرورة تحرى الصدق؛ فعند تعاقد الواحد منهم على أداء عمل معين يجب عليه الصدق كل الصدق، فلا يُهَوِّن على الزبون شيئا قبل الشروع فى تنفيذه، ويظهر له قلة التكلفة، وبعد الشروع يفاجئه بزيادات رهيبة تربك ميزانيته. كذلك شمل التدريب محاربة الرشوة "البرطلة"، فقد جاء فى بعض كتب المعاصرين بعض التعليمات الصارمة بهذا الشأن، ولنضرب مثلاً بما جاء بخصوص

طائفة البنائين، والذين تحتم عليهم ألا يأخذوا من "الجيارين" ولا من "الجباسين" رشوة ولا هدية ليكفوا عنهم قلة نضج الجبس ورداءته، هذا إلى جانب ضرورة تحرى دقة المواعيد، لأن عدم الدقة من شأنه الإضرار بالزبائن لكثرة ترددهم فى طلب حاجياتهم(٢٦).

كذلك شمل التدريب بعض الامور الصحية، ومنها رش الماء أمام الدكاكين لعدم إثارة الغبار الضار بالصحة العامة، ولتلطيف درجة حرارة الجو، إلى جانب ملء الزير الموضوع بجانب كل دكان؛ مخافة حدوث الحريق فى مكان فيطفأ بسرعة، فضلاً عن تعليق القناديل على أبواب الحوانيت ليلاً بعد إشعالها(٢٧).

كما كان يتم تزويد "الصبى" بعدة وصايا تعتبر نموذجًا لآداب الحرفى المصرى فقد جاء فى وصية أحد المعلمين: "وأوصيه كما أوصى إخوانى ونفسى المخالطة بالأدب الجميل، وتواضع النفس، وحملها على مكارم الأخلاق، وأن لا يرفع نفسه على أحد، وأن لا يحقر أحدًا من خلق اللّه، وأن يجعل دأبه لزوم الصمت والإدمان والقناعة بالقليل مع المداومة على ذكر اللّه بالسكينة والوقار، وأن يسمى اللّه فى أول مسكه فى صنعته، ويستمد من اللّه القوة والحول، ولا يضجر ولا ييأس من روح اللّه.." (٢٨) ولعله حدث فى ذلك العصر ما كان يحدث فى العصر العثمانى من أنه عندما يجيز شيخ الطائفة ترقية أحد الصبيان إلى المرتبة الأعلى فإنه كان يوصيه قائلا: "يا بنى إن جميع الحرف هى كارات أمانة على الأموال والأعراض والأرواح، والأمانة هى الدين، فإذا نفق كارك احفظ دينك، كن صادقًا وأمينًا، واعلم أن كارك مثل عرضك فحافظ عليه بمقدرتك، وإذا استلمت أموال الناس فلا تفرط بها، وإياك أن تخون أهل الحرفة، والخائن قبيله الديان"(٢٩).

وعن موقف المشتغلين بالحرف من التدريب واكتساب الخبرة، فواضح أنهم كانوا مدركين تمامًا لأهمية التدريب لما فيه من رفع مستواهم الفنى والحرفى، وهذا وحده يكفى لرفع أجورهم وتحسين مستوى معيشتهم. وفى ذلك يقول ابن خلدون: "قيمة كل امرئ ما يُحسن، بمعنى أن صناعتهم هى قيمته أى قيمة عمله الذى هو معاشه.."(٣٠)

ثم يبين للمعاصرين أهمية التدريب فى السن الصغيرة فيقول: "ومن كان على الفطرة كان أسهل لقبول الملكات وأحسن استعداداً لحصولها. فإذا تلونت النفس بالملكة الأخرى وخرجت عن الفطرة ضعف فيها الاستعداد باللون الحاصل من هذه الملكة، فكان قبولها للملكة الأخرى أضعف. وهذا بين يشهد له الوجود. فقل أن تجد صاحب صناعة يحكمها ثم يحكم من بعدها أخرى ويكون فيهما معًا على رتبة واحدة من الإجادة.." [٣١].

وينبغى أن نشير إلى أن المعاصرين فى ذلك الزمان قد أدركوا الجو النفسى الذى قد يحيط بعملية التدريب، وأن "الصبى" قد يعانى من توتر وصراع نتيجة الخوف من العجز عن الوصول إلى ما يتوقعه منه الآخرون، أو ما يتوقعه هو من نفسه، أو نتيجة الخوف من نبذ الطائفة له، أو فقدان مكانته بينهم، أو من اكتشاف نقائصه[٣٢]. لذلك أوصوا بأن يقوم بالتدريب الأشخاص الحاذقون لحرفهم، لأنهم بذلك يكونون قادرين على تقديم التدريب الجيد والنافع الذى يتناسب مع مهارتهم وحذقهم، وبقدر ما هم عليه من مهارة وحذق بقدر ما يفيدون صبيانهم فيتخرجون مهرة أمثالهم. وهذا ما أشار إليه ابن خلدون فى قوله: "وعلى قدر جودة التعليم وملك المعلم يكون حذق المتعلم فى الصناعة وحصول ملكته"[٣٣].

وفى موضع آخر يبين لنا القواعد التى يجب أن يسير عليها "المعلم" فيقول: "أعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيداً إذا كان على التدريج شيئا فشيئا وقليلاً قليلا"، مع "مراعاة عقل "الصبى" واستعداده لقبول ما يرد عليه، حتى ينتهى إلى آخر الفن، وعند ذلك يحصل له ملكة فى ذلك الفن"[٣٤]. وعندما يتقن الصبى جزئية تعلمها، يطلب منه "المعلم" تنفيذ هذه الجزئية كثيراً "لأن الملكات إنما تحصل بتتابع الفعل وتكراره، وإذا تنوسى الفعل تنوسيت الملكة الناشئة عنه". ولا يطلب منه "المعلم" تعلم جزئيتين معا "لما فى ذلك من تقسيم البال وانصرافه عن كل واحد منهما إلى تفهم الآخر، فيستغلقان معا ويُسْتَصعبان، ويعود منهما بالخيبة. وإذا تفرغ الفكر لتعليم ما هو بسبيله مقتصراً عليه، فربما كان ذلك أجدر بتحصيله.."[٣٥] وبعبارة أخرى

يمكننا القول: أن "الجو التدريبى" كان يسهل للصبى المحاولة والتجريب، وكان "المعلم" يتحمل نتيجة الوقوع فى أخطاء المحاولات الأولى للقيام بأنواع جديدة من السلوك. وأن إحساسه بالانتماء إلى إحدى الطوائف الحرفية كان دافعا له لأن ينقل إلى غيره فى محيط العمل خبرته التى تعلمها، وطبيعى أن تزداد احتمالات نجاحه فى هذا الاتجاه كلما وجد استجابة مناسبة من جانب أولئك "الصبيان" الذين يرتبط بهم فى العمل[٣٦]. والذين كانوا فى حاجة ماسة إلى التعرف على أسرار المهنة، حتى يصبح الواحد منهم جيداً فيها ويصل إلى مرحلة يطلق فيها عليه "الصانع"، ثم يتدرج إلى أن يصل إلى مرحلة النضج والكمال والتى يطلق عليه فيها "المعلم" ثم "الأستاذ" أو "شيخ الصنعة" وهى أرفع درجة فى الحرفة. كما يدربه على ما سوف يطلب منه فى الاحتفالات التى تقام لترقيته من مرحلة لأخرى أمام شيخ الطائفة وكبار الأساتذة[٣٧]. هذا التدرج فى الحرفة جاء عند الخالدى عندما تحدث عن "أستادار الصحبة"؛أى المشرف على مطبخ السلطان ومائدته، فقال عنه: إنه هو المتحدث على "معلمى الطبخ وصناعهم وصبيانهم"، أما كلمة "أستاذ" فقد وردت فى توقيعات بعض أرباب الحرف على القطع الخزفية المصرية، وكذلك عبارة "ابن المعلم الأستاذ" و "شيخ الصنعة"، أما كلمة "الأسطى" فقد كانت أكثر شيوعًا فى العصر العثمانى[٣٨]. أما "العريف" فقد أطلقت فى ذلك العصر على من يختاره المحتسب معاونا له من أرباب الطوائف الحرفية، لكى يساعده على معرفة أحوال كل طائفة وما يقومون به من غش، لعدم خبرة المحتسب بهذه الحرف كلها، يبلغه بكل ما يخصهم.

التدريب العملي:

شمل التدريب العملى كل المشتغلين بالحرف من الصبيان، ونظرًا لضخامة أعداد الحرف فى ذلك العصر، ومراعاة لطبيعة البحث، فإننا سنقتصر حديثنا على عدة نماذج مختارة من الحرف التى ترتبط بالغذاء والخدمات العامة ومنها:

قلاء السمك

تأتى حرفة قلاء السمك فى مقدمة الحرف المتعلقة بالغذاء فى مصر المملوكية؛ وذلك راجع إلى أن أهل مصر كان لهم ولع خاص بأكل الأسماك الطازجة والمحفوظة؛ أى "المملحة"، لذلك كثر عدد السماكين فى كل مكان. وهذا ما عبَّر عنه المقريزى عمدة مؤرخى ذلك العصر فى قوله: "وكثير من أهل مصر يكثرون أكل السمك طريًا ومالحًا.."[٣٩] واستمر إقبالهم على تناول مقادير كبيرة من الأسماك فى العصر العثمانى كذلك[٤٠].

ويبدو أن وفرة إنتاج الأسماك فى مصر ورخص ثمنها دفعت المصريين إلى الإقبال على أكلها، وعدم إكثارهم من اللحوم، هذا إلى جانب أن الأسماك كانت تصاد بكميات كبيرة فى أيام الفيضان، فعند فتح الخلجان والقنوات ليتدفق إليها ماء الفيضان، يدخل السمك الوفير ويبقى فى الخلجان بعد انحسار الماء فيصبح من السهل اصطياده، فيأخذه الناس ويأكلون كفايتهم ويكبسون ما بقى منه بالملح ويبيعونه للتجّار لينتقل إلى أنحاء البلاد[٤١]. بالإضافة إلى ما كان يرد لمصر من سمك البقلة "البقلاة" أو "البكلاة" والذى كان يصاد من بحيرة وان ببلاد الأرمن ويملح، ويأتى إلى مصر شبه مجفف ومحفوظ فى الملح[٤٢]. وبوجه عام كانت الأسماك فى مصر كثيرة لكثرة مصايد الأسماك، كما كانت أسماكها تلقى رواجًا هائلاً فى السوق المحلية وفى الأسواق الخارجية، وخصوصًا سمك الأبرميس، وهو نوع من السمك كان يعيش فى بحيرة تنيس، ويحمل إلى الآفاق مملوحا[٤٣]. وهذا النوع من السمك، وغيره من الأسماك المملحة كانت ذات شهرة فى العصر البطلمى، وربما من قبل ذلك فى العصر الفرعونى[٤٤]. واعتمد الناس عليها فى طعامهم معظم أيام السنة، إلى جانب الخضروات الطازجة، حتى القرن الثامن عشر للميلاد وكذا عند مجىء الحملة الفرنسية إلى مصر[٤٥].

كان "المعلم" يدرب " الصبيان" الصغار على كيفية غسل القفاف والأطباق التى يحملون فيها السمك، وينثرون فيها الملح الناعم "المدقوق" كل ليلة بعد الغسل، وغسل

الموازين والآنية المصنوعة من الخوص؛ حتى لا يكون ذلك سببًا فى فساد الأسماك وتغير رائحتها. وبالنسبة للأسماك التى سوف يتم قليها أو حشوها بالبصل والتوابل وطبخها مع الأرز، أو الكشك، أو مع الأرز مضافًا إليها ماء الليمون، فكان يطلب منهم غسل هذه الأسماك جيدًا بعد شقها وتنظيفها وتنقية ما بها من قشور. أما الأسماك التى سيتم قليها فينثرون عليها الملح والدقيق، وغالبًا ما تكون نسبة الدقيق إلى السمك ١٠٪ من وزن السمك، ثم يقلونه بعد أن يجف من نداوته حتى لا يتناثر الزيت المغلى عند القلى بكميات كبيرة[٤٦]. أما الأسماك التى ستطبخ فقد كان يدربهم على طبخها فى طواجن مع بصل مخروط وزيت حار ووضعها على النار أو دفنها فى رماد الفرن الساخن إلى أن يتم نضجها مع التوابل التى تضاف إليها، ومنها الكزبرة والكراوية، والكمون، والقرفة، والفلفل، والزنجبيل، والمصطكى، والقرنفل، وجوز الطيب، والصعتر "السعتر أو الزعتر"، وأوراق النعنع وغيرها[٤٧]. وربما كان يدربهم على عمل بعض الأكلات من السمك مثل أكلة "السمك المسكبج" وهو سمك يقلى ثم يوضع فى خل مصبوغ بالزعفران[٤٨].

كما كان يدرب أحد صبيانه على كيفية تجهيز "الصحناة" أو "الصير"، وهى السمك الصغير الذى يصاد من النيل عند الفيضان وانصراف الماء، ولا يزيد عن الإصبع فى حجمه، ويسمى أيضا الملوحة إذا كبس بالملح، ويسمى إذا كان طازجًا "البسلرية" وتؤكل مشوية ومقلية[٤٩].

كذلك كان يدرب صبيانه على قلى السمك، وآخر على شى السمك، وثالث على سلقه بإلقائه فى الماء المغلى، ورابع على تمليح السمك[٥٠]. ويدربهم على تجهيز السمك المملح بنقعه أولا فى الماء لمدة طويلة ليتخلص السمك من الملح ويستعيد بعض طراوته، ثم نقعه فى الخل والزيت والتوابل حتى ينصلح مذاقه تمهيدا لقليه وتقديمه للراغبين فى تناوله[٥١]. وبالنسبة للأسماك المملحة والتى يراد حفظها فإنه يعلمهم ضرورة زيادة كمية الملح إليها حتى لا تفسد بسرعة، وفى حالة فسادها فكان عليهم أن يتخلصوا منها بإلقائها فى المزابل، خارج البلد[٥٢].

كما كان يدرب صبيانه على حفظ الأسماك من الذباب بالذب عنها بالمذبة "المنشة" ويدربهم على نزع ما يتخلف فى المقلاة من بقايا الدقيق، أو بقايا السمك حتى لا يسود زيت القلى أو يتغير طعمه أو رائحته[٥٣]. ويدربهم على ألا يخرجوا السمك المقلى من المقلاة حتى يتم نضجه من غير سلق ولا إحراق عندما يصفر لونه، أما السمك المشوى فيجهزون له التوابل بنسبة ١٠٪ من وزنه، وألا يخرجوه من الفرن حتى يكتمل نضجه[٥٤]. كذلك يتم تدريبهم على التمييز بين السمك الطازج "الطرى" وغير الطازج "البائت" عن طريق فتح الخياشيم، فالسمك الطازج تكون خياشيمه محمرة والعكس صحيح. وبعض السماكين كان يدرب صبيانه على غش الزيت عند القلى بوضع الشحم المستخرج من بطون الأسماك مع بعض الزيت عند قليه، أما الذين يحافظون على سمعتهم فإنهم يتبعون أفضل طريقة للقلى ويدربون صبيانهم عليها، وهى التى تتم فى زيت الشيرج، مع ضرورة تغيير زيت القلى إذا أخذ فى التغير من حيث اللون أو الطعم[٥٥].

وأخيرًا ينبغى أن نشير إلى أنه فى أوقات الأزمات الاقتصادية لم يتقيد كثير من أرباب هذه الحرفة بما يجب أن تكون الحال عليه، فلجئوا إلى الغش فى الموازين والمكاييل ونوع المبيعات رغبة فى تعويض الأموال التى غرموها فى كثرة الضرائب من جهة، وتحقيقا لمزيد من الأرباح من جهة ثانية. فقد ذكر السخاوى فى حوادث سنة ٨٤٧هـ أنه "كثر التطفيف فى الموازين والغش فى البضائع، وفشا ذلك فشوًا منكرًا وطمع السوقة لما جُعل عليهم من الرواتب الشهرية والجمعية"، وهو ما يؤكده ابن إياس فى سنة ٩٠٧هـ مرة أخرى[٥٦].

النقانقى :

هو من يصنع "النقانق"، بأن يأخذ أمعاء الخروف فتغسل وتنظف ثم تحشى بلحم الضأن المفروم والبصل والصنوبر والتوابل، ثم تقلى بزيت الشيرج ويبيعها لمن يرغب فيها، وهى من الأكلات المفضلة فى كثير من أنحاء العالم العربى خصوصًا فى مصر

والشام فى ذلك العصر، بل وحتى فى عصرنا الحالى[٥٧]. أما عن السر فى انتشار هذه الأكلة، أو هذا النوع من الطعام فى مصر فراجع إلى حب المصريين للحم الضأن قبل كل شىء، ولكن الطبقات الشعبية لا يمكنها أن تستمتع بهذا الترف إلا أيام المناسبات الهامة[٥٨]. أضف إلى ذلك أن العملة قد فقدت قوتها الشرائية منذ بداية القرن التاسع الهجرى، الخامس عشر للميلاد بسبب التضخم الناجم عن عدم استخدام الذهب والفضة والاعتماد على النحاس كقاعدة للمعاملات، مما أدى إلى ارتفاع الأسعار بشكل مهول[٥٩]. وخصوصا لحم الضأن الذى تضاعف سعره، وأصبح هذا النوع من اللحوم أبعد من أن يكون طعامًا يوميًا لعامة الناس، فأقبلوا على الأطعمة التى بها بعض لحوم الضأن وبخاصة النقانق[٦٠].

وأرباب هذه الحرفة كانوا يدربون صبيانهم على تنقية لحم الضأن مما به من جلد وعظام، والقيام بدقة دقًا ناعمًا على القرم النظيفة، بينما يقوم أحدهم وفى يده مذبة "منشة" يطرد بها الذباب، كما يتم تدريبهم على خلط اللحم بالبصل والتوابل بنسب متعارف عليها بحسب الوزن، إلا أنه لم يتم التقيد بهذه النسب بسبب الارتفاع المستمر فى الأسعار. بحيث نسمع عن تدريب هؤلاء الصبية على عمليات الغش التى شاعت، ومنها وضع لحوم رءوس الماشية المذبوحة مع البصل والتوابل بدلاً من لحوم الضأن، أو خلطهما معًا، ومنهم من يدربهم على حشو النقانق بالكبد والكلاوى بعد فرمها، ومنهم من يغشها باللحوم الواقعة الهزيلة، أو يخلطها بلحوم الإبل والبقر الواقعة. ومنهم من كان يطلب من صبيانه رش الماء على اللحم قبل وزنه حتى يزيد وزنه، أو حشوها بلحم السمك المشوى والتوابل، ومنهم من يغشها بالفول النابت المقشور وقلب البصل المقشور المقطع، ويدربهم على قلى هذه النقانق فى الدهن المستخرج منها عند تنظيفها وتنقيتها، ثم ينثرون عليها بعد قليها التوابل المسحوقة والصالحة لها[٦١].

ومنهم من يدرب صبيانه على خلط لحم الضأن بالشحم "الدهن"، ومنهم من يدربهم على الغش بوضع شىء من لحوم بطون البهائم، أو خلط لحم الضأن بشىء من

السميذ، ومنهم من يغشها بلحوم الماعز. كذلك كانوا يدربون صبيانهم على ضرورة تغيير الطاجن الذى تُقلى فيه النقانق كل ثلاثة أيام، وتغيير زيت الشيرج بزيت طازج، كما يتم تدريبهم على كيفية نثر الملح عليها بعد قليها، وكذلك التوابل المسحوقة(٦٢).

وتجب الإشارة إلى أن الحرص على حشوها بلحوم الضأن، راجع إلى أن الضأن من أفضل اللحوم طعمًا، وأغلاها سعرًا؛ ذلك لأن الخراف كانت لا تعتمد فى طعامها على الكلأ والمراعى فقط، بل كان أصحابها يعلفونها على مدار السنة بالفول وتبن القمح والشعير والعدس والحلبة وعيدان الذرة الخضراء(٦٣) ومن الحرف المتعلقة بالغذاء أيضًا تأتى حرفة:

اللبان:

كانت الألبان ومنتجاتها من الأطعمة التى يقبل عليها العامة والخاصة فى مصر منذ العصر الفاطمى(٦٤). وتشير بعض المصادر المعاصرة إلى أن مصر كانت تنتج مقادير كبيرة من الألبان وذلك لوجود أعداد كبيرة من البقر الحبشية المؤبدة للحلاب أى المخصصة للحليب، مقصورة عليها(٦٥).

ومن الملاحظ أن اللبان أو بائع اللبن فى العصر المملوكى لم يقم بعمل الجبن وكما هى الحال فى عصرنا الحالى، فقد ذكرت بعض المصادر أن من يقومون بعمل الجبن وبيعه هم الذين عرفوا باسم "قلائى الجبن المقلى"، وأنهم كانوا يقومون بعمل نوع من الجبن عرف باسم "الجبن المشوى"، وأنه كان من النوع "الناشف من الماء"(٦٦).

كان بائع اللبن أو اللبان يدرب صبيانه على ضرورة تغطية الأوانى التى يحفظ فيها اللبن بأغطية من القماش النظيفة، وعند غسلهم تلك الأوانى وهى التى عرفت باسم "القصارى والمواعين" أن يقوموا بغسلها بقطع من الليف الجديد والماء النظيف لئلا يسارع الفساد إلى اللبن فى زمن الحر بوجه خاص(٦٧).

وواضح مما أشارت إليه بعض المصادر أنه كان يقسِّم العمل عليهم، بحيث يكون كل صبي منهم مسئولاً عن عمل بعينه؛ حيث جاء النص: "ولا يعمل كل واحد منهم فوق وظيفته"[٦٨] كما كان يدربهم على عمل اللبن الرايب، بإضافة بعض المواد الحمضية، وكذلك لبن السلاطة بإضافة الملح إلى الحليب بعد نزع الدهون منه،ومن المرجح أنه كان يدربهم على عمل "اللبن الزبادي"، والذى استمد اسمه هذا؛ لأنه كان يعبأ فى زباد مصنوعة من الفخار[٦٩].

كذلك كان يدربهم على كيفية الكشف عن غش اللبن عند استلامه ممن يحضره من "الزريبة"، وذلك بوضع قطعة من نبات يسمى "حشيشة الطحلب" فى الحليب، فإن من خواصها أن تفصل الماء عن الحليب، أو بغمس شعرة فى الحليب ثم إخراجها، فإن لم يعلق بها شيء من الحليب يكون مغشوشًا بالماء وإن علق عليها شيء من الحليب كان خالصا. أو بوضع قطرة من الحليب على قطعة قماش فإن كان مغشوشًا تشربت قطعة القماش الماء، وإن لم تتشرب كان الحليب خالصًا ويبقى مكانه[٧٠]. كما كان يدربهم أيضا على معرفة غش اللبن عن طريق التذوق والشم، فاللبن الصافى هو ما كان طبيعياً لا يخالطه شيء من الحموضة والحرافة والملوحة، بل تكون فيه حلاوة يسيرة ورائحة طيبة[٧١]. ومن الحرف المتعلقة بالخدمات تأتى حرفة:

الحمَّامي:

ذخرت جميع المدن المملوكية فى مصر والشام والحجاز بالحمَّامات العامة، والتى قصدها الناس من مختلف الطبقات رجالاً ونساء للاستحمام؛ ذلك أن الناس فى ذلك العصر – وطوال العصور الوسطى – لم يألفوا الاستحمام فى منازلهم، ولعل ذلك راجع إلى مشكلات الصرف الصحى فى مدن ذلك العصر والتى كانت السبب فى عدم وجود حمَّامات فى المنازل بصفة عامة. فضلا عن أن بعض الحمَّامات كانت تستخدم لعلاج بعض الأمراض لما بها من مياه معدنية والتى غالبًا ما كان يُطلق على الواحد منها "حمَّام الشفا"[٧٢]. ومن المعروف أن وظيفة الحمَّام فى ذلك العصر شملت إلى جانب

الاستحمام الحلاقة وإزالة الشعر من بعض مناطق الجسد، فضلاً عن أن الحمَّام كان يعتبر أحد المراكز الاجتماعية، فدخول مريض للحمَّام كان يعنى شفاءه من مرضه، وفى الحمام يتناقل المستحمون كثيراً من أخبار حياتهم الاجتماعية، فضلاً عن أن العريس والعروس يجب على كل منهما دخول الحمَّام قبل الزفاف. وقد كان للحمَّام باب يؤدى إلى مسلخ به بعض الأواوين والتى كانت بمثابة المصاطب المكسوة بالرخام حيث يستريح طالب الاستحمام، ومن المسلخ ينتقل المستحم إلى غرفة دافئة يتم فيها نزع ملابسه ويضع حول وسطه فوطة تصل إلى الركبتين، ثم ينتقل إلى الغرفة الرئيسية وغالبًا ما تسمى "بيت الحرارة"؛ حيث يقوم عامل مخصوص بتدليك جسمه وغسله بالماء الساخن الذى يوجد بالمغطس، وبعد الاستحمام يجفف المستحم جسمه بالمناشف ويزيل البلان الشعر من بعض المواضع إذا لزم الأمر، ثم ينصرف المستحم إلى الغرفة الأولى حيث يقضى بعض الوقت ويرتدى ملابسه وقد يتناول بعض المرطبات(٧٣).

وقد كان يتحتم على "الحمَّامى" أن يدرب أحد صبيانه على كيفية غسل وكنس الحمَّام، وتنظيفه بالماء الطاهر غير الماء المستخدم فى الاستحمام، وأن يفعل ذلك مراراً فى اليوم، وأن يدلك البلاط بالأشياء الخشنة، وأن يغسل فى كل يوم حوض النوبة من الأوساخ المتجمعة فيه، وكذلك الفساقى والقدور من الأوساخ التى تتجمع فيها، والمجارى من الماء العكر الراكد فى أسفلها فى كل شهر مرة(٧٤).

وعليه أن يدرب بعض صبيانه على تنظيف المقاصير باستمرار، وكذلك المسلخ ومقاصيره التى تخصص لبعض علية القوم، وغلق الأبواب عليهم لمنع اختلاط عامة الناس بهم أثناء استحمامهم. كما يدرب بعضهم على تفقد القدور التى يتم فيها تسخين المياه بدرجات مختلفة لتزويدها بالماء اللازم لنقص الماء منها كل حين ولأنها هى المصدر الرئيسى للمغطس فى بيت الحرارة، كما يدرب بعضهم على فرش الأتون التى هى مقر النار بنحو خمسين أردبًا ملحًا، وهكذا يفعلون بأرض الأفران، لأن الملح من طبعه حفظ الحرارة. كذلك يدرب عدداً من صبيانه على المسارعة إلى خدمة المترددين على الحمَّام، وخصوصًا عند قيامهم بتكييس أعضاء الجسم، وأن يضع كل

واحد منهم فى يده كيسًا من الساف [شعر الذنب]، وكذلك عند قيامهم بتليين المفاصل أن يقوموا بطقطقة كل الأطراف برفق(٧٥). كما يدرب بعضهم على كيفية تدليك أجسام المستحمين، مع مراعاة أن يدلك الواحد منهم يديه بقشر الرمان لتصير خشنة فتخرج الوسخ، ويستلذ بها الإنسان، وألا يدلك الواحد منهم يديه بالفول والعدس لأنهما من الطعام، ولا يجوز أن يمتهنا(٧٦). وألا يأكل الواحد منهم فى يوم نوبته ما يغير رائحة فمه كالبصل والثوم والكرات وأشباه ذلك، لئلا يتضرر الناس برائحة فيه(٧٧). وأن يستخدم البخور مرتين فى اليوم على الأقل، وألا يدع الواحد منهم أحدًا من الأساكفة وأصحاب اللبد يغسلون شيئا من اللبد ولا من الجلد فى الحمَّام حتى لا يتضرر الناس برائحتها، وأن يحرصوا على تزويد الزير الكبير فى الحمَّام بالماء العذب ولا سيما فى زمن الحر، وأن لا يسمحوا لمجذوم أو أبرص بدخول الحمَّام لأى سبب كان حرصا على سلامة المترددين(٧٨).

وعلى الحمَّامى أن يدرب بعض صبيانه على إعداد المآزر التى يقدمها للمستحمين لستر عوراتهم. وكان يعلمهم كيفية إعداد هذه المآزر؛ بحيث تكون عريضة وتستر ما بين السرة والركبة، كذلك يدرب بعضهم ليكون مسئولاً عن حفظ ملابس الناس، وهو الذى عرف باسم "الوقاف"، فيدربهم منذ الصغر على تسلم ملابس الأشخاص ومتعلقاتهم وحفظها فى أماكن مخصصة، وكتابة اسم صاحبها عليها حتى لا تختلط مع بعضها(٧٩). وعادةً ما يتراوح عدد هؤلاء الصبية ما بين ١٢ و١٣ صبيًا. ومن الطبيعى أن يستبدل هؤلاء الصبيان الذكور الذين يخدمون الرجال بفتيات صغيرات لخدمة النساء(٨٠).

وتشير المصادر المعاصرة إلى أن كل حمَّام كان له مستوقد لتسخين الماء الخاص بالحمَّام، ويستغل أيضًا فى تدميس الفول(٨١). ومما لا شك فيه أن الحمَّامى ارتبط بباعة الفول بشكل مباشر، لذلك كان عليه أن يدرب بعض صبيانه على كيفية وضع القدور التى تستخدم فى تدميس الفول فى المستوقد، ثم توزيع تلك القدور على من يقومون ببيع الفول فى الأنحاء المختلفة، وتسليمهم إياها عقب صلاة الفجر (٨٢). كذلك

كان عليه أن يدرب عدداً من صبيانه على غسل قدور من الفخار كبيرة الحجم، ثم ملئها حتى ثلاثة أرباعها بالفول المغمور بالماء مع قليل من القمح والحمص، وبعد أن تملأ بهذه الطريقة يغلقون فوهتها تماماً بالليمون وطين الطفل، ثم تدفن في رماد المستوقد الملتهب، وتترك هكذا لمدة تتراوح ما بين ٥-٦ ساعات، بعدها يصبح الفول مطهواً وصالحا للبيع، فيشتريه الجمهور مع قليل من الملح والخس المقطع إلى قطع صغيرة موضوعة مع الفول، بعد رش قليل من التوابل عليه، وهذه التوابل عادة ما تكون من الفلفل الأسود، والفلفل الأخضر، والزنجبيل[٨٣]. ومن الناس من يضع عليه عصير الليمون، أو الرمان، أو الخل، وماء مذاب به مسحوق الثوم، ومفروم البقدونس، والطماطم، ومن الناس من يفضل أكل الفول بالملح والصعتر (الزعتر) [٨٤].

من هذا العرض السريع يتضح لنا أهمية التدريب العملي لخلق كوادر مدربة وماهرة من أرباب الحرف في ذلك العصر. وخلال هذا التدريب ينقل أرباب الحرف المهرة خبراتهم العملية إلى صبيانهم.

الهوامش

(١) المقريزى "تقى الدين أحمد بن على ت ٨٤٥هـ": إغاثة الأمة بكشف الغمة، حمص، ١٩٥٦م، ص ٧٣ .

(٢) المصدر السابق: نفسه، ص ٧٦ .

(٣) حسين محمد أحمد يوسف: النقابات فى مصر الرومانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨م، ص ١٢ .

(٤) النقابات الإسلامية، ترجمة إلى العربية - د. عبد العزيز الدورى، مجلة الرسالة، الأعداد ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٦٢، سنة ١٩٤٠م .

(٥) أبو سديرة "السيد طه السيد": الحرف والصناعات فى مصر الإسلامية - منذ الفتح العربى حتى نهاية العصر الفاطمى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١م، ص٥ .

(٦) أبو المحاسن "جمال الدين يوسف ت ٨٧٥هـ": النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، طبع دار الكتب المصرية ١٩٣٩-١٩٧٢، جـ١١، ص ٥٦-٥٧؛ ابن بطوطة "أبو عبد الله بن إبراهيم اللواتى ت ٧٧٩هـ": الرحلة، نشر دار صادر بيروت، ١٩٦٤، ص ٣١ .

(٧) صلاح هريدى: الحرف والصناعات فى عهد محمد على، الاسكندرية، ١٩٨٥، ص ٣٦ .

(٨) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٨٥ - ٩٩ .

(٩) اليعقوبى "أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح": البلدان، طبع مطبعة بريل، ليدن ١٨٩٢م، ص ٢٣٨-٢٤٦ .

(١٠) القلقشندى "أبو العباس أحمد بن على ت٨٢١هـ": صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، طبع مطبعة الأميرية بالقاهرة، ١٩١٤م، جـ٣، ص ٤٨٥-٤٨٦ .

(١١) سعيد عاشور: المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٦٢، ص ٣٦-٣٧؛ د. نللى حنا: بيوت القاهرة فى القرن السابع عشر والثامن عشر، دراسة اجتماعية معمارية، العربى للنشر والتوزيع، ١٩٩١، ص ٢٣-٢٤ .

(١٢) السيد طه السيد أبو سديرة: نفسه ص ٣٨٧-٣٨٨ .

(١٣) فرج عبد القادر طه: علم النفس وقضايا العصر، القاهرة، ١٩٩٩م، ص١٤٨-، ١٧٠ .

(١٤) ابن خلدون "عبد الرحمن بن محمد ت: ٨٠٨هـ": المقدمة، مطبعة الشعب، بدون تاريخ طباعة، ص٣٥٢ .

(١٥) حسين محمد أحمد يوسف: نفسه ص ١٤٧ .

(١٦) ابن الإخوة "محمد بن محمد بن أحمد القرشى ت: ٧٢٩هـ": كتاب معالم القربة فى أحكام الحسبة الهيئة

المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦، ص ١٥٤ .

(١٧) حسين محمد أحمد يوسف: نفسه، ص ١٤-٢٠ .

(١٨) السيد طه السيد أبو سديرة: نفسه، ص ٣٨٩ .

(١٩) الشيزرى: نهاية فى طلب الحسبة، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨١م، ص ١١٢ .

(٢٠) السيد طه السيد أبو سديرة: نفسه، ص ٣٨٩ .

(٢١) المرجع السابق: نفسه، ص ٣٩٠ .

(٢٢) حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، القاهرة، ١٩٦٥، جـ١، ص ٣٣٨ .

(٢٣) المقريزى: الخطط، طبع بولاق، ١٢٧٠هـ، جـ٢، ص ٩١ .

(٢٤) المصدر السابق: نفسه، جـ٢، ص ١٠١ .

(٢٥) محمد سعيد القاسمى: قاموس الصناعات الشامية، دمشق ١٩٨٨، ص ١٢ .

(٢٦) ابن الإخوة: نفسه، ص ٢٣٥-٢٣٦، الشيزرى: نفسه، ص ٦٧ .

(٢٧) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ١٠٧ .

(٢٨) الجبرتى: عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، جـ٢، ص ٢١٦ .

(٢٩) المصدر السابق: نفسه، جـ٢، ص ٢١٦ .

(٣٠) ابن خلدون: نفسه، ص ٣٦٢-٣٦٤ .

(٣١) المصدر السابق: نفسه، ص٣٦٤ .

(٣٢) د. لويس كامل مليكة: العلاقات الإنسانية فى التدريب على تنمية المجتمع، ١٩٦٤م، ص ٤ .

(٣٣) ابن خلدون: نفسه، ص ٣٥٢ .

(٣٤) المصدر السابق: نفسه، ص ٥٠٢ .

(٣٥) المصدر نفسه، ص ٥٠٣ .

(٣٦) د. لويس كامل مليكة: نفسه، ص ٤ .

(٣٧) ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء وطبقات الأطباء، جـ١، ص ٢٥ .

(٣٨) الخالدى: المقصد الرفيع المنشا، مخطوط، ورقة . ١٢٨ب؛ د . زكى محمد حسن: فنون الإسلام، ص٣٢٤؛ د . حسن عبد الوهاب: توقيعات الصناع على آثار مصر الإسلامية، ص ٥٤٧-٥٥٧ .

(٣٩) الخطط، جـ١، ص ٤٤-٤٥ .

(٤٠) ابن سعيد المغربى: النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة، القاهرة، ١٩٦٩-١٩٧٠، ص ٢٨؛ الخيارى "إبراهيم بن عبد الرحمن الخيارى المدنى ت: ١٠٨٣هـ" تحفة الأدباء وسلوة الغربا، تحقيق د . رجاء محمود السامرائى، بغداد، ١٩٨٠م، جـ٣، ص ١٥١ .

(٤١) المقريزى: الخطط، جـ١، ص ١٠٧-١٠٨؛ أبو المحاسن: المنهل الصافى، جـ٣، ص ٢٤٩ .

(٤٢) الشيزرى: نفسه ص ٣٣ .

(٤٣) ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة، مطبوعات دار الكتب، ١٩٦٩م، ص ١٢٣-٢٠٢ .

(٤٤) حسن محمد أحمد يوسف: نفسه، ص ٣٨ .

(٤٥) شابرول: وصف مصر، المصريون المحدثون، ترجمة زهير الشايب، مكتبة مدبولى، ١٩٨٩م، ص ٩٢ .

(٤٦) الشيزرى: نفسه، ص ٣٣ .

(٤٧) الشربينى: هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف، ص ١٥٧ .

(٤٨) المؤلف المجهول: الوصلة إلى الحبيب فى وصف الطيبات والطيب، ورقة ٦٦ب، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٧٤٥ طب .

(٤٩) المقريزى: الخطط، جـ١، ص ١٠٨؛ د . عبد المنعم سلطان: المجتمع المصرى فى العصر الفاطمى، القاهرة ١٩٨٥، ص ٢٤٨ .

(٥٠) النويرى "شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ت ٧٣٢هـ": نهاية الأرب فى فنون الأدب القاهرة، ١٩٢٤ - ١٩٧٨، جـ١٢، ص ٣٠٧ - ٣٠٨؛ المرجع السابق: نفسه، ص ٢٥٠ .

(٥١) الرازى "أبو بكر محمد بن زكريا" منافع الأغذية ودفع مضارها، القاهرة ١٣٠٥هـ، ص ٢٦ .

(٥٢) الشيزرى: نفسه، ص ٣٣ .

(٥٣) المصدر السابق: نفسه، ص ٢٦ .

(٥٤) ابن الإخوة: نفسه، ص ١١١ .

(٥٥) الشيزرى: نفسه، ص ٣٣؛ ابن الإخوة: نفسه، ص ١١١ .

(٥٦) التبر المسبوك فى ذيل السلوك، القاهرة، ١٩٧٤م، ص ٧٧؛ بدائع الزهور فى وقائع الدهور، القاهرة ١٩٦٠ - ١٩٧٢، جـ٤، ص ١٦ .

(٥٧) محمد سعيد القاسمى: نفسه، ص٤٨٨ .

(٥٨) شابرول: نفسه، ص ٩٢ .

(٥٩) المقريزى: إغاثة الأمة، ص ٨٤-٨٦ .

(٦٠) المقريزى: السلوك لمعرفة دول الموك، تحقيق د . سعيد عاشور، مطبعة دار الكتب، ١٩٧٢م، جـ٣، ق٣، ص١١٠١؛ شابرول: نفسه، ص٩٢ .

(٦١) الشيزرى: نفسه، ص ٣٨ .

(٦٢) ابن الإخوة: نفسه، ص٩٤-٩٥ .

(٦٣) جيرار: الأحوال الزراعية فى القطر المصرى أثناء حملة نابليون بونابرت، ترجمة يوسف نحاس، القاهرة، ١٩٤٢م، ص ٣٧، ٤٨، ٥٣ .

(٦٤) المقريزى: الخطط، جـ١، ص٤٥؛ ابن تغرى بردى: المنهل الصافى، جـ٣، ص ٢٤٨ .

(٦٥) ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة ص ١٣٥ .

(٦٦) ابن الإخوة: نفسه، ص ١٢٨-١٢٩ .

(٦٧) المصدر السابق: نفسه، ص ١٣٠ - ١٣١ .

(٦٨) المصدر نفسه، ١٣١ .

(٦٩) الشيزرى: نفسه، ص٥٩ .

(٧٠) ابن الإخوة: نفسه، ص ١٣١؛ الشيزرى: نفسه، ص ٥٨-٥٩ .

(٧١) الشيزرى: نفسه، ص ٥٨ .

(٧٢) على السيد على: القدس فى العصر المملوكي، القاهرة، ١٩٨٦، ص ٢٤٥ وما بها من مصادر ومراجع .

(٧٣) سعيد عاشور: المجتمع المصرى، ص ٩٤-٩٥؛ كامل جميل العسلي: وثائق مقدسية تاريخية، عمان، الأردن، ١٩٨٣، جـ١، ص ١١٠، على السيد على: نفسه، ص ٢٤٥-١٤٧ .

(٧٤) الشيزرى: نفسه، ص ٨٧؛ ابن الإخوة: نفسه، ص ١٥٤ .

(٧٥) عبد اللطيف البغدادى "موفق الدين عبد اللطيف بن يوسف بن محمد ت ٦٢٩هـ": الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، ١٩٣١، ص ٥٢- ٥٤، ٢١٦ .

(٧٦) الشيزرى: نفسه، ص ٨٨ .

(٧٧) المصدر السابق: نفسه، ص ٨٨؛ ابن الإخوة: نفسه، ص ١٥٦ .

(٧٨) المصدر نفسه، ص ٨٧؛ نفسه: ص ١٥٦ .

(٧٩) ابن الإخوة: نفسه، ص ٢٤٠-٢٤١ .

(٨٠) شابرول: نفسه، ص ١٢٤-١٣٥ .

(٨١) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٨٠، ابن تغرى بردى: المنهل الصافي، جـ٣، ص ٢٨٩ .

(٨٢) ابن تغرى بردى: المنهل الصافي، جـ٣، ص ٢٨٩ .

(٨٣) الشربيني: هز القحوف، ص ١٤٥، ١٤٦؛ شابرول: نفسه، ص ٩٢ .

(٨٤) الشيزرى: نفسه، ص ١١٦؛ محمد سعيد القاسمي: نفسه، ص ٣٤٤ .

النازحون إلى القاهرة فى العصر المملوكى

سيكون حديثنا قاصراً على النازحين من الريف المصرى إلى القاهرة المملوكية وذلك لعدة اعتبارات. منها كثرة ما كتب عن النازحين من مشرق العالم الإسلامى ومغربه إلى القاهرة فى ذلك العصر. فضلاً عما كتبناه عن الهجرات المغولية وأثرها، وكذلك هجرات بعض أبناء الغرب المسيحى فى "دور الأسرى الأجانب فى مصر عصر سلاطين المماليك".

ويجب أن نذكر أن ظاهرة نزوح أهل الريف إلى العاصمة ظاهرة معروفة ومتكررة طوال عصور مصر التاريخية، أشارت إليها كثير من المصادر المعاصرة من قديمة ووسيطة وحديثة بل والمعاصرة.

وموضوع النازحين يقوم على فكرة التأريخ المعتمد على الحياة اليومية عن الشرائح الاجتماعية التى شكلت عدداً كبيراً من سكان القاهرة المملوكية، والذين أمكن حصرهم فى عدة جماعات، كان لكل جماعة ظروفها التى دفعتها للنزوح، وهم:

١-طلاب العلم والمعرفة. ٢-أرباب الحرف والصناعات.

٣-جماعة الفلاحين. ٤-جماعة التجَّار.

وما تركته عمليات النزوح من آثار عمرانية، واجتماعية، وسياسية، وأدبية لذا فقد قسَّمنا الموضوع إلى: مقدمة، ثم جماعات النازحين ودوافعهم إلى النزوح، وأحوالهم المعيشية فى القاهرة، ثم ملاحظات عامة على عمليات النزوح، وأثر عمليات النزوح فى التوسع العمرانى للقاهرة، ودور النازحين فى الحياة الثقافية عامة وإنتاجهم الأدبى، والأمثال العامية خاصة.

أما عن دوافع طلاب العلم فيمكن حصرها علي النحو التالي:

١- منذ البدايات الأولى لعصر سلاطين المماليك "٦٤٨-٩٢٣/١٢٥٠ - ١٥١٧م" غدت القاهرة أهم صرح للثقافة والحضارة العربية فى العالم الإسلامى، وكعبة شوامخ الفكر الإسلامى، وخصوصاً بعد سقوط بغداد على أيدى المغول سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، وانهيار صرح الخلافة الأموية فى الأندلس فى منتصف القرن السابع الهجرى /الثالث عشر للميلاد.

٢- صعوبة نقل العلم إلا تلقيًا مباشرًا من الشيوخ، وذلك بالرحيل إليهم - لعدم توفر الإمكانات المادية التى يتيسر معها نقل العلم - للحصول على الإجازات العلمية من كبار مشاهير العالم الإسلامى الذين احتشدوا فى القاهرة.

٣- كانت القاهرة حاضرة مصر وأهم مدنها الثقافية، كما كان الوصول إليها أسهل من الوصول إلى بعض حواضر مصر الثقافية فى الصعيد أو فى الوجه البحرى. فضلاً عن قصور الدراسة فى بعض هذه الحواضر على نوع معين من أنواع العلوم. بالإضافة إلى كثرة المكتبات بها وتعدد أنواع الكتب.

٤- فى القاهرة هناك فرص للتكسب لطلاب العلم والمعرفة من نسخ الكتب بالإضافة إلى الاشتغال بتأديب الأطفال، وهى من المهن التى كانت تدر على المشتغلين بها دخلاً معقولاً.

٥- كما أن التواجد فى القاهرة كان فرصة للانخراط فى فئة أهل العمامة أو أرباب الأقلام - الذين رغم تعرضهم أحيانًا لبعض الامتهان -- إلا أنه كان لهم نفوذهم فى الدولة، وتمتعوا بسمعة وبسطة فى العيش، لتوليهم المناصب الدينية والسياسية العليا مثل منصب قضاة القضاة الأربعة، والحسبة، والإمامة والخطابة، والوزارة وغيرها. فضلاً عن مكانتهم المرموقة فى المجتمع، وثرواتهم من الأوقاف بخلاف المرتبات والأرزاق العينية.

٦- كما يبدو أن انتشار الفقر والفاقة واليأس فى الحياة، وبخاصة فى أواخر العصر المملوكى جعل كثيرين يقبلون على التصوف من ظلم المماليك، فراراً من قسوة الحياة ورغبة فى الهناء دون عناء.

٧- كما أن القاهرة بما استأثرت به من عناية ورعاية سلاطين وأمراء المماليك، وما شيدوه فيها من منشآت ثقافية واجتماعية، وما أوقفوه عليها من أوقاف ضخمة، كان لها بريقها الذى جذب أعداداً ضخمة إليها من طلاب العلم والمعرفة من شتى الأنحاء.

٨- ومما شجعهم على النزوح فى طلب العلم - خاصة منذ عهد الظاهر بيبرس - الاهتمام الشديد بتوفير تجمعات معيشية وسكنية واجتماعية ومذهبية لطلاب العلم وأساتذتهم، ومراعاة اختلاف عادات وتقاليد أبناء أقاليم مصر العليا والسفلى فى تجمعاتهم هذه.

مثل: الجامع الأزهر، الذى بلغ عدد النازلين به سبعمائة وخمسين رجلاً ما بين عجم وزيالعة ومن أهل ريف مصر، ولكل طائفة رواق يعرف بهم مثل: رواق الشراقوة، ورواق الصعايدة[1]. وجامع الحاكم بباب الفتوح - وجامع الظاهر - وجامع شيخو "شيخون الآن" وجامع الناصر حسن - وجامع منجك - وجامع قوصون "قيسون" والجامع المؤيدى بجوار باب زويلة - والجامع الباسطى خارج باب الوزير وجامع الجيوشى - ومسجد الأمير مؤسك بين القصرين بالإضافة إلى كثير من الربط والخوانق والزوايا[2].

٩- كما أن هناك بعض المدارس التى تم تخصيصها لطلبة العلم الذين قصدوا القاهرة من الريف، مثل مدرسة السلطان الملك الظاهر برقوق التى أنشأها بين القصرين وكان ينزلها "طلبة العلم من الريف".

١٠- وعن أرباب الحرف، فقد أمكن التعرف على بعض حرفهم التى مارسوها فى مواطنهم الأولى مثل:

عمال النسيج – المشتغلون بمعامل السكر وصناعة السكر والحلوى "من تماثيل، عرائس، حلوى المولد". وقد كانوا يشكّلون أكثرية من أرباب الحرف فى الصعيد: المشتغلون بصناعة الحصر – الحدادة – عمال المناجم والمحاجر – صيادو الأسماك من النيل والبرك والترع والبحيرات وغيرها – العاملون فى الأساطيل المملوكية الحربية وخاصة من أهل الصعيد – العاملون بقطع الأخشاب من الغابات الموجودة فى الصعيد.

أما عن دوافعهم للنزوح فقد تمثلت في:

١- كثرة المظالم والمغارم – التضخم الاقتصادى وما نجم عنه من ارتفاع ضخم فى الأسعار، فمثلاً ارتفع سعر قنطار السكر فى بداية العصر من ١٧٠ درهمًا إلى ٤,٠٠٠ درهم فى عصر الجراكسة "بعد حوالى خمسين سنة من بداية عصر الجراكسة"، أى تضاعف سعر السكر فى حوالى خمسين سنة إلى أكثر من عشرين ضعفًا[٣].

٢- مما أدى إلى تدهور كثير من الصناعات، والتى كانت تضرب بها الأمثال فى جودتها وشهرتها.

٣- عدم قدرتهم على العمل فى ظل عمليات طرح المواد الأولية للصناعة عليهم بأسعار مجحفة.

٤- انحسار فرص التصدير أمامهم وتفوق السلع المستوردة على منتجاتهم حتى فى الأسواق المحلية؛ لرخص أسعارها وتفوقها فى جودتها (من إيطاليا – الفلاندرز – إنجلترا).

٥- عجز سلاطين المماليك الجراكسة عن معالجة المشكلات الاقتصادية بصورة إيجابية، فبدلاً من أن يبحثوا عن طرق جديدة لتطوير مصادر الإنتاج، بحثوا عن وسائل جمع الأموال غصبًا "سياسة الاحتكار السلعى"[٤].

٦- اختلال الأمن بسبب ثورات أهل الريف، وانتشار الزعار وقطاع الطرق.

٧- القاهرة لها بريقها بالنسبة لهم بعد انتشار نظام "الحمايات" على يد كثير من كبار أمراء المماليك والأعيان بوضع رنوكهم على الكثير من المنشآت الاقتصادية لحمايتها من عمليات الطرح رغم محاولة بعض السلاطين رفع هذه الحمايات حتى يتسنى لعمال السلطان "رمى البضائع" وفشلهم فى الغالب"[٥].

٨- توقف الإنتاج فى كثير من المناجم والمحاجر فى الوجه القبلى.

٩- تعطل كثير من مصايد الأسماك عن الإنتاج من برك وبحيرات.

وفى ذلك يقول المقريزى: "وقد بطل فى زماننا اليوم - بقصد عصر المماليك الجراكسة - أمر هذه المصايد إلا من بحيرة نسترو بالبرلس وبحيرة تنيس بدمياط فقط..." إما بسبب الجفاف "مثل بحيرة إسكندرية" أو خروجها عن يد سلطنة المماليك الجراكسة مثل ثغر أسوان فقد خرج عن يد السلطنة وتغلب عليه أولاد الكنز " بينما كانت القاهرة تزخر بالعديد من مصايد الأسماك وخصوصاً البرك "وقد كانت البرك فى أيدى أقوام كبركة الفيل بيد أولاد الظاهر بيبرس، وبركة الرطلى بيد أولاد الأمير بكتمر الحاجب وغير ذلك "، أى برك قطاع خاص، وبعضهم لجأ إلى نهر النيل، ثم يحمل سمكه إلى دار السمك فيباع ويؤخذ منه مكس السلطان[٦].

١٠- هذا فى الوقت الذى كانت فيه محاجر القاهرة فى حاجة إلى جهود هؤلاء لمواجهة حركة التوسع العمرانى فنزحوا إليها.

أما عن دوافع الفلاحين فهي:

١- تدهور النظام الإقطاعى منذ عصر خلفاء الناصر محمد بن قلاوون الذى توفى سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠م وما ترتب عليه من تدهور الإنتاج الزراعى وما دهى به أهل الريف من كثرة المغارم وتنوع المظالم.

٢- ارتفاع قيمة إيجار الفدان من الأرض حتى بلغت من ١٢ مثلاً إلى ٢٠ مثلاً.

٣- تزايد كُلفة العمليات الزراعية من حرث وبذر وحصاد وغيره.

٤- تحصيل أضعاف قيمة الخراج، وهذا واضح منذ منتصف القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر للميلاد فى عهد جقمق، وقايتباى، والغورى.

وفى عهد الغورى رحل غالب الفلاحين من قرى الشرقية والغربية بسبب المغالاة فى تقدير الخراج والإجحاف بهم(٧).

٥-تزايد الأعباء المالية "من حقوق" يدفعها عند تسلمه الأرض ليزرعها و "ما يدفعه للشهود" كأجر على حضورهم عملية تقسيم المحصول، و "الضيافة والهدايا"، وتشمل منتجات الريف من غلة ودجاج وكشك وبرسيم وخراف وكعك وغيره.

٦- "السخرية الإقطاعية" بالإضافة إلى تعجل المقطعين الخراج وتحصيله قبل موعده فاضطروا إلى بيع ما لديهم من خيول وخلافه حتى يوردوا ما عليهم من خراج.

٧- نظام المسئولية المشتركة فيما يستحق عليهم من أموال.

٨- تعرضهم لبطش العربان المسلح(٨).

٩- هناك عامل نفسى يجب أن نضعه فى الاعتبار:

فالفلاح فى جميع المؤلفات المملوكية المعاصرة موصوف بالجهل والتأخر وخشونة الطبع. وقذارة المظهر. بل إن بعض المؤلفين المعاصرين كتبوا القصص الطويلة ليثبت أن الصفات السابقة متأصلة فى الفلاح، حتى أصيبوا بمركب الشعور بالنقص، والذى لا نشك فى أنه كان أحد أسباب النزوح إلى القاهرة للتحرر من حياة الذل والعبودية(٩).

أو بعبارة أخرى: إن التمايز الطبقى الحاد بين الذين يحكمون والذين ينتجون قد عبَّر عن نفسه فى عزوف الشرائح المنتجة فى الريف عن ممارسة نشاطها الزراعى.

أما دوافع التجَّار إلي النزوح فهي:

١- انتعاش التجارة فى القاهرة لما لها من علاقات تجارية مع آسيا وأفريقيا وأوربا – خصوصًا بعد أن صارت: عاصمة العالم الإسلامى كله، ومركزًا للنشاط السياسى والدبلوماسى فى العالم المعروف آنذاك – وهو ما جعل هولاكو خان يسميها "كروان سراى"، أى محط الرحَّال والمتاجر والمال، وهذا ما أكده الراهب جاك دى فيرون Jacque de verone عام ١٣٢٥من أن تجّار القاهرة يتمتعون بثراء كبير نتيجة للتجارة الهندية(١٠).

٢- كما أن الرغبة فى تحقيق أرباح أوفر من تلك التى يمكن تحقيقها فى مواطنهم الأولى، وارتقاء مكانة أرفع بين التجَّار، كانت من الدوافع وراء نزوحهم إلى القاهرة.

٣ – أما عن أحوال النازحين المعيشية فمن حيث السكنى، فقد تجمعوا فى كل مكان فى القاهرة تقريبًا فى ذلك العصر. عاش كثير منهم فى بعض الأحياء التى سنتحدث عنها عما قليل، وفى "الرباع" وهى للسكنى المؤجرة للغير والتى وصل ارتفاعها فى الغالب إلى أربعة طوابق أو خمسة وخصصت للسكنى بأجور شهرية زهيدة وزادت هذه الرباع طوال العصر المملوكى باضطراد لمواجهة تزايد النازحين. كما كانت "السويقات" وهى الأسواق الصغيرة أحد أماكن تجمعهم، ارتبطوا بها ليس بهدف البيع والشراء فحسب، ولكن للنزهة والترويح عن النفس، وخدمة المترددين عليها، أو للعمل فيها "كدلاّلين" أو "سماسرة" أو "وزانين" أو "كيالين" أو "مغربلين"(١١).

وتجدر الإشارة إلى أنه وجدت للفقراء منهم بعض الأسواق التى تلبى احتياجاتهم، مثل أسواق الملابس المستعملة، ومنها "سوق الخلعيين" وأسواق بعض المأكولات مثل "سوق السقطيين"(١٢).

كذلك تواجدوا فى (الرحاب) – جمع رحبة – أى الأماكن الواسعة، واستخدموها كمأوى لهم، واشتغل بعضهم فيها كمكاريين يمشون أمام الحمير، وهى وسيلة

مواصلات غالبية الشعب. بينما عاش بعضهم بلا مأوى فى النهار والليل، يهيمون فى الطرقات وأجسادهم شبه عارية. ونزل العديد منهم فى "الخانقاوات" و "الربط" و"الزوايا" حيث يجدون ما يعينهم على مجابهة ضروريات الحياة، كما نزل العديد من طلاَّب العلم فى المؤسسات الثقافية المختلفة.

ومن حيث حرف بعضهم التى مارسوها فى القاهرة: فمنهم من اشتغل: برعاية البساتين والحدائق داخل القصور، أو فى الإشراف على السواقى لرفع المياه من الأبار، وإدارة الطواحين والمعاصر، وفى الإسطبلات، وكحفَّارين للقبور، أو بوأَّبين وفرأَّشين فى المنشآت الدينية(١٣).

وانضم بعضهم لبعض الطوائف المهنية التى لم يكن الإقبال عليها كبيرًا، مثل: مهنة "جامعى القمامة" أى الزبَّالين، أو العاملين فى المستوقد أو السقأئين، أو العاملين فى تنظيف رءوس الماعز والضأن والأكارع فى سوق الروأَّسين، أو تنظيف الحمامات، أو فى الأفران والمخابز. ومنهم من اشتغل بصناعة الأوانى الفخارية، ومنهم من اشتغل فى المحاجر والجيارات أو بيع نشارة الخشب، وفى محلات بيع العصائر، ومنهم من أقبل على الاشتغال بوسائل اللهو لما لها من رواج فى المجتمع. وعندما طالت إقامة بعضهم فى القاهرة نجد منهم من اشتغل بحرفة "الدلالة" ونقصد به "الدَّلال"، أى "الخاطب" وما له من دور فى إتمام بعض حالات الزواج، ويحدثنا أحد شعرائهم وهو "المعمار" بخبر هام عن الدَّلال الذى غشه وزوَّجه بعروس قبيحة فيقول:

لما جلوا عروسى وعاينتها

وجدت فيها كلَّ عيب يقال

فقلت للدَّلال ماذا ترى

فقال ما أضمن إلا الحلال(١٤)

وكثيراً ما يتصادف أن يرتقى رجل أصله من الريف إلى بعض وظائف الدولة، الكبيرة، ولدينا العديد من الأمثلة على ذلك[١٥]. وربما كان منهم من كونوا العصابات "وهى المناسر" وتلثموا، وحملوا السلاح نتيجة لاختلال الأمن، فكثر السلب والنهب، ولكل جماعة رئيس يسمى "شيخ المنسر"[١٦]. ومنهم من اشتغلوا "باعة جائلين" أو بتجارة الكتب، ومنهم من اشتغل على ظهر الأساطيل الملوكية خاصة من الصعيد. وصيد السمك، وصناعة الحلوى. كما أن منهم من اشتغل بحرفة لها صلة بمواطنهم الأولى مثل "الخواًصين" و "التبانة" و "الحطًابة"، وكثير منهم اشتغلوا "كشحاذين" وكانت لهم عبارات مستخدمة لذلك منها: "لوجه اللّه فلس" و "بشيبة أبى بكر فلس"[١٧].

أما عن حرف النساء:

فقد اشتغلت كثيرات منهن بالغزل، سواء فى منازلهن أو فى كثير من قيساريات الغزل المنتشرة فى كثير من أحياء القاهرة مثل: منطقة الجودرية ما بين الغورية وباب الخلق، وفى جنوب القاهرة ومصر القديمة مثل قيسارية ابن ميسر الكبرى فى خط سويقة وردان[١٨].

واشتغل عدد كبير منهن بتربية الطيور، فكن يحضرن ما لديهن من بيض الدجاج والبط والأوز إلى معامل "ترقيد الفروج" ويتسلمن الفراريج بعد ثلاثة أسابيع ويقمن بتربيتها من جديد، ثم يدخلن بيضها بعد ذلك فى تلك المعامل المنتشرة بطول القاهرة بين بولاق ومصر القديمة[١٩].

ومنهن من قمن ببيع البيض والجبن والخضر فى الأسواق. واشتغلت أعداد منهن بعمل "الوشم"، وكانت الواحدة منهن تمشى فى شوارع القاهرة وتنادى "الصانعة يا بنات"، حيث اعتادت كثير من نساء القاهرة أن يزين أجسامهن بالرسومات المختلفة، ومنهن من اشتغلت بعملية الخضاب، وطلاء الأظافر باللون الأحمر، ومنهن من عملت "كدلاًلة" أو "قابلة" أو "ماشطة"[٢٠].

أما عن طعامهم:

فإن غالبيتهم لم يختلفوا عن سكان القاهرة من ذوى الدخول المحدودة، فكان أكثر طعامهم من الفول المدمس "الدميس" و"البليلة" و"الجبن القريش" و"البصل" و"بعض الخضر" وكذلك من الأسماك الصغيرة قدر الإصبع، ويسمى هذا الصنف "البسارية" فيؤكل مشويًا أو مقليًا. إلى جانب "الملوحة"[٢١].

وعن وسائلهم للتسلية: فقد استمتعوا بسماع "الراوى" الذى يروى الكثير من القصص الشعبية فى الميادين العامة، مثل: "سيرة الظاهر" أو "سيرة ذات الهمة" أو "قصة أبو زيد" و "سيرة عنترة" وتمتعوا بكثير من النوادر المضحكة من نمط "ما يحكى عن جحا"، وشاهدوا تمثيليات خيال الظل[٢٢].

كذلك اشتهر عنهم كثرة التزاور والتلاقى فى شهر رمضان، والخروج إلى شواطئ النيل، وزيارة المقابر فى الأعياد إلى جانب خروج مجموعة من البنات كان يطلق عليهن بنات العيد إلى الشوارع ويأخذن فى الغناء والرقص والضرب على الدفوف، ويطفن فى الشوارع والأسواق ويدخلن على الناس للحصول على بعض العطايا[٢٣].

كذلك عرف عنهم إعداد بعض الأطعمة فى المواسم، وزيارة أضرحة الأولياء والمشايخ والخروج للاحتفال بعودة أحد السلاطين من رحلة الحج، أو عند عودته منتصراً فى إحدى المعارك، وكذلك للاحتفال بوفاء النيل، وعيد النيروز[٢٤].

كما تلهى بعضهم ببعض الألعاب لها طابع المقامرة، مثل: تطيير الحمام، ومناقرة الديوك، ومناطحة الكباش والثيران، ولعبة المعالجة، أى "رفع الأثقال"، وألعاب الحواة والألعاب البهلوانية التى تقام فى الميادين العامة. ومشاهدة بعض من يقومون بألعاب السيرك الآن والذين عُرفوا باسم "المشعوذين وأصحاب القرود. ومن ضاهاهم من أصحاب اللعب بأنواع الحيوانات كالدب والحمير والتيوس والكلاب..." [٢٥].

بالإضافة إلى مشاهدة ما يشبه حدائق الحيوان فى عصرنا الحالى، وما فيها من حيوانات مثل: الزراف، والفيلة، والثيران الهندية وغيرها. إلى جانب قراءة الطالع بواسطة بعض الطيور[٢٦].

كذلك كانت لهم معتقداتهم فى: الأولياء والمجاذيب وفى الحسد والعين والجان والعفاريت والسحر. كما كانت لهم معتقداتهم فى الفأل والطيرة والتشاؤم، إذ كان بعضهم يقوم بوضع حجر أو قليل من الملح فى الغربال عند إعارته للآخرين؛ وذلك من باب التطير ودرء الشر. كما يتشاءمون عند مرور المتوفى أمام أبوابهم. كما شغف كثير منهم خاصة من النساء بعملية التنجيم وقراءة البخت وفتح المندل وضرب الرمل[٢٧].

وأخيرًا يمكن القول: إن غالبية هؤلاء النازحين كانوا أكثر ضحايا الكثير من الطواعين والأوبئة التى اجتاحت القاهرة، خاصة فى العصر المملوكى الثانى، نظرًا لسوء التغذية ولتدنى مستوى معظمهم المعيشى[٢٨].

ملاحظات عامة علي عمليات النزوح

من الملاحظ أن عمليات النزوح ازدادت بشكل ملحوظ فى العصر المملوكى الثانى أو عصر المماليك الجراكسة عنه فى العصر الأول. ومرجع هذا أن الأحوال الاقتصادية فى دولة المماليك كانت أفضل بكثير عنها فى دولة الجراكسة، وذلك للاستقرار النسبى فى حالة العملة، وسياسة الإصلاح الزراعى من اهتمام بالجسور وشق الترع وتوسيع الرقعة الزراعية، فضلاً عن استمرار تدفق ذهب السودان "بلاد التكرور"، وقلة الكوارث من نقص الفيضان أو انتشار الأوبئة والطواعين أو كثرة الزلازل[٢٩].

كما أن أثر الأزمات الاقتصادية واضح فى ازدياد عمليات النزوح، وهو ما يؤكده لنا أكثر مؤرخى العصر بأنه "تلاشى أمر الصعيد منذ سنة الشراقى فى أيام الأشراف: شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون، سنة ست وسبعين وسبعمائة، وتزايد تلاشيه فى أيام الظاهر برقوق لجور الولاة ولم يزل فى إدبار... ثم دمر فى أيام المؤيد شيخ فلم يبق منه إلا رسوم تبذل الولاة الجهد فى محوها نسأل الله حسن الخاتمة"[٣٠].

فى حديثهم عن الناصر فرج بن برقوق (٨٠١-٨١٥هـ/١٣٩٨-١٤١٢م):

"وكان الناصر هذا من أشأم ملوك الإسلام، فإنه خرَّب بسوء تدبيره جميع أراضى مصر وبلاد الشام.. وطرق ديار مصر الغلاء من سنة ست وثمانمائة، فبذل أمراء دولته ومدبروها جهدهم فى ارتفاع الأسعار... ثم زيادة أجرة أطيان أراضى مصر..." [٣١].

ثم يذكرون أنه منذ عصر الناصر فرج بن برقوق فصاعداً "زاد تشرد الفلاحين فى البلاد". مما دفع بكثير من سلاطين الجراكسة إلى المناداة فى كل مكان بالقاهرة باستمرار أو بين الحين والحين بخروج أهل الريف من القاهرة وعودتهم إلى بلادهم، وتهديد من يرفض العودة بأقسى العقوبات وإن لم يعمل بهذه التهديدات[٣٢].

كما ترتب على اشتداد تيار النزوح هذا خراب كثير من القرى والضِياع، وقيل: إنها كانت حوالى عشرة آلاف قرية قبل بداية العصر المملوكى، فوصلت إلى حوالى ألفين قرية فى أواخر عصرهم[٣٣].

أماكن تواجدهم

عاش هؤلاء النازحون فى كثير من الأحياء، كان كلٌ منها يضم جماعة متجانسة نسبيًا من الناس، أو كعمال يمارسون نفس الحرفة مثل: "الطحَّانين "الذين عملوا فى الطواحين المنتشرة فى جنوب وغرب القاهرة بالقرب من سور مجرى العيون وكوم الجارح، ومنطقة "باب البحر" فيما بين باب الشعرية وشارع كلوت بك حاليًا، و"النخالين" فى المنطقة ما بين القاهرة والفسطاط، و"الطوأبين" فى منطقة الكوم الأحمر بالقرب من جامع الظاهر "منطقة الضاهر وغمرة الآن"، ومنطقة "بركة الرطلى من أرض الطبالة" بالفجَّالة الآن، و"الحجَّارين" الذين سكنوا بالقرب من باب زويلة "بوابة المتولى"، لقربهم من منطقة المحاجر. و "التبانة" فى منطقة الدرب الأحمر، لقربهم من القلعة. و "الحطابة" إلى الشمال الشرقى من القاهرة خاصة فى منطقة الدراسة الحالية التى كانت جزءاً من حارة "البرقية" بين سور القاهرة الشرقى والمشهد الحسينى[٣٤].

أو أناس تنتمى أصولهم لبلدة واحدة مثل: "السنابطة" و"الشراقوة" و"الصعايدة" و"العياطين"، وجماعات ذات أصول مذهبية أو دينية واحدة "مثل: جماعة اليهود الذين هجر كثير منهم مدينة الفسطاط واستقروا فى حارة اليهود منذ بداية العصر المملوكى". ومن الطبيعى أن تختلف مناطق تجمعاتهم فى حجمها واتساعها وعدد سكانها، إلا أنهم شكَّلوا وحدات اجتماعية ذات روابط أسرية[٣٥]. أو بعبارة أخرى فإن نزوحهم إلى القاهرة ساعد على استمرارية التقسيم الإيكولوجى "الحرفى" لأحياء القاهرة.

أدت عمليات النزوح هذه إلى ظهور نوع من صراع القيم بين هؤلاء النازحين والمجتمع القاهرى - وهو واضح تمامًا فى أدب ذلك العصر - فمن تندر القاهريين ببعض هؤلاء النازحين قولهم: عمر الفلاح إن فلح، الفلاح مهما اترقى ما تروحش منه الدقة[٣٦].

وكان لكثير من هؤلاء النازحين دورهم فى اشتداد تيار النقد الاجتماعى لسائر مجتمع القاهرة المملوء بمواضع النقد: فمنهم: من نقد المستخدمين وفضح أعمالهم، وهتك أسرارهم، ومنهم من انتقد الأتراك واستئثارهم بالرزق، ومنهم من انتقد الصوفية، ومنهم من انتقد بعض العادات والتقاليد الفاسدة والمجون والخلاعة. أى أنهم عبَّروا عن أخلاق القرية فى مواجهة الفساد المنتشر فى المجتمع الجديد الذى نزحوا إليه[٣٧].

ويبدو أن القليل منهم من جذبهم بريق الحياة فى القاهرة فنسوا تقاليدهم تدريجيًا، بل إن منهم من تبرأ من أصله الريفى بسرعة شديدة[٣٨].

كذلك من المرجح أنه كانت هناك بعض عمليات النزوح المضاد من القاهرة إلى غيرها من الأقاليم الأخرى، خاصة أمام الذين لم ترق لهم الحياة فى القاهرة، أو تتحقق لهم طموحاتهم فيها. فقد عثرنا على إشارة طريفة عند الإدفوى فى كتابه الطالع السعيد، يتحدث فيها عن أحدهم وقد ترك القاهرة وتوجه إلى مدينة قوص، فسئل عن السبب فى ذلك فقال: "لو وجدت بالقاهرة رغيفين ما خرجت منها"[٣٩].

أهم مناطق النزوح:

أما عن المناطق التى نزحوا منها، فقد شملت جميع أنحاء الديار المصرية، وقد أمكن التعرف عليها من ألقاب النسبة التى امتلأت بها المصادر المعاصرة مثل(٤٠):
الفارسكورى - السنباطى - المحلى - الدمياطى - السبكى - البرلسى - التنيسى - القليوبى - والبلبيسى - الإسكندرانى وغيرها من بلدان الوجه البحرى. والفيومى - السوهاجى - القوصى - الإخميمى - البهنسى - الملوى - السمهودى - الجيزاوى أو الجيزى - الببـاوى - الأسوانى - السيوطى - الإسنائى - الإدفوى - القناوى - القفطى. وغيرها.

استمرار ظهور كثير من المناطق العشوائية وخصوصًا فى الأحياء الفقيرة نخص منها بالذكر المنطقة ما بين باب الشعرية وباب الحديد. وهى التى عرفت باسم "باب البحر" والمنطقة المعروفة فى وسط القاهرة باسم "الحنفى" نسبة إلى الشيخ شمس الدين محمد بن حسن بن على الحنفى، حيث أنشأ بها جامع الحنفى سنة ٨١٧هـ، وحارة السقائين بمنطقة عماد الدين نسبة إلى الشيخ عماد الدين الذى أنشأ جامعًا هناك. ومنطقة غيط العدة "بالقرب من باب الخرق" - باب الخلق حاليًا. و "منطقة الطحانين فى جنوب القاهرة والملاصقة لسور مجرى العيون وغيرها(٤١) من المناطق. على الرغم مما توصى به كتب الحسبة من عمليات التنظيم والتخطيط والتى روعيت على ما يبدو فى قلب المدينة كمركز تجارى هام(٤٢).

إضفاء الطابع الريفى على كثير من أحياء وضواحى القاهرة المملوكية، والذى تمثل فى وجود كثير من الأعشاش أو "العشش" لتربية الأنواع المختلفة من الطيور، وهو ما لفت أنظار كثير من الرحالة الأجانب طوال ذلك العصر من أمثال: الرحالة "سيجولى" الذى قال: ليس هناك شباك إلا وتجد به عشًا لهذه الطيور(٤٣).

إقامة مناطق ريفية بحتة فى كثير من ضواحى القاهرة، ولقد أمكننا التعرف على بعضها مثل: "سويقة السنابطة" فى الشارع المسلوك من باب النصر إلى الريدانية

"العباسية"، عرفت بقوم من أهل سنباط إحدى قرى الغربية كانوا قد سكنوها. و"منية الشيرج" - وهى منية السيرج - بآخر شارع شبرا حاليًا والتى ازدهرت منذ أواخر عهد الناصر محمد بن قلاوون، الذى أمر بزراعة البساتين الفائقة بها وأحضر إليها من يقومون بخدمتها والعمل بها من مصر وبلاد الشام، وأقام بقربها الخانقاة "قرية أبى زعبل"، والتى صارت بعد قليل من شق الخليج الناصرى من أعمر الأماكن. و "منية الإصبغ" وهى المنطقة المعروفة الآن باسم "منطقة الدمرداش"، وعندها كانت تبدأ الطريق الموصلة إلى بلبيس. ومنها المنطقة التى عرفت باسم "جزيرة الفيل"، وهى جميع المنطقة المعروفة الآن باسم المهمشة والزاوية الحمراء الممتدة ما بين شبرا وسرياقوس. وكذلك المنطقة المعروفة الآن باسم العطوف بمنطقة الجمالية، والتى عرفت فى العصر المملوكى باسم "سويقة اللفت" شمالى مصلى الأموات، وكانت تشتمل على عدة حوانيت يباع فيها اللفت والكرنب، ويحمل منها إلى سائر أنحاء القاهرة. وقرية "الخندق" والتى أمكن تحديد موقعها فى المنطقة ما بين باب الفتوح والمقس، وقد نسبت إلى الخندق الذى كان موجودًا منذ الفتح الإسلامى لمصر، ثم ردم وتم الشروع فى حفره مرة أخرى سنة ١١٩٢م أيام الأيوبيين[٤٤].

حدوث نوع من الحراك الاجتماعى بشكل ما، ساعد عليه كثرة الأوبئة والطواعين، مما أدى إلى نوع من الليونة بدلاً من الصرامة فى القواعد والنظم التى وضعتها الطوائف الحرفية، مما أتاح الفرصة لكثير من هؤلاء النازحين للانخراط فى كثير من الطوائف الحرفية المختلفة، وكان على رأسها تلك التى مارسوها أو كان لها صلة بمواطنهم الأولى[٤٥].

كما أننا نرجع تأثير هؤلاء النازحين فى طباع أهل القاهرة وسلوكياتهم وأخلاقهم، والتى وصفها "بيلوتى الكريتى": بأنهم يميلون دائمًا إلى المسالمة والوداعة ويبتعدون عن المشاحنات، وهم على جانب كبير من الظرف، معتدلون فى كل شىء خاصة مساكنهم، وليسوا شديدى الانفعال والتأثر، كما أنهم يتعاملون بتعاطف شديد وحرارة مع من يقابلهم، ولديهم قدر كبير من القناعة، ولذا فهم يعيشون فى سعادة يفتقدها

الكثيرون[٤٦].

ويؤكد ما ذهبنا إليه الرحالة "فريسكو بالدى" بقوله: وعندما يتشاجرون يخيل إليك أنهم على وشك أن يمزق بعضهم بعضًا إربًا، ولكن سرعان ما ينادى أى شخص قائلاً: "استغفروا الله"، ففى الحال تنفض المشاجرة وكأن شيئًا لم يكن[٤٧].

دورهم في الأحداث الأساسية.

انضم بعضهم إلى : الحرافيش، أو الزعر، أو العياق، والمقصود بهم: الدهماء والرعاع وضعاف الخلق. وكثيراً ما كان يستعملهم الأمراء والسلاطين ضد منافسيهم، فكانوا ينهبون منزل المغلوب، وسرعان ما ينقلبون على الغالب إذا ما لاح نجمه فى الأفول ولم يقتنعوا دائمًا بأن يكونوا أداة لخدمة من يغدق عليهم، بل كثيراً ما ثاروا ضد بعض رجال السلطة، إما بسبب التلاعب فى العملة، أو ارتفاع الأسعار، أو نقص المواد الغذائية، أو لتغيير بعض الولاة الظالمين، لدرجة أنه إذا مات أحد الولاة الظالمين، دفنته الدولة فى مقابر النصارى خوفًا عليه من أن يحرقوا جثته لظلمه وتعسفه. ولعل هذا كان أحد دوافع بعض السلاطين والأمراء لتخصيص نصيب من ثروتهم للفقراء أو الإكثار من توزيع الأموال على المساكين والمعدمين، أو جمع الفقراء والمعدمين وتوزيعهم على الأغنياء وقت الأزمات الشديدة[٤٨]. كما كانوا يدعون على كبار الظلمة جهاراً، مما يضطر بعض السلاطين إلى تهدئة خواطرهم بعزلهم، وكثيراً ما كانوا يكثرون الدعاء على السلاطين أنفسهم، مما دفع بعضهم إلى تعديل سياستهم أو ترضيتهم[٤٩].

ولعل حالات السلب والنهب التى قاموا بها كانت وراء ما اتخذته السلطات المملوكية من إجراءات فى الليل، حيث تشدد الحراسة على الشوارع، ويرتب لها جماعة من الطواف لكشف الأزقة وغلق الدروب وتفقد أصحاب الأرباع وتأديب المخالف، ومن سار فى الليل لغير سبب مقبول قُبض عليه[٥٠].

كذلك كان لهم دورهم فى مساندة الجيوش المملوكية بانضمام بعضهم كقوات

مساعدة ضمن أجناد الحلقة عصر الجراكسة على وجه الخصوص[٥١].

أثر النزوح إلى نمو القاهرة في جميع الاتجاهات تقريباً؛ ففي الغرب حدثت ثلاث عمليات "لطرح البحر"؛ أي ظهور أراض جديدة لابتعاد النيل عن القاهرة في السنوات ١٢٦٠م، ١٢٨١م و ١٤٠٣م. فظهرت منطقة بولاق التي قال عنها ابن ظهيرة: "فصارت مدينة ضخمة ذات أسواق وحمّامات وشوارع وأزقة، يتيه السالك فيها إن لم يكن معه دليل. وسكنها خلق عظيم من سائر البلاد"[٥٢].

وفي منطقة شمال شرق القاهرة تطلبت المنشآت العديدة لسلاطين وأمراء المماليك قيام أحياء سكنية لخدمة وصيانة هذه المنشآت، أو لاستغلالها. وفي جنوب القاهرة شهدت منطقة "القرافة الحالية" ازدهاراً عمرانيًا ضخمًا، لدرجة أن بعض الرحالة وصف هذه المنطقة بأنها غدت قدر ثغر الإسكندرية وذلك بما اشتملت عليه من مدارس وجوامع وأسبلة وحمّامات ومساكن[٥٣].

وفي وسط القاهرة أُضيف حي جديد هو: حي الأزبكية نسبة إلى منشئه الأمير أزبك أحد أمراء السلطان قايتباي، الذي بدأ في إنشائه سنة ١٤٨٠م. كما تم التوسع في المنطقة المعروفة منذ ذلك العصر "بغيط العدة" ومنطقة "عماد الدين"، وكذلك المنطقة المعروفة "البندقانيين" و "الخشأبين" و "الزجاًجين" - ما بين الدرب الأحمر وباب الخلق حاليًا، إلى جانب منطقة "تحت الربع" لإنشاء الكثير من المباني من مساجد وحمامات ورباع، ومدارس وغيرها، بالإضافة إلى التوسع في مناطق: "الكبش"، و"السيدة عائشة"، "الروضة" و"المنيل" حالياً[٥٤].

هذا مع ملاحظة أن قاهرة القرن الرابع عشر أقل مساحة من قاهرة القرنين الخامس عشر والسادس عشر، والتي ظلت تشغل المساحة نفسها حتى أوائل القرن التاسع عشر[٥٥]. والدليل على ذلك التطور العمراني أقوال كثير من الرحالة نذكر منهم:

سيمون فيتز سيمون الذي زارها سنة ١٣٢٤م وقال إنها: ضعف حجم مدينة باريس[٥٦]، وزارها جوتشي دي دينو سنة ١٣٨٤ وقال إنها: تمتد لمسافة عشرة أميال

طولا وخمسة أميال عرضاً، وأن عدد سكانها يصل إلى ثلاثة ملايين نسمة[٥٧].

ذكر فريسكو بالدى سنة ١٣٨٤ أن أكثر من مائة ألف من سكانها ينامون فى الحدائق أو على قارعة الطريق لاكتظاظ المدينة بالسكان، وأنها أكبر من باريس سبع مرات[٥٨].

وزارها الرحَّالة الفرنسى Ogier سنة ١٣٩٥م، أى بعد الفناء الأسود بحوالى نصف قرن مع مجموعة حجَّاج فرنسيين، وقد شد انتباههم كبر حجمها، والعدد الهائل من سكانها، والذين قدرهم أحد المؤرخين بأكثر من ستمائة ألف[٥٩].

وزارها الرحَّالة جيليرت دى لانوى سنة ١٤٢١، وذكر أن المدينة كانت مزدحمة جداً بالسكان، كما أن أسوارها تبدو لمن يمر بها غير مرئية بسبب كثرة المنازل فى الضواحى المجاورة للأسوار فى كل جانب[٦٠].

ويذكر بيلوتى الكريتى الذى قضى فيها الفترة من ١٣٩٦-١٤٣٨م: أن عدد سكانها لا يُحصى[٦١]. وفى سنة ١٤٥٨م قال عنها "روبرتو سانسفرينو": إنها عظيمة الاتساع إلى حد لا يصدق، فهى أكبر من ميلانو أربع مرات[٦٢].

وقال عنها اليهودى موشلام بن مناحم الفولتيرى سنة ١٤٨١م: إنه لو أمكن وضع كل من مدن "روما" و "ميلان" و "فلورنسة" بالإضافة إلى أربع مدن أخرى إليها، فإنها لن تستوعب معًا عدد سكان القاهرة[٦٣].

بينما يذكر الرحَّالة "فان دى جوز سنة ١٤٨٣م": أنه وجد أعداداً كبيرة جداً من السكان، حيث كانوا يعيشون كل ثلاث أو أربع عائلات فى منزل واحد، ولا يمكن أن تتسع المدينة لهذا العدد الضخم من السكان، لذا ترى كثيراً منهم يسكنون حول المدينة[٦٤].

وقال عنها الرحَّالة باسيل سنة ١٤٦٥: إن بها أربعة آلاف شارع ودرب، وكل منها له بابان وحارسان، وفى بعض هذه الشوارع ما يقرب من خمسة عشر ألف مسكن، ولكل شارع سوق كبير لسد احتياجات سكانه اليومية[٦٥]. وقال عنها الأب فرنسيسكو

سوريانو رئيس طائفة الرهبان الفرنسيسكان بالقدس سنة ١٤٨٩م: إن سكانها بلغوا مليونًا ونصف المليون، واتفق معه في الرأي الرحَّالة "الأب باجاني" الذي زراها نفس العام. بأن سكانها ليسوا أقل من ذلك[٦٦].

وقال عنها ابن ظهيرة "من علماء القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي": ولقد تواترت الأخبار وأجمع المسافرون والسائحون في بلاد الله تعالى الشاسعة، وأرضه الواسعة، أنه ليس في الدنيا تحت السماء من مشرقها إلى مغربها مدينة أعمر بكثرة الخلق منها، لا يكاد ينقطع الزحام بشوارعها العظيمة...[٦٧].

وذكر ليو الإفريقي "الحسن بن الوزان" الذي زارها سنة ١٥١٧م: بأنها القاهرة الكبرى الباهرة، أكبر مدن العالم، وأكثرها رونقًا وبهاء[٦٨]. وأخيرًا وصفها الرحَّالة الفرنسي تينو Thenaud الذي زارها سنة ١٥١٨م: بأنها أكبر من باريس خمس مرات[٦٩]. كل هذا يعكس النمو المطرد لعدد السكان وتأثيرهم في تضخمها العمراني.

إنتاجهم الأدبي:

كان من بين هؤلاء النازحين الكثير من الشعراء فمنهم من التقط بعض أمثلتهم ونظمَّها في شعره، وكثرت في أشعارهم اللقطات السريعة التي كثيرًا ما تكون تعليقًا ساخرًا على الأحداث وما تتميز به من روح الفكاهة وسرعة الخاطر، وكثيرًا ما جعل شعراؤهم من أنفسهم موضع السخرية، فيصور الواحد منهم نفسه في صورة الجاهل أو الأحمق أو الأبله الذي لا يكاد يعي شيئًا[٧٠].

واصطنع كثير منهم المواويل. ومن نتاجهم الأدبي الزجل الذي لمعت فيه أسماء كثيرة : شرف الدين بن أسد، إبراهيم المعمار، أبو عبد اللّه خلف الغباري، وكان لهؤلاء الزجَّالين مكانة عظيمة في نفوس الشعب المصري، لدرجة أن من يلمع اسمه في هذا الفن يسمونه "قيمًا". وشارك الزجَّالون بزجلهم في السياسة وأحداثها،

فالغبارى مثلاً يقول مستبشراً بعهد السلطان الأشرف شعبان(٧١):

حب قلبى مـــوفق رشـــيـــد

وجـمـالو أشـرق ومـالو حـدود

وأبوه الحـسن وعـمـه الحـسـين

وارث الملك من جـدود الجـدود

كما أنهم اخترعوا نوعًا من الزجل يسمى البلاليق، وهو لون يتضمن الهزل والخلاعة "إن اختراع البليق تم فى القرن السابع الهجرى". ولسيرورة البلاليق وخفتها على الألسنة عمد الزجّالون إلى تضمينها آراءهم ونقدهم اللاذع للنواحى السياسية والاجتماعية، من ذلك ما كانوا يتغنون به فى سلطنة بيبرس الجاشنكير:

سـلـطـانـنـا ركـــــيـــن

ونـائـبـــــه دقـــــيـــن

يجينا الماء من أين هاتوا لنا الأعرج

يـجـى المـاء يـدحـــــرج

أى أطلقوا على السلطان بيبرس الجاشنكير الذى لقبه "ركن الدين ركين" وسموا الأمير "سلار" نائب السلطنة فى عهد بيبرس هذا "دقين" لأنه كان أجرد فى حنكه بعض شعيرات. "الأعرج" قصدوا به الناصر محمد بن قلاوون لما كان به من العرج(٧٢).

أما عن دور هؤلاء النازحين فى الحياة الثقافية فيمكن القول بوجه عام: إنهم عبّروا عن أنفسهم فى: الأدب، وفنون القول والشكل، وفى الأمثال والنوادر والحكم الشعبية وفى التراث الشعبى عامة. وحيث إن هناك العديد من الدراسات عن "خيال الظل" وتمثيلياته، و "السير الشعبية" وأبطالها، والأدب العامى، والحكم والنوادر، فإننى سأنتهز الفرصة للحديث قليلاً عن الأمثال التى شاعت فى ذلك العصر، لما تعكسه من علاقات بين مختلف فئات الشعب آنذاك.

فعن موقفهم من القوي السياسية:

فمن المعروف أن ظاهرة "البذل" و "البرطلة" وكثرة عمليات عزل وتولية أرباب الوظائف الذين يدفعون الأموال الجمة، وكثرة تصيد سلاطين وأمراء المماليك، الجراكسة لمن يدفع فى المنصب أكثر لذلك فقد قالوا عن السلطان برقوق ونائبه الأمير بركة(٧٣):

إن برقوق وبركة نصبًا

على الدنيا الشبكة

كذلك قالوا: البرطيل شيخ كبير أى الرشوة تحل المشكلات وتصرف الأمور، كالشيخ الواصل إذا التجأ إليه ملتجى(٧٤).

ومن أمثالهم التى توضح العلاقة بين الحاكم والمحكوم قالوا: آخر خدمة الغز علقة(٧٥).

أى إن خدمتهم وأخلصت لهم فإنهم يكافئونك فى آخر خدمتك بالضرب.

ومن أمثالهم التى توضح العلاقة بينهم وبين أولاد الناس أى أولاد المماليك قولهم:

إكمن أبوك جندى

داير تهز وسطك

أو إكمن أبوك سنجق

داير فى حل شعرك

والمعنى: أ لأن أباك أمير ذو سطوة أبحت لنفسك كل محذور، وفعلت ما تشتهى بلا مبالاة.

وكذلك قالوا عنهم:

زى شحات الترك جعان ويقول مش لازم. ويضرب لما يتعالى عن قبول ما ساقه الله إليه من الرزق وهو محتاج إليه[٧٦].

كذلك كان لهم تندرهم بهؤلاء المماليك فيما أطلقوه عليهم من ألقاب، فعند اشتهار أحدهم بحب أكلة معينة أطلقوا عليه لقبًا يفيد ذلك. مثل: الأمير طشتمر البدرى الناصرى ٧٤٣هـ لقبوه بلقب "حمص أخضر" والأمير قطلوبغا الفخرى ت ٧٤٢هـ لقبوه "بالفول المقشر". ولأن الأمير "بدر بكتوت" كانت له عين زرقاء والأخرى سوداء، وهذا هو الأحيف فى لغة العرب، فسموه "بكتوت الأزرق"[٧٧].

كما أنهم عكسوا لنا عناية بعض ولاة القاهرة بتطهيرها من الكلاب، والذين أصدروا التعليمات بتكليف كل أمير وتاجر بأن يحضر عددًا معينًا من الكلاب وتسليمها إلى الوالى. والذين قاموا بدورهم بتكليف الكثيرين من المعدمين من هؤلاء النازحين بصيد هذه الكلاب وبيعها لهم الكلب بدرهم فى سنة ١٣٧٩م. فقالوا:

فرَجت عليه كلاب البلد[٧٨].

ومن أمثلتهم التى يسخرون بها ممن يجعل الضعيف وسيلة لنفعه ولو بالإضرار به قالوا: أتعلم الحجامة فى روس اليتامى[٧٩].

ومن أمثلتهم التى تعكس التقلبات الاقتصادية وخصوصًا التلاعب بالعملة وتذبذب أسعارها، قولهم: "الميدى الأبيض ينفع فى النهار الأسود"، والميدى نسبة إلى المؤيد شيخ أحد سلاطين الجراكسة[٨٠].

وفى تندرهم بالجلبان فى عصر الجراكسة ويقصد بهم من تم جلبهم كبارًا، قالوا: "لا للسيف ولا للضيف" وهو مثل يضرب للشخص عديم الفائدة[٨١].

وفى تندرهم بالمصادرات قالوا: "المفلس يغلب السلطان" أو "المفلس فى أمان"[٨٢].

وفى نقدهم الحكام قالوا: أرقص للقرد فى دولته"[٨٣].

ومن أمثالهم فى السخرية بمن لا يفهم ما يقال له قولهم: "أقول له أغا يقول ولاده كام".أى إذا قلت له: هذا أغا أى خصى، قال لك: كم له من الأولاد(٨٤). وفى تعبيرهم عما كان سائداً من تفضيل الجوارى على النساء الحرائر قولهم: "ألف رفيقة ولا لزيقة"(٨٥). أى ألف خليلة ولا زوجة تلتصق بك العمر كله.

وفى تعبيرهم عن المثل العربى الشائع: كما تدين تدان قالوا: "اللى تعمله المعزة فى القرض يخلصه القرض من جلدها". يقصدون نبات القرظ المستخدم فى دباغة الجلود(٨٦).

وفى تعبيرهم عمن يحاول إصلاح أمر لا يصلح قالوا: "إيش تعمل الماشطة فى الوجه العكر"(٨٧).

وفى تعبيرهم لمن يفخر بما ليس له فيه شىء قالوا: "زى الأغوات يفرحوا بولاد أسيادهم"(٨٨).

كما تجد فى أمثالهم كثيراً من الدلالات الطبية، فقد فطنوا إلى أثر الهواء فى انتشار الأوبئة فقالوا: "إن فلاناً أصابته لفحة هواء" أو "استهوى"، كما أدركوا أن الريح تحمل الأمراض لسخونتها أو برودتها أو رطوبتها أو لفعل الجراثيم التى قد تحملها فقالوا: "إن البطيخ إذا شم الهوا فسد"(٨٩).

كما جرت العادة أن تكون زيادة النيل فى شهر "أبيب" قليلة، حتى قيل: فى أبيب يدب الماء دبيب" أما شهر "مسرى" فتكون الزيادة كثيرة يقال لها "عرس النيل" مظنة الوفاء حتى قيل: "إذا لم يوف النيل فى مسرى فانتظره فى السنة الأخرى"(٩٠).

وهناك العديد من الأمثلة التى رددوها، وما زال بعضها متداولاً حتى عصرنا الحالى(٩١).

الهوامش

(١) المقريزى "تقى الدين أحمد بن على" الخطط، القاهرة ١٩٠٧، ج، ص ٥٣-٥٤ .

(٢) المصدر السابق، ج، ص ٥٤-١١٢؛ ابن الحاج: المدخل، مدخل الشرع الشريف على المذاهب، القاهرة ١٩٢٩، ج، ص ٢٢٧-٢٦٤ .

(٣) المقريزى: إغاثة الأمة بكشف الغمة، القاهرة، ١٩٤٠، ص ٢٦-٥٨ .

(٤) المصدر السابق، ص ٥٢-٦٠؛ ابن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور، نشر د . محمد مصطفى، القاهرة ١٩٧١ -١٩٧٢ جـ١، قسم ١، ص ٢٢٤ .

(٥) المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٤، قسم ١، ص ٤٥٨؛ ابن إياس: نفسه، جـ١، قسم١، ص ٢٧٠ .

(٦) يشير المقريزى إلى جفاف "بحيرة الإسكندرية" و"خليج الإسكندرية" أى ترعة المحمودية منذ سنة ٧٧٠هـ، وما استتبع ذلك من هجرة كثير من الصيادين والفلاحين بحثا عن مناطق أخرى يزاولون فيها نشاطهم، وفشل المحاولات فى إصلاح هذا الخلل، انظر السلوك، ج، ق٢، ص ٦٠، كذلك انظر، الخطط، ج٢، ص ٣١٨ .

(٧) المقريزى، السلوك، ج، ص ٦٣٣-٦٣٦، إغاثة الأمة، ص٣٦-٤١ .

(٨) أبو المحاسن "جمال الدين يوسف بن تغرى بردى" حوادث الدهور، كاليفورنيا ١٩٣١، ج، ص ٦٥٤، النجوم الزاهرة ج، ص ١٤٩؛ المقريزى: السلوك، جـ٥، ق٣، ص ٩٢٠ .

(٩) الشربينى "يوسف بن محمد بن عبد الجواد بن خضر": هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف، طبعة بولاق ١٨٩٠ م، ص ٢-١٥؛ د . سعيد عاشور: المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩١٣، ص ٤٨-٤٩ .

(١٠) فؤاد عبد المعطى الصياد: المغول فى التاريخ، بيروت ١٩٧١، ص ٢٣٠؛ ابن إياس: بدائع الزهور، جـ١، ص ١٠٢-١٠٣ .

(١١) المقريزى: السلوك، جـ٣، ق٢، ص ٥٩٧-٥٩٨؛ الخطط، جـ١، ص١٤٤؛ السخاوى: التبر المسبوك فى ذيل السلوك، بولاق، ١٨٩٦، ص ٢١١؛ د . سعيد عاشور: المجتمع المصرى، ص ٣٦-٣٩ .

(١٢) المقريزى: الخطط، جـ١، ص ٨٩ .

(١٣) سعيد عاشور: المجتمع المصرى، ص ٣٧-٤٠ وما به من مصادر .

(١٤) المقريزى: السلوك، جـ٣، ق٢، ص٥٩٧ - ٥٩٧ .

(١٥) المصدر السابق نفسه، ص ٥٨٩ .

(١٦) سعيد عاشور: المجتمع المصرى، ص ٣٨ .

(١٧) السيوطى "جلال الدين عبد الرحمن": الكنز المدفون والفلك المشحون، ص ١٨؛ السخاوى: التبر المسبوك، ص ١٤٦-١٩٠؛ سعيد عاشور: نفسه، ص ٣٩-٤٠ .

(١٨) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ١١٨ .

(١٩) لقد جذبت هذه المعامل أنظار كثير من الرحالة الأجانب الذين زاروا مصر فى ذلك العصر، والتى انتشرت بكثرة فى غرب القاهرة بطول المنطقة الممتدة من بولاق إلى "مصر العتيقة"، والتى كان لها الفضل فى أن القاهرة كانت مليئة بالدجاج والأوز والبط. أما عن الطريقة التى كانت تعمل بها هذه المعامل فمن الواضح أنهم توارثوها عبر الأجيال والتى كانت شائعة عند قدماء المصريين انظر: على السيد على: القاهرة فى عيون الرحالة الأوربيين فى القرن الرابع عشر والخامس عشر الميلادى، مجلة فكر للدراسات والبحوث، العدد ١٣ أكتوبر ١٩٨٨، ص ٧٤ -٧٦؛ وليم نظير: الثروة الحيوانية عند القدماء المصريين، ص١٦٩؛ السيوطى، حسن المحاضرة، ج؛ ص٣٢٧؛

(٢٠) Thomas wright Early Travels in Palestine . p 152; Prescott : the Wandering of Felix Fabri , pp . 146-147 ; Dopp : L. Egypte au commencement du quanzieme siecle , le caire 1950, p 38

(٢١) سعيد عاشور: المجتمع المصرى، ص ١١٩ -١٢٤ .

(٢٢) الشربينى: هز القحوف، ص ٥٤، المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ١١٨-٢٤٠ .

(٢٣) ابن إياس: بدائع الزهور، جـ٢، ص ٢٤٣ .

(٢٤) أحمد صادق الجمّال: الأدب العامى، ص ١١٨-١٤٢ .

(٢٥) ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة، دار الكتب ١٩٦٩، ص ٢٠٠-٢٠١ .

(٢٦) يذكر الرحّالة فيلكس فابرى الذى زار القاهرة سنة ١٤٨٣ م أن منازل بعض الأمراء كانت تحتوى على مجموعات من الطيور والحيوانات النادرة، وأنه شاهد بعض المصريين يقومون بتدريبها على القيام ببعض الألعاب المسلية مثل ألعاب السيرك فى عصرنا الحالى . انظر:

(٢٧) Prescot : Once to sinia , London , 1957 , p . 118 Martin Baumgarten :the Travels of Martin . N . D , pp . 441-442 .

(٢٨) يصف الرحّالة العياشى الذى زار القاهرة عام ٩٠٧ هـ. ما رآه بقوله: "وهناك خلق من المصريين يلعبون فى سائر الأيام كأنواع المشعوذين وأصحاب القرود، ومن ضاهاهم من أصحاب اللعب بأنواع الحيوانات كالدبب والحمير والتيوس والكلاب... وبالجملة فأهل مصر لهم ذكاء رائد، وحيل غريبة، قد سخر لهم أنواع الحيوانات، فقليل من أصناف الحيوانات ما لا يوجد عندهم مسخرا" انظر: الرحلة العياشية، ص ١٢٥، ١٢٩، ١٣٢، ١٥٥؛ عبد الرحمن زكى: القاهرة، تاريخها، وآثارها، القاهرة ١٩٦٦، ص ١٩٥-١٩٦ .

(٢٩) عبد الرحمن زكى: القاهرة، ١٩٦ .

(٣٠) Francesco Suriano : Treatise on the Holy Land , Jerusalem 1948, p . 192 .

(٣١) قاسم عبده قاسم: النيل والمجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، ١٩٧٨، ص ١٣٠-١٣٧ .

(٣٢) د. قاسم عبده قاسم: دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى، ص ٢-١٨ .

(٣٣) المقريزى: السلوك، ج، ص٤٢٨؛ ابن تغرى بردى: النجوم، جـ٥، ص ٤٢؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج، ص ٣٤٧ .

(٣٤) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٢٨٠-٢٩١ .

(٣٥) المقريزى: السلوك، جـ٣، ص ٤٧٧؛ د . سعيد عاشور: نفسه، ص ٥١ .

(٣٦) ابن الجيعان: التحفة السنية، ص ٨٠-٢٤٠ .

(٣٧) على السيد على: القاهرة فى عيون الرحالة الأوربيين، ص ٨٦ وما بها من هوامش: المجلة التاريخية المصرية، المجلد العشرون لسنة ١٩٧٣م، ص ٢١٢ -٢١٩ .

(٣٨) Thevet Andre : Voyage en EGYPTE , Le Caire , 1984, p . 455 .

(٣٩) أحمد صادق الجمال: الأدب العامى فى مصر، ص ١٨٨ .

(٤٠) المرجع السابق: ص ١٥٠-١٧٥ .

(٤١) زكى مبارك: التصوف الإسلامى فى الأدب والأخلاق، القاهرة ١٩٣٨، جـ١، ص ٣٦١؛ د . سعيد عاشور: المجتمع المصرى، ص ٤٩ .

(٤٢) الطالع السعيد، ص ٢١٨ .

(٤٣) راجع: المقريزى: السلوك؛ ابن تغرى بردى: النجوم؛ الشربينى: هز القحوف؛ ابن إياس: بدائع الزهور؛ ابن الجيعان: التحفة السنية .

(٤٤) المقريزى السلوك، جـ٣، قسم ٢، نشر د . سعيد عاشور، ١٩٧٢، ص ٢٦٢، على باشا مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢، جـ٢، ص ١٨٣-٢٢٣ .

(٤٥) انظر على سبيل المثال: ابن الإخوة: معالم القربة .

(٤٦) Avisit to the Holy Places, Jerusalem 1948 , p . 77 .

(٤٧) وراجع كذلك: المقريزى: الخطط، جـ٢، ص٩٦، السيوطى: حسن المحاضرة جـ٢، ص ٣٢٧ .

(٤٨) على باشا مبارك: نفسه، جـ٢، ص ٤٢٠ .

(٤٩) المرجع السابق، ج، ص، د . سعيد عاشور: نفسه، ص ١٣٨ .

(٥٠) Dopp : op . cit . p . 67 .

(٥١) Ibid , p . 67 ; Frescobaldi : A visit to the Holy places , Jerusalem , 1948 , p . 48 .

(٥٢) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٨٩؛ ابن تغرى بردى: النجوم، جـ٥، ص ١٣٨؛ السخاوى: التبر المسبوك فى ذيل السلوك، ص ٣٢٢ .

(٥٣) ابن تغرى بردى: النجوم، جـ٥، ص ٤٦٤، المقريزى: السلوك، جـ٣، قسم٢، ص ٦٣٨ .

(٥٤) المقريزى: السلوك، جـ٣، ص ١٩؛ سعيد عاشور: المجتمع المصرى، ص ٨٤ .

(٥٥) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج، ص٤٣٩، حوادث سنة ٧٩٨هـ .

(٥٦) ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص ٢٠٢ .

(٥٧) المصر نفسه، ص ٢٠٢-٢٠٤ .

(٥٨) على باشا مبارك: نفسه، جـ٤، ص٢١٨ .

(٥٩) عن عمليات طرح البحر راجع المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ١١٣؛ عبد الرحمن زكى: القاهرة، ص ٢٣٩ - ٢٤٠؛ على السيد على: القاهرة في عيون الرحّالة الأوربيين، ص ٨٥-٨٦ .

(٦٠) على السيد على: القاهرة فى عيون الرحّالة الأوربيين، ص ٨٧ .

(٦١) A visit to the Holy Places , pp . 99-100.

(٦٢) Loc . Cit .

(٦٣) Jusserrand : English Wayfaring Life in the Middle Ages , London , 1961 , p . 238 .

(٦٤) Atiya (A . S) : The C r u sade in the later Middle Ages , London , 1938 , p . 193 .

(٦٥) Dopp : Op . Cit. 3 , 101 .

(٦٦) Ibid: PP . 105 -120.

(٦٧) Adler : Jewish Travelers , London , 1930 , PP . 166-167 .

(٦٨) Lapidus ; Muslim Cities in . the later Middle Ages Cambridge 1967 , PP . 85-95 .

(٦٩) على السيد على: نفسه، ص ٨٨:١٨-٢٠ . Van de Joose : Le Voyage en Egypte ,pp .

(٧٠) سعيد عاشور: المجتمع المصرى، ص ٨٤؛ على السيد على: نفسه، ص ٨٩ .

(٧١) Treatise on the Holy Land , Jerusalem , 1948 , PP . 191 -1903

(٧٢) ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة ص ١٨٨ .

(٧٣) وصف أفريقيا، ترجمة عبد الرحمن حميدة، الرياض، ١٣٩٩هـ، ص ٥٧٩ .

(٧٤) Thenaud , Jean : Le Voyage D 'Outremer , Paris , 1884 , p .46 .

(٧٥) محمد فوزى حسين: المجتمع المصرى فى أدب العصر المملوكى، القاهرة ١٩٨٢، ص ١١٥-٢٥٠ .

(٧٦) أحمد صادق الجمّال: الأدب العامى فى مصر فى العصر المملوكى، ص ١٣٩ - ١٨٠ .

(٧٧) المقريزى: السلوك، جـ٣، ص ٥٥؛ ابن حجر العسقلانى، إنباء الغمر، جـ٢، ص ٢٩٣-٢٩٤؛ سعيد عاشور: المجتمع المصرى، ص ١١٠ .

(٧٨) قاسم عبده قاسم: دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى، ص ١٧٨؛ د . أحمد عبد الرازق أحمد: البذل والبرطلة فى عصر سلاطين المماليك، والكتاب كله عن عمليات الرشوة والمزايدة فى الحصول على المناصب جميعها .

(٧٩) أحمد تيمور باشا: الأمثال العامية، مركز الأهرام للترجمة والنشر، الطبعة الرابعة ١٩٨٦، ص ١٨، ١٢٩ .

(٨٠) المرجع السابق، ص١ .

(٨١) المرجع نفسه، ص ٣٨ .

(٨٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٧، ص٣٤؛ د . سعيد عاشور: المجتمع المصرى، ص٢٠٠-٢٠١ .

(٨٣) المقريزى: السلوك، جـ٣، ق٢، ص٤٣٩؛ ابن تغرى بردى: النجوم، جـ٧، ص ٣٨٠؛ ابن حجر العسقلانى: إنباء الغمر، ج، ص ١٢٥ .

(٨٤) أحمد تيمور باشا: المرجع نفسه، ص٩ .

(٨٥) المرجع السابق، ص ٤٨٣ .

(٨٦) أحمد تيمور باشا: نفسه، ص ٤٢٠ .

(٨٧) المرجع السابق، ص٤٦١ .

(٨٨) المرجع السابق، ص١٨ .

(٨٩) المرجع السابق، ص٣٤ .

(٩٠) المرجع نفسه، ص ٤٠ .

(٩١)المقريزى: السلوك، جـ٣، ق٢، ص ٦١٧، أحمد تيمور: نفسه، ص٤٧ .

(٩٢) أحمد تيمور: نفسه، ص١١٧ .

(٩٣) المرجع السابق نفسه، ص ٢٣٥ .

(٩٤) أحمد صادق الجمّال: الأدب العامى، ص١٨٠ .

(٩٥) المقريزى: السلوك، جـ٣، ق٢، ص٦١٦ .

(٩٦) راجع: أحمد تيمور: المرجع السابق حيث تزخر صفحاته بالكثير والكثير من الأمثال.

الـتـراجـمـة فـي عـصـر سـلاطـين المـالـيـك

مقدمـة :

لعب التراجمة في العصر المملوكي "١٢٥٠-١٥١٧م" دورًا مـهمـا وبارزًا في كثير من نواحي الحياة، هذا الدور كان انعاكسًا لطبيعة ذلك العصر، والظروف التي فرضتها مجريات الأحداث التي أحاطت به.

ذلك أن إحياء الخلافة العباسية في مصر منذ بداية العصر المملوكي قد أضفي علي سلطنة المماليك مزيدًا من الأهمية التاريخية، فأصبحت قبلة للبلدان الإسلامية المتحدثة بالعربية وغير العربية، لأن حكَّام هذه البلاد كانوا يعتقدون أن توليهم حكم المسلمين في بلادهم لا يكون شرعيًا إلا بكتابة الخليفة العباسي المقيم في القاهرة تقليدًا لهم بذلك، وغالبًا ما كانت مثل هذه السفارات التي تأتي إلي مصر بغرض طلب تقليد من الخليفة تصل إلي السلطان المملوكي أولاً(١). كما أنه ليس هناك من شك في أن العاصمة المملوكية في القاهرة قد أضحت بعد سقوط بغداد، ثم سقوط قرطبة وباقي القواعد الأندلسية الكبيرة هي زعيمة الإسلام، وممثلته والمتحدثة باسمه، والمنظمة لعلائقه مع سائر الدول المسيحية، مما ضاعف اهتمام الدول المسيحية لعقد أواصر الصداقة والمودة مع القاهرة، فضلاً عن أن مصر كانت ترقب دائمًا وبعين الاهتمام مصائر المسلمين الذين بقوا تحت الحكم الإسباني(٢) وربما كان هذا أحد الدوافع الرئيسية في حرص السلطان الظاهر بيبرس علي إقامة علاقات طيبة مع بعض الملوك الإسبان، حيث تشير المصادر التاريخية العربية والقشتالية إلي تبادل السفارات بين مصر وملك قشتالة ألفونسو العاشر سنة ١٢٦١م (٣).

كذلك كان من نتيجة قيام المماليك بالقضاء بشكل حاسم ونهائي علي الخطرين الصليبي والمغولي، وإفشال المخططات الصليبية من قيام تحالف بين الصليبيين والمغول من جهة وبينهم وبين ملوك الحبشة من جهة أخري، ثم اعتناق المغول الإسلام خاصة مغول إيران والقفجاق أثره الواضح في لجوء كثير من ملوك وحكّام الغرب الأوروبي إلي محيط الدبلوماسية، وتأسيس العلاقات الودية مع سلطنة المماليك، فضلاً عن قيام البورجوازية التجارية في دويلات شمال إيطاليا، وعملها علي زيادة أسباب الاتصال مع كافة البلدان وفتح طرق التجارة البرية والبحرية [٤]، والتي أدركت ما لسلطنة المماليك من أهمية بحكم موقعها الاستراتيجي التجاري والذي يلتقي فيه المشتغلون بتجارة "العبور" "الترانزيت"، هذا الموقع جعلها حلقة الوصل بين الشرق والغرب، وسوقًا للتعامل والتبادل التجاري بين آسيا وأفريقيا من ناحية وبلاد البحر المتوسط ودول غرب أوروبا من ناحية أخري [٥]. مما أدى إلي ازدهار النشاط التجاري بين الشرق والغرب، وما ترتب عليه من وجود كثير من الاتفاقات والمعاهدات التجارية والمراسلات الخاصة بها، والأزمات التي تخللت تاريخ العلاقات التجارية بين سلطنة المماليك وكثير من المدن التجارية الأوروبية مثل: البندقية وجنوة وبيزا وفلورنسة، وبرشلونة وأمالفي، ونابلي ومونبليه ونربونة ومرسيليا [٦]. مما تطلب نشاطًا مناسبًا في العلاقات الدبلوماسية لتنظيم المعاملات التجارية ومعالجة ما قد يظهر من مشكلات، وما صاحب ذلك من تبادل السفراء والرسل والمراسلات الرسمية، وقيام المفاوضات بين الأطراف المعنية، والتي أسفرت عن العديد من المعاهدات والاتفاقات ذات الطابع التجاري.

كذلك ظهرت الحاجة إلي التراجمة بسبب السفارات التي وصلت العاصمة المملوكية من البلاد الإسلامية: كبلاد التكرور، وهندوستان وبلاد الروم وبنغالة من بلاد الهند، وأمراء بني قرمان، ومغول إيران ومغول القفجاق وغيرها، إما بقصد تدعيم الروابط الثقافية مثل تبادل الكتب النادرة وتسهيل مهام الطلاب، أو السفارات العسكرية سواء ما جاء منها للتهديد أو الصلح أو طلب نجدة، والسفارات التي جاءت بغرض إخباري بحت، مثل: الإعلان عن حركة أحد الجيوش المعادية ليكون سلطان المماليك علي حذر، أو الإعلان عن هزيمة أحد الملوك، أو الإخبار عن أحوال البلاد

المحيطة بهم، أو الشكوي من الإغارة علي بلادهم، أو الشفاعة في أحد، أو التحقق من جلوس سلطان من السلاطين علي العرش، والتهنئة بذلك، والأمثلة علي مثل تلك السفارات عديدة ومتنوعة والمصادر المعاصرة حافلة بها (٧).

كما أنه نظرًا للمفاهيم الدينية التي حكمت تصرفات الناس في تلك العصور، والتي تجلت بصورة واضحة في كثير النواحي، منها نظرة أبناء الغرب الأوروبي إلي الحج إلي الأراضي المقدسة في كلٍ من مصر وبلاد الشام، والذي اتخذت منه الكنيسة الغربية الكاثوليكية وسيلة لأن يكفِّر به أتباعها عن خطاياهم إما لسنة واحدة أو لسبع سنوات أو لمدي الحياة.

ومنذ القرن الثالث عشر الميلادي لدينا العديد من الإشارات التي وردت علي ألسنة هؤلاء الحجَّاج (٨) عن عدد سني الغفران التي يختص بها كل موضع زاره هؤلاء الحجَّاج، هذا إلي جانب السفارات التي بعث بها كثير من أباطرة الدولة البيزنطية وبعض ملوك الحبشة، يطلبون فيها إرسال رجال دين إلي بلادهم لرعاية شئون رعاياهم من المسيحيين، مثال ذلك: السفارة التي أرسلها ميخائيل الثامن إمبراطور الدولة البيزنطية إلي الظاهر بيبرس، يطلب فيها إيفاد بطرك من الملكانية ليرعي شئون الطائفة الملكانية في دولته (٩). وكتب ملوك الحبشة بلغتهم يطلبون بعض المطارنة للإشراف علي الكنيسة الحبشية ورعايتها(١٠). هذا إلي جانب كثير من السفارات التي بعث بها ملوك الغرب الأوروبي بقصد إعادة فتح كنيسة القيامة – التي كان يتم غلقها أحيانًا كنوع من الضغط السياسي عليهم أمام المحاولات الصليبية المتكررة التي قام بها أبناء الغرب الأوروبي للإغارة علي ممتلكات ومدن وموانئ وسفن المسلمين – وكذلك السفارات التي كانت تأتي بهدف قيام بعض جماعات الرهبان الأوربيين مثل: الفرنسيسكان والدومينيكان للإشراف علي بعض الأماكن المقدسة في فلسطين، أو للوصاية برعايا السلطان من المسيحيين (١١).

وإن كان تنوع مثل هذه السفارات أو تلك يدل دلالة واضحة علي مدي ما تمتعت به سلطنة المماليك في مصر والشام من نفوذ وهيبة، بحيث حرصت كل القوي المعاصرة

علي أن ترسل سفاراتها إليها في أغراض متنوعة، فإن ذلك حتم عليها أن يكون لديها جهاز ضخم من التراجمة، وهم الذين قاموا بالترجمة من اللغات العديدة والمختلفة التي تمثلها هذه السفارات إلي السلاطين، وكذلك بمهمة الترجمة بين السلطات المحلية وبين أعضاء هذه السفارات والبعثات، وتسهيل مهامهم التي وفدوا من أجلها ولتسهيل التفاهم وتفهم النوايا، فضلاً عن إرسال كثير من هؤلاء التراجمة لمصاحبة السفارات التي كانت ترسلها الدولة إلي مختلف البلاد، بل وقيام كثير منهم بدور مهم في المفاوضات والإعداد للمعاهدات وصياغتها، إلي جانب مساهمتهم في تسهيل عمليات التبادل التجاري بين أبناء الجاليات التجارية الأوروبية التي استقرت في كثير من مدن وموانئ السلطنة ذات النشاط التجاري المهم، كذلك كان لهم دورهم داخل البلاد سواء في ديوان الإنشاء أو في قيامهم بالترجمة بين كثير من السلاطين والأمرًاء المماليك وبين أتباعهم. يضاف إلي هذا اشتغال كثيرين منهم كتراجمة ومرشدين سياحيين في نفس الوقت لمصاحبة الرحًالة والحجًاج الأوروبيين المسيحيين، إلي جانب وجود بعض التراجمة الذين يمثلون بعض الأقليات التي أقامت في البلاد مثل: أهل النوبة وبلاد التكرور.

كانت هذه لمحة سريعة عن الظروف التي أحاطت بسلطنة المماليك وأدت في نفس الوقت إلي ضرورة استخدام أعداد كبيرة من التراجمة. أما عن هؤلاء التراجمة فيجدر بنا قبل الحديث عن دورهم في ذلك العصر أن نشير إلي أصلهم وحياتهم.

أصل التراجمة:

في الحقيقة أن أصول هؤلاء التراجمة تعددت تعدداً واضحاً، تشهد عليه المصادر والمراجع التي أشارت إليهم في ذلك العصر، فيفهم من المصادر المعاصرة أن السلطان الظاهر بيبرس – المؤسس الحقيقي لدولة سلاطين المماليك – قد استفاد من بعض العناصر الإسلامية التي وفدت علي سلطنة المماليك من بلاد إيران لمعرفتها اللغة الفارسية، كذلك أبناء الدولة الخوارزمية، واستفاد منهم واستخدمهم كتراجمة في دولته

خاصة في ترجمة الكتب الواردة من المغول سواء في بلاد فارس أم مغول القفجاق[١٢]. وقد استمرت سياسة الاستعانة بمثل هذه العناصر حتي في عصر دولة المماليك الثانية أو الجراكسة، حيث تشير المصادر إلي أنه في عهد الظاهر برقوق تمت الاستعانة بالقاضي بدر الدين محمود بن عبد الله الكلستاني السيرامي والذي كان من بلاد العجم حسب قول ابن حجر العسقلاني[١٣] يضاف إلي هذا ما تشير إليه بعض المصادر من أنه نظراً لكثرة أعداد "التكاررة" بمصر فقد عمد بعض سلاطين المماليك إلي تعيين ترجمان لبلاد التكرور، ونقصد بهم أهالي بلاد السودان الغربي والأوسط[١٤]. كذلك نسمع عن وجود ترجمان لأهل النوبة والذي ذكره المقريزي تحت اسم "الحاج ياقوت ترجمان النوبة" [١٥]. ونتيجة لتوافد أعداد كبيرة من بلاد المغول إلي مصر منذ بداية العصر المملوكي ودخول الكثيرين منهم في الإسلام، لذا تشير كثير من المصادر المعاصرة إلي استخدام بعض هذه العناصر كتراجمة وأن السلاطين كثيراً ما كانوا يبعثون برسلهم وتراجمتهم إلي بلاد المغول المختلفة بأفراد من جنسهم والعارفين بلغتهم [١٦].

كذلك لا نستبعد وجود بعض ممن اشتغلوا من السكان الوطنيين بالترجمة، وهؤلاء تعلموا لغة الأجانب لكونهم إما من التجّار الذين اختلطوا بالعناصر الأجنبية نتيجة لترحالهم أو من اختلاطهم بهم داخل البلاد بحيث أتيحت لهم فرصة معاشرتهم وتعلم لغتهم [١٧].

أو كانوا من أبناء الجواري اللاتي كن من أصول مختلفة وبخاصة من الفرنج، فتعلموا لغة أمهاتهم، حيث تشير المصادر المعاصرة إلي شغف كبار رجال الدولة – محاكاة لسلاطينهم وأمرائهم – للتسري بهؤلاء الجواري، ثم اتخاذهن زوجات لهم بعد الإنجاب[١٨].

أضف إلي هذا ما تشير إليه بعض المصادر من استخدام بعض التراجمة من أبناء البلاد خاصة من المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام، مثال ذلك ما يرويه ابن طولون في حوادث سنة ٩١٧هـ/١٥١١م أيام السلطان قانصوه الغوري من قول ودخل

"محب الدين الأسلمي بخمسة وظائف: كتابة السر، ونظر الجيش، والترجمة، ونظر القلعة" [١٩]. ويبدو أنه كان لهم ولع بتعلم بعض اللغات الأخري إلي جانب اللغة العربية والتركية، مما ساعدهم علي الاشتغال بالترجمة.

كذلك لا نستبعد وجود تراجمة من الأرمن، خاصة وأن بلاد الأرمن كانت قد خضعت لسلطنة المماليك منذ عام ١٣٧٤م [٢٠]، فضلاً عن أنه وجدت لهم جالية كبيرة في القاهرة منذ عصر الناصر محمد بن قلاوون، ولم تنقطع مراسلاتهم طوال العصر المملوكي للعاصمة، يلتمسون فيها الاستجابة لمطالبهم المختلفة[٢١].

أما التراجمة الذين كانوا من أصول أوروبية بوجه خاص، فإن المصادر والمراجع ذكرت العديد منهم، كما ذكرت إشارات عن بعض أصولهم. من ذلك ما يرويه لنا ابن عبد الظاهر في ذكره لحوادث سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٣م أن السلطان الظاهر بيبرس استعان بأحد التراجمة من أصل يوناني وكان مقيماً في أحد الأديرة في مصر، فضمه إلي البعثة التي أرسلها إلي الامبراطور البيزنطي يطلب منه فيها إصدار أوامره بسرعة توجه رسل السلطان إلي الملك بركة خان، وكان الإمبراطور قد عوقهم، فضلاً عن أنه كلفه بأن يعرض علي الإمبراطور وساطة السلطان بينه وبين بركة خان عاهل المغول[٢٢]. كما وردت بعض إشارات في المصادر المعاصرة عن استخدام تراجمة من "الفرنج" منذ بداية العصر المملوكي وحتي قرب نهايته، ولم توضح المصادر البلاد التي أتوا منها، لكنها أشارت إلي اعتناقهم الإسلام والإنعام عليهم واشتغالهم بالترجمة حتي قرب انتهاء العصر المملوكي [٢٣].

أما عن التراجمة الذين كانوا من أصل إيطالي فهناك العديد من الإشارات في بعض المصادر والمراجع عنهم، سواء اعتنقوا الإسلام أم ظلوا علي دينهم، من ذلك أن السلطان الظاهر برقوق وابنه الناصر فرج قد استخدما مترجماً من أصل إيطالي، من مدينة ساينا يدعي برترإندودي ميجنانللي" والذي كان قد استقر به الحال في دمشق، وأصبح واحداً من رجال الأعمال، وأتقن اللغة العربية، والذي استفاد السلطان برقوق من معرفته الإيطالية والعربية لكي يقوم بالترجمة بينه وبين سفير ميلان" يعقوب دي

كروز" القادم من قبل دوج ميلان ومعه رسالة يطلب فيها الإذن من السلطان لإصلاح أحد أديرة الرهبان الفرنسيسكان في بيت لحم، وكذلك الوصاية بالمقيمين منهم في جبل صهيون ببيت المقدس[٢٤]. كما يذكر لنا الرحَّالة فريسكو بالدي الذي زار البلاد سنة ١٣٨٤م أن كبير التراجمة في القاهرة عندما زارها كان من أصل بندقي، وارتَّد عن دينه، أي اعتنق الإسلام" وكانت زوجته فلورنسية الأصل ارتَّدت عن دينها هي ووالدها، وقد كان والدها هذا وهو من أصل فلورنسي كذلك كبير التراجمة في الأيام السابقة، وقد سلَّمه رسالة تحمل نبأ وفاة والده ولم يكن قد علم بذلك مما أحزنه كثيراً، إلي جانب عدة رسائل أخري من بعض أصدقائه في البندقية [٢٥]. ثم يذكر أن الترجمان الذي صحبهم في زيارتهم للأماكن المقدسة كان إيطاليًا أيضًا [٢٦]. كذلك نسمع عن "يونس الترجمان في أواخر العصر المملوكي، والذي كان نائبًا لكبير التراجمة "تغري بردي"، ثم تولي منصب كبير التراجمة عقب القبض علي تغري بردي وكما ستأتي الإشارة بذلك، وظل كبيراً للتراجمة منذ سنة ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م حتي سقوط دولة سلاطين المماليك علي أيدي الاتراك العثمانيين، ويونس هذا كان من مواليد مدينة فيرونا بإيطاليا، وكان يهوديًا ثم اعتنق الإسلام [٢٧].

وتجب الإشارة إلي وجود بعض التراجمة من جزيرة قبرص، والذين تدفقوا علي البلاد بوجه خاص في أعقاب الحملات الثلاث التي أرسلها السلطان "برسباي" في السنوات من ١٤٢٤-١٤٢٦م والتي انتهت بأن صارت قبرص من جملة بلاد السلطان، ولا أدل علي وجود هؤلاء التراجمة من أن أمراء الجزيرة كانوا يحتكمون إلي السلطان في القاهرة فيما ينشب بينهم من خلافات، حتي أواخر القرن الخامس عشر، عندما آلت الجزيرة إلي البندقية عام ١٤٩٠م بمقتضي المعاهدة التي تنازلت بها مصر عنها للبندقية [٢٨].

ثم نسمع عن كثير من اليهود من أصل إسباني قد اشتغلوا بالترجمة في شتي أنحاء السلطنة المملوكية في ذلك العصر، بل يشير أحد المراجع إلي أن منصب كبير التراجمة في القاهرة كان يتولاه طوال القرن الخامس عشر أشخاص معظمهم من

يهود إسبان[٢٩]. والحقيقة أنني أميل إلي ترجيح هذا الرأي بدليل أن كبير التراجمة في سنة ١٤٣٠م أيام السلطان "برسباي" كان من أصل يهودي قشتالي من مواليد أشبيليه يدعي "صايم"، وهو الذي التقي به الرحَّالة بيرو طافور بالقاهرة عام ١٤٣٥م، وكان لا يزال يشغل هذه الوظيفة، وعمره آنذاك ما يقرب من تسعين عامًا[٣٠]. كما أن ترجمان بيت المقدس في عام ١٤٢٠م كان يفدعي "نصر الدين" وهو يهودي إسباني ارتَّد عن دينه الأصلي واعتنق الإسلام [٣١]. كذلك يذكر لنا الرحَّالة اليهودي "موشلام بن مناحم الفولتيري"، الذي زار البلاد سنة ١٤٨١م: أن كبير التراجمة في القاهرة آنذاك وهو "تغري بردي" من أصل يهودي إسباني ثم اعتنق الإسلام [٣٢]. كذلك يذكر لنا الرحالة "فيلكس فابري" الذي زار البلاد عام ١٤٨٣م: أن بعض اليهود من أصل إسباني قد اشتغلوا كتراجمة لمصاحبة الحجَّاج المسيحيين في زيارتهم لكثير من الأماكن المقدسة في فلسطين، وكذلك ما رواه الرحَّالة "مارتن بوم جارتن" الذي زار البلاد عام ١٥٠٧م من قول: "وتوجهنا في حماية اليهودي الذي كان يعمل ترجمانًا لنا والعربي الذي يقوم بحراستنا، لكي نري تلك الأماكن المقدسة" [٣٣]. هذا إلي جانب ما يذكره لنا الرحَّالة اليهودي "عوبديًا البريتينوري" وهو أحد الربابنة اليهود الإيطاليين الذين هاجروا إلي بيت المقدس: أنه عندما رست السفينة التي تقلهم إلي ميناء الإسكندرية بعد رحلة تعرضوا خلالها لكثير من العواصف، فإن العناية الإلهية كانت ترعاهم وساقت إليهم كذلك رجلاً محبوبًا حتي من المسلمين وهو "الرابي موسي جراسو" والذي كان يعمل ترجمانًا لدي البنادقة، فاستضافهم في منزله مدة إقامتهم بها[٣٤]. وجدير بالذكر أن اشتغال اليهود الذين من أصل أسباني بالترجمة يرجع إلي بداية عصر سلاطين المماليك، وبوجه خاص منذ أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون، فقد ذكر العمري واحدًا منهم يدعي "صلاح الدين الترجمان": بأنه كان علي دراية واسعة بلغة الأدفونش صاحب طليطلة وأشبيلية وبلنسية وسرقسطة [٣٥]. أما فيما يتعلق بكثرة هؤلاء اليهود الذين نسمع عنهم، وأنهم اشتغلوا بالترجمة سواء بعد إسلامهم أم مع بقائهم علي ديانتهم الأصلية، فتشير المراجع إلي أن اليهود قد هاجروا من إسبانيا ابتداء من عام ١٣٩١م أمام الاضطهاد الذي لاقوه في أعقاب حركة

الاسترداد وحتي سقوط غرناطة آخر المعاقل الإسلامية سنة ١٤٩٢م، نتيجة لاستيلاء الإسبان المسيحيين علي المدن العربية الواحدة تلو الأخري، وأنهم وجدوا أنفسهم مضطرين للهجرة بسبب تخييرهم بين التنصر أو هجرة البلاد[٣٦]. ففضلوا الهجرة إلي بلاد السلطنة المملوكية لما تتمتع به من تسامح ديني وازدهار تجاري، فضلاً عن أن اتقانهم لبعض اللغات المختلفة قد أهلهم لشغل وظيفة التراجمة، إما بعد اعتناقهم الإسلام وانضمامهم إلي السلك المملوكي، أو بالاشتغال مع بعض أبناء الجاليات التجارية الأوروبية [٣٧].

وأخيراً تجب الإشارة إلي وجود تراجمة من "الأحباش" ودليلنا علي ذلك ما يرويه ابن عبد الظاهر في سنة ٦٨٩هـ /١٢٨٩م أيام السلطان المنصور قلاوون من أنه: ورد إليه رسول من جهة ملك الحبشة وعلي يديه كتاب باللغة الحبشية فتمت ترجمته إلي اللغة العربية والذي يطلب فيه إرسال مطران للكنيسةُ الحبشية مما يدل علي وجود بعض التراجمة من الأحباش حيث لم نسمع في المصادر المعاصرة علي وجود أحد ممن يتقن هذه اللغة من أبناء البلاد[٣٨] كذلك نسمع عن وجود بعض التراجمة من أصل ألماني، والذين اشتغلوا بالترجمة ومصاحبة الحجّاج المسيحيين في مدينة الخليل والقدس في القرن الخامس عشر للميلاد حسبما يشير أحد الرحّالة بذلك [٣٩].

أما عن اللغات التي عرفها هؤلاء التراجمة واستخدموها فقد كانت كثيرة: منها العربية والتركية والمغولية والفارسية، واللاتينية والإيطالية، والعبرية والقشتالية، والأرمنية واليونانية والحبشية والنوبية، والفولانية والهندية، والألمانية والفرنسية وغيرها من لغات البلاد التي كانت لها علاقات مع سلطنة المماليك في ذلك الوقت، وكما سبقت الإشارة بذلك في الصفحات الأولي من هذه الدراسة. والحقيقة أنه فيما يتعلق بطريقة إعداد هؤلاء التراجمة فإن المصادر المعاصرة لم تهتم بذلك إلا أنه يمكن القول من خلال إشارة واحدة قد عثرنا عليها تفيد أنه: كان هناك ما يشبه الإعداد في قلة من المدارس، والدليل علي ذلك أن الأمير أيتمش اليجاسي (ت ٨٠٢هـ/١٣٩٩م) والذي كان أتابك العساكر بديار المصرية في عهد الظاهر برقوق أنه قد اشترط في مدرسي مدرسته التي بناها بباب الوزير في سنة ٧٨٥هـ/١٣٨٣م والتي عرفت باسم المدرسة

الأيتمشية[٤٠] أن يكونون "متكلمين باللسان العربي والعجمي والتركي وإلا فباللسان العربي وأحد اللسانين المذكورين" [٤١]. بما يرجح وجود مدارس لتخريج بعض التراجمة الذين يجيدون اللغات السابق ذكرها.

حياتهم وثرواتهم:

أما عن حياة هؤلاء التراجمة فواضح من خلال الإشارات المختلفة التي وردت عنهم في المصادر المعاصرة، أنهم عاشوا حياة رغدة وتمتعوا بكثير من الثراء، والدليل علي ذلك ما يرويه لنا ابن حجر العسقلاني سنة ٧٩٧هـ/ ١٣٩٤م أيام السلطان الظاهر برقوق: من أنه حدث خلاف بين ترجمان الإسكندرية شهاب الدين المالقي وبين المشرف علي دار الضرب بها، فعندما وصل الخبر بذلك إلي السلطان " فصادرهما علي ألف ألف درهم"[٤٢].

وما يشير إليه ابن الصيرفي من أن بدر الدين محمود بن عبد الله الكلستاني السيرامي أحد التراجمة في عصر نفس السلطان برقوق، عند وفاته "خلف موجوداً قريب ألف ألف درهم" ومقداراً من "الذهب العين المصري وزن قنطار وخمسة عشر رطلاً بالمصري"، وغير ذلك من أنواع القماش والحواصل"[٤٣]. كذلك من المؤشرات الدالة علي سعة ثرائهم منذ بداية العصر المملوكي، ما يرويه لنا المقريزي عن "مكين الدين الترجمان بالإسكندرية" من: أنه قد صودر له صندوق "فيه ذهب وزمرد وجوهر ثمين"، كما عرف عنه أنه أعطي الوزير الكبير كريم الدين "ثلاثة وخمسين ألف دينار"[٤٤].

كذلك ذكر لنا الرحّالة "فيلكس فابري" الذي زار القاهرة ١٤٨٣م أن منزل كبير التراجمة بها كان يحتوي علي مجموعات كبيرة من الطيور والحيوانات النادرة، سواء الأليفة منها أو المتوحشة، مثل: النعام والببغاوات والأسود والدببة، كل هذا في فناء المنزل بالإضافة إلي أنه وجد لديه بعض المصريين في منزله يقومون ببعض الألعاب

المسلية والحيل المختلفة، مستخدمين فيها الدببة والزراف والأسود، وهو ما يشبه إلي حد كبير ألعاب السيرك في أيامنا هذه [٤٥]، فضلاً عن أن هذا المنزل كان معداً لاستضافة الرحَّالة الأجانب والحجَّاج المسيحيين والغربيين، بالإضافة إلي استضافة كبار الأمَّراء والتجَّار والأعيَّان، خاصة عقب عودة كبير التراجمة من رحلة إلي الخارج حيث يقيم لهم الولائم الضخمة، وفي الختام يتم السماح لكثير من العامة بالدخول وتناول ما تبقي من طعام حسبما يؤكد ذلك الرحَّالة "مارتن بوم جارتن" [٤٦].

وعن تلك الثروات التي تمتعوا بها فقط تعددت مصادرها، يأتي في مقدمتها حرص سلاطين المماليك علي الإنعام عليهم باستمرار بكثير من المبالغ والمرتبات والهدايا حسبما تشير بذلك بعض المصادر المعاصرة[٤٧]. يضاف إلي هذا الكثير من الهدايا من الحكَّام والملوك الذين تربطهم بمصر والشام علاقات مختلفة، كان الهدف من إرسالها لهم تسهيل مهام بعض رسلهم وسفرائهم، أو التوصية بأبناء الجاليات التي استقرت بسلطنة المماليك وتسهيل مصالحهم في مصر [٤٨]. فضلاً عما كان يحصله كثير من هؤلاء التراجمة من مبالغ نقدية – سوي جالية السلطان – من الحجاج المسيحيين الذين يفدون إلي البلاد لزيارة الأماكن المقدسة المنتشرة في كل من مصر وبلاد الشام [٤٩]. ويذكر لنا الرحَّالة "جوتشي" مقدار ما كان يدفعه الشخص الواحد في رحلته لهؤلاء التراجمة في كل من الإسكندرية والقاهرة، وغزة، وبيت المقدس، ودمشق بما لا يقل عن أربعين "دوكات" سوي الهدايا الأخري [٥٠]. كما أن هؤلاء التراجمة كانوا يحصلون علي نسبة عالية قد تصل إلي عشرين في المائة من التجار، نظير ما يشتريه منهم هؤلاء الحجاج كعمولة لهم [٥١]. يضاف إلي هذا ما جاء في إحدي الرسائل التي تضمنتها مجموعة وثائق الجينيزا، والتي يرجع تاريخها إلي القرن الثالث عشر للميلاد، جاء فيها: أن كل تاجر من أبناء الجاليات الأوروبية وكذلك تجار اليهود الذين يفدون علي البلاد كان علي الواحد منهم أن يدفع ديناراً ونصف الدينار للمترجم ومساعده في المدينة أو الميناء الذي يحل به [٥٢]. هذا إلي جانب المبالغ التي حصل عليها كل من اشتغل منهم في مساعدة التجَّار الأجانب في الموانى المملوكية المختلفة في مصر والشام، وهذه المبالغ أشارت إليها بعض المعاهدات التي تم عقدها

مع المدن التجارية، والتي قدِّرت آنذاك علي أساس ربع في المائة من جملة الصفقات التي يتم عقدها (٥٣). بالإضافة إلي الراتب السنوي الذي كان يحصل عليه من قنصل الجالية التي يقدم خدماته لها (٥٤).

كما أن بعض هؤلاء التراجمة قد أتيحت لهم الفرصة في الجمع بين وظيفة الترجمة وبعض الوظائف الأخري، والتي حصلوا بمقتضاها علي كثير من الرواتب والأموال بل الإقطاعات التي تدر دخلاً كبيراً، مثال ذلك ما يذكره لنا ابن تغري بردي عن: أوتامش الأشرفي "ت٧٣٧هـ/١٣٣٦م" والذي ترجم للسلطان الأشرف خليل بن قلاوون، ثم ولاه نيابة الكرك إلي جانب الترجمة، حيث كان يترجم له ما يصل من بلاد التتار من كتب (٥٥). وما يرويه لنا المقريزي عن جمال الكفاه إبراهيم "ت٧٤٥هـ/١٣٤٤م" الذي كان يترجم بعدة لغات إلي جانب توليه عده من الوظائف الهامة منها "مشير الدولة" و "ناظر الخاص" و "ناظرالجيش" (٥٦) وما رواه ابن الصيرفي عن القاضي بدر الدين محمود بن عبد الله الكلستاني الحنفي "ت ٨٠١هـ/ ١٣٩٨م" من أن: السلطان برقوق ولاه الترجمة ثم ولاه كتابة السر الشريف أي رئاسة ديوان الإنشاء، فاجتمع له من المال الشيء الوفير (٥٧). وأخيراً ما رواه ابن طولون في حوادث سنة ٨٩٥هـ/١٤٨٩م أيام السلطان الأشرف قايتباي من أنه: في يوم الخميس ثامن جمادي الأولي، "وصل الخبر إلي دمشق بأن السلطان ولي تمريغا الترجمان المستشرف بالإسلام نظر جيش دمشق"، كذلك ما يرويه في سنة ٩٠٣هـ /١٤٩٧م أيام السلطان محمد بن قايتباي من: أن الأمير تمريغا الترجمان قد اختار نائباً عنه ليلي وظائف "ناظر الأسري، ووقف السلطان، والترجمة، "وما رواه عن شهر المحرم سنة ٩١٦هـ /١٥١٠م من أن ناظر الجوالي تسلم خلعة أتته من مصر" بالترجمة واستداريه السلطان تكملة ست وظائف "فضلاً عن كونه أحد أمراء الألوف" (٥٨). ولنا أن نتخيل دخله الهائل من هذه الوظائف إلي جانب إقطاعه كأحد أمراء الألوف، بما يؤكد ما سبق وأشرنا إليه من حياة الثراء والبذخ التي عاشوها في ظل الحكم المملوكي.

نأتي بعد ذلك إلي دور التراجمة في مجال السياسة والمهام التي كُلفوا بها، ثم دورهم في مجال المعاملات التجارية وأخيراً دورهم في مجال العلاقات الثقافية.

دورهم فى مجال الحياة السياسية:

يأتي عمـل التـراجمـة في ديوان الإنشـاء في العـصـر المملوكي علي رأس المهام التي كُلفوا القيام بها، ذلك أن ديوان الإنشاء في ذلك العصر كان أشبه ما يكون بوزارة الخارجية في عصرنا الحالي، ولقد حرص سلاطين المماليك علي تعيين رئيس لهذا الديوان وهو الذي أطلق عليه "صاحب ديوان الإنشاء" والذي كان من أهم واجباته "النظر في المهمندارية والتراجمة"، أي الإشراف علي الأشخاص الذين يقومون باستقبال السفراء ورسل الملوك والتراجمة [٥٩]. وذلك لما لهم من أهمية خاصة في هذا الديوان، حيث جرت العادة عند ورود الرسائل من ملوك وحكَّام الدول التي لها علاقات بسلطنة المماليك، أن يقوم المسئولون بالديوان بتسلمها وفحص أختامها ثم فكِّها، وتسليمها لأحد التراجمة الذين يجيدون اللغة المستخدمة فيها لترجمتها، وذلك بأن يكتب الترجمة في ورقة مقروءة، ويلصقها بالرسالة الواردة [٦٠] وقد جرت العادة أن يقوم مترجم آخر بمراجعة الترجمة الأولي للتأكد من صحتها أولاً، وكنوع من الحرص الزائد بكل كلمة يكتبها ملوك هذه البلاد خاصة المسيحية منها إلي سلاطين المماليك، فربما تنطوي علي معاني يغفل أحد المترجمين ذكرها، فيذكره بها المترجم الآخر[٦١]. وبعد أن تعرض هذه المراسلات علي السلطان يقوم بالرد عليها من واقع النص العربي، ثم تحفظ هذه المراسلات في الديوان، وتعمل لها فهرسة خاصة للاحتفاظ بها وبترجمتها إلي العربية في قسم المحفوظات المعهود به إلي شخص يطلق عليه الخازن [٦٢] والذي كان يقوم بعمل ملخص لكل كتاب واسم من قام بترجمته ثم يحفظه للاستعانة به عند الحاجة[٦٣].

وبديهي أن المعاهدات التي عقدت بين سلاطين المماليك وبين حكام وملوك الغرب الأوروبي، لم تكن سوي مرحلة ختامية، وتتويجًا لجهود وأعمال دبلوماسية جادة قام بها تراجمة وسفراء اشتركوا في مفاوضات، وحملوا أثناء إجرائها ما حملوه من مراسلات ومكاتبات ليمهدوا لعقد هذه المعاهدات، وأنهم في عملهم هذا كانوا يتحركون وفقًا لقواعد ونظم وشرائع وقوانين وتقاليد كان عليهم الالتزام بها ومراعاتها بدقة وتقرير لما يقومون به من مهام[٦٤].

كما أنه مـن الواضــح أن دور التراجمــة أثنــاء المفاوضات والإعداد للمعاهدات لم يقتصر علي مجرد الترجمة كما قد يتصور البعض، لكنهم كانوا بمثابة نواب عن السلاطين، أو مبعوثين رسميين أو سفراء يمثلون السلاطين الذين يعهدون إليهم بهذا العمل، والذين يقومون بالاتصال والتعاقد مع ممثلي البلاد الأخري، علي أن يكون الرجوع في نهاية الأمر إلي السلاطين أصحاب السلطة العليا، للتصديق علي هذه المعاهدات، مثال ذلك: المعاهدة التي عقدت بين سلطنة المماليك ومملكة أرغون سنة ٦٨٩هـ / ١٢٨٩م، فقد تم الرجوع إلي السلطان المنصور قلاوون والملك الفونس الثالث لاعتمادها [٦٥]. كذلك الحال في المعاهدة التي تم توقيعها بين سلطنة المماليك وملك أرغون الفونسو الخامس سنة ٨٣٣هـ / ١٤٢٩م: فقد مثَّل فيها السلطان المملوكي سيف الدين شاهر الترجمان وشخص آخر يدعي ناصر الدين محمد بن الميمون، والذي لم تذكر الوثيقة شيئًا يوضح شخصيته، وكان هو والترجمان يحملان أوراق اعتماد من قبل السلطان المملوكي بتاريخ ١٥ شعبان سنة ٨٣٣هـ [٦٦]. كما أن المفاوضات التي سبقت توقيع المعاهدة التي بمقتضاها تم تنازل مصر عن قبرص سنة ١٤٩٠م، والتي شارك فيها تغري بردي كبير تراجمة السلطان، ولم يكن دوره قاصراً علي الترجمة كما يتضح من نص الخطاب الذي زود به "دوج" البندقية رسوله قائلاً: "ويوجد ترجمان للسلطان اسمه تانزبايد" "تغري بردي" نعلم أنه من ذوي النفوذ والخبرة وعلي دهاء كبير، ويحسن أن تحصل علي معاونته... لتسهيل مهمتك المنشودة "ومن هذا النص يتضح لنا أنه قد لعب دوراً في تسهيل حصول البندقية علي موافقة السلطان علي ما اتخذته البندقية من إجراءات برفع علمها علي جزيرة قبرص التي كانت خاضعة لمصر، ثم تنازل لهم عنها في مقابل تعهدهم بدفع الجزية له سنويًا[٦٧].

ويمكن أن يقال نفس الشيء بخصوص ما حدث عام ١٥٠٦م عندما كلف السلطان الغوري كبير التراجمة بمفاوضة البندقية، وحيث كان حريصاً علي الوصول معها إلي اتفاق بسبب قيام فرسان الاسبتارية في رودس بشن سلسلة من الإغارات علي السفن المملوكية، وهي محملة بالبضائع والأخشاب والعتاد اللازم لبناء السفن، بقصد عرقلة المجهود الحربي التي تقوم به سلطنة المماليك لمواجهة خطر البرتغاليين، فأرسله

لمباحثتهم في موضوع إمداده بالأخشاب والأسلحة لبناء قوة بحرية تمكنه من متابعة الحرب ضد البرتغاليين، وفي طريقه إلي البندقية مر "تغري بردي" بجزيرة رودس للتفاوض مع رئيس الفرسان الاسبتارية في أمر استعادة السفن المملوكية التي استولوا عليها عام ١٥٠٥م، وما كان بها من متاجر، غير أنه لم ينجح في هذه المهمة، وإنما تمكن من شراء عدد كبير من أسري المسلمين بالجزيرة وكان معظمهم من المغاربة، وبلغ مجموع ما دفعه ثمنًا لخلاصهم نحوًا من خمسين ألف دينار [٦٨]. ثم واصل رحلته إلي البندقية وهناك انتهت المفاوضات إلي عقد اتفاق تجاري بين البندقية وبين السلطان الغوري علي أن تساهم البندقية في بناء الأسطول المملوكي، دون أن يؤدي ذلك إلي إظهارها أمام الأوروبيين بمظهر الدولة التي تساعده علانية، ثم وصل "تغري بردي" إلي فلورنسة حيث عقد اتفاقًا تجاريًا مماثلاً ثم عاد إلي القاهرة في سبتمبر ١٥٠٧م بعد غيبة دامت ثمانية عشر شهرًا [٦٩].

ومهما قيل عن الدور الخطير الذي قيل أن هذا الترجمان قد لعبه، والذي وصل إلي علم السلطان من رجال مخابراته، بأنه: وقع في أيديهم عدة رسائل كان تغري بردي قد كتبها لبعض ملوك الفرنج يذكر لهم فيها أن السلطان غير جاد في استعداداته العسكرية، وأن السواحل كلها مكشوفة بدون حماية، فضلاً عن عجز السلطان عن مواجهة الخطر البرتغالي، وتم كشف ذلك في الحادي عشر من محرم ٩١٧هـ / العاشر من مارس ١٥١١م، وكان هذا آخر العهد بتغري بردي في وظيفته، إذ أمر السلطان بالقبض عليه ومصادرة أمواله، واستمر سجينًا حتي عام ٩١٩هـ / ١٥١٣م [٧٠] فعلي أية حال كيف يمكن تفسير إطلاق سراحه بعد عامين، فلو ثبتت خيانته فعلاً لكان من السهل جدًا إعدامه، خاصةً وأنه لم يكن من كبار أمراء المماليك الذين يخشي منهم لكثرة مماليكه وأتباعه، والذين كان عادة ما يتم التخلص منهم إما بالسجن أو بالنفي أو الإعدام. وما حدث منه يمكن تبريره في ضوء ما اتخذه السلطان من إجراء بالتهديد بغلق كنيسة القيامة، والتهديد بإلحاق الضرر برعايا السلطان من المسيحيين المحليين، وأنه لو صح وأنه كاتب فعلاً هؤلاء الملوك، فقد كان ذلك بغرض إظهار اضطراب أحوال السلطان وعدم مقدرته علي اتخاذ القرار السليم والمناسب في

ظل الظروف المحيطة به. وليس من قبيل المنطق أن يكون هو نفسه الذي عقد مثل تلك الاتفاقات السابقة بخائن، لكن من المرجح أن تلك التهمة كانت للإيقاع به عند السلطان وخاصة وأن مثل تلك العملية كانت بمثابة العرف المتبع في ذلك العصر. وعلي أية حال فإن مثل هذه الحالة الفريدة لا يصح مطلقًا أن تجعلنا نتجاهل ما كان لهذه الفئة من جهد واضح طوال عصر استمر ما يقرب من ثلاثة قرون.

وكما كان لهؤلاء التراجمة دورهم أثناء الإعداد للمفاوضات والمعاهدات كما كان لهم دورهم أيضًا عند إحداث أي تعديل في تلك المعاهدات، وذلك عندما يجد الطرفان الموقعان علي المعاهدة أن الظروف التي أبرمت فيها قد اعتراها تغيير، مما يدفعهما إلي إعادة النظر في بعض شروطها بالحذف أو الإضافة أو التعديل. كذلك كان لهم دورهم في عملية فسخ المعاهدات، حيث كان يتم إيفادهم إلي الطرف الثاني وإبلاغه شفويًا بذلك الفسخ والأسباب التي يراها الفاسخ موجبة للفسخ، كذلك في المفاسخة وهي كما يُفهم من اللفظ تكون من الجانبين، وفي بعض الأحيان في حالة خرق الهدنة حيث تتم المراسلات بين الجانبين يحاول كل طرف فيها أن يُحمِّل الطرف الآخر وزر خرق الهدنة ونقضها(٧١).

وكانت المفاوضات المختلفة التي شارك فيها التراجمة تجري بطريقة شفوية غالبًا، وإن كان هناك ما يشير أيضًا إلي إرفاقها بمكاتبات ومراسلات تحريرية في بعض الحالات والتي تطلبت منهم جهدًا كبيرًا في صياغة الشكل النهائي والمتفق عليه من جميع الأطراف، وغالبًا ما خرجت لنا في شكل معاهدات تميزت بسوء العبارة كما يذكر القلقشندي ذلك، إلا أن ذلك كان مرده إلي طريقة التفاوض والاتفاق علي المعاهدة مادة مادة وتدوينها خوفًا من مظنة التعديل إذا تمت مراجعة أسلوبها (٧٢). ومن الناحية الزمنية قد تستغرق المفاوضات جلسة واحدة وقد تمتد عدة جلسات، وذلك حسب المشكلات التي تتناولها المفاوضات، مما يدعو إلي تكرار اللقاءات، مع استغراق الوقت اللازم لدراسة ومراجعة المفاوض للسطات العليا في بلده لعرض الاتفاقات المبدئية،

وكان من المعتاد الرجوع إلي السلطات العليا لاعتماد ما قد يعقد من معاهدات والتصديق عليها (٧٣).

وحيث إن دولة سلاطين المماليك كانت دولة إسلامية، فإن توجيه مسارات العلاقات الخارجية كان يعتمد علي القرآن الكريم كمصدر أساسي لا غني عنه، لذلك نري أن المعاهدات والاتفاقات التي كانت تعقدها الدولة عن طريق هؤلاء التراجمة، كان يتم تكليف تراجمة مسلمين للقيام بها، مع تكليف عدد آخر من التراجمة بقراءة الصيغ النهائية ومراجعتها قبل التصديق عليها من السلطات العليا، وخير مثال لذلك ما يرويه لنا ابن عبد الظاهر في حديثه عن الهدنة التي عقدت بين المنصور قلاوون وبين الجنوية سنة ٦٨٩هـ / ١٢٩٠م حيث يقول: أنه تحررت فصول هذه الهدنة المذكورة، وعند عرض صيغتها النهائية علي السلطان "قرأ ما فيها من القلم الفرنجي المنقول إلي العربي شمس الدين عبد الله المنصوري، وترجم عليه لتحقيق التعريب، والشهادة بصحته سابق الدين الترجمان وعز الدين أيبك الكبكي الترجمان في التاريخ المذكور" (٧٤).

وفي حالات أخري كان يتم تزويد هؤلاء التراجمة والرسل ببعض فقهاء المسلمين حتي يكونوا عونًا لهم، ومرشدين لهم فيما يعتريهم من أمور قد تتعارض مع الدين، مثال ذلك ما يرويه النويري من أن: الظاهر بيبرس أرسل سفارة إلي ألفونسو العاشر صاحب أشبيليه ردًا علي سفارته، وكان الوفد الذي أرسله بيبرس يتكون من الأمير سيف الدين الجلدكي والأمير عز الدين أيبك الكبكي والفقيه عماد الدين حسين بن همام مرتضي(٧٥) كذلك ما نسمعه من أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون رد علي السفارة التي أرسلها له ملك قشتالة فرناندو الرابع سنة ٦٩٨هـ / ١٢٩٩م بأن أرسل له سفارة معها بعض التراجمة ممن يجيدون التحدث بلغة أهل قشتالة ومعهم القاضي حميد الدين، وتم استقبالهم في البلاط القشتالي بكل مظاهر الود والترحاب (٧٦).

ومن المهام التي كلف بها بعض هؤلاء التراجمة ما تشير إليه المصادر المعاصرة من قيامهم بصياغة بعض الرسائل وكتابتها باللغة اللاتينية، ثم إرسالها إلي الفرنج المقيمين ببلاد الشام في فترة الحروب الصليبية النشطة، ونقصد بها الفترة التي شهدت

وجود مستعمرات صليبية، وكان الهدف من كتابة هذه الرسائل والتحايل في إيصالها إليهم، هو إيقاع الفُرقة بين صفوفهم، وقد كانت هذه الوسيلة من الوسائل الناجحة التي لجأ إليها السلاطين الأوائل مثل الظاهر بيبرس، وسهلت لهم الاستيلاء علي بعض المعاقل والحصون التي كانت بأيدي الفرنج(٧٧).

كذلك يمكننا القول أن بعض هؤلاء التراجمة قد شاركوا بدور فعال في مقاومة الجاسوسية، وليس أدل علي ذلك مما يرويه لنا الرحَّالة "فريسكو بالدي" أثناء زيارته لمدينة الإسكندرية سنة ١٣٨٤م مع بعض الحجَّاج المسيحيين، من أن الترجمان بها أخذ يسألهم عن كثير من الأشياء: عن عاداتهم وتقاليدهم ومصادر ثرواتهم، وعن البابوية والأباطرة، وأحوال بلادهم السياسية، وكلها أسئلة لها مدلول، وعند مغادرتهم للإسكندرية في طريقهم إلي القاهرة تم تسليمهم لأحد التراجمة وابنه وقد قام بمصاحبتهم وتوصيلهم حتي منزل كبير التراجمة في القاهرة، فضلاً عن أنهم كانوا يرصدون جميع تحركاتهم أثناء مصاحبتهم لهم، ويسجلون أعدادهم وأوصافهم في كل مرحلة من مراحل تنقلاتهم زاعمين لهم أن الهدف من ذلك هو حمايتهم (٧٨).

كما أن منصب كبير التراجمة في ذلك العصر كان أشبه بمنصب وزير الخارجية في عصرنا الحالي، فهو الذي يناط به مهمة استقبال الرسل والسفراء والرحَّالة والحجَّاج الأوروبيين الذين يفدون إلي البلاد، وهو الذي يستضيفهم نيابةً عن الدولة في داره، وهو الذي يقوم بعرض ما يحملون من رسائل علي السلطان وترجمتها إلي العربية أو التركية قبل تشريفهم بالمثول بين يدي السلطان، حتي تتاح له فرصة دراستها، ثم هو الذي يصحبهم إلي قصر السلطان في القلعة حيث يستقبلهم السلطان، ويقوم بمهمة ترجمة الحديث المتبادل بينه وبينهم(٧٩). فضلاً عن أنه كان المسئول الأول عن التراجمة المنتشرين في بلاد السلطنة المملوكية حسبما يشير بذلك فريسكو بالدي. كذلك من المهام التي كانت ملقاة علي عاتقه داخل العاصمة، ما يرويه لنا الرحَّالة اليهودي موشلام بن مناحم الفولتيري عن كبير التراجمة تغري بردي سنة ١٤٨١م: أنه كان يكلف رؤساء الأحياء أو "مشايخ الحارات" في القاهرة والذين بلغ

عددهم آنذاك ٢٤ حيًا، بأن يبلغوه مساء كل يوم بعدد المواليد والوفيات التي تحدث لديهم[٨٠].

كانت هذه بعض الإشارات التي قصدنا منها إلقاء الضوء علي دورهم في مجال الحياة السياسية في ذلك العصر والآن نأتي إلي مجال آخر من المجالات التي ساهموا فيها.

دورهم فى المعاملات التجارية:

شهد العصر المملوكي بمصر والشام وجود العديد من أبناء الجاليات الأجنبية التجارية، نتيجة لازدهار التبادل التجاري بين سلطنة المماليك وبين المدن التجارية الأوروبية المختلفة، مما أدي إلي أن كل جماعة من التجَّار الذين ينتمون إلي بلد واحد كانوا يختارون أحد التراجمة[٨١]. وقد كفلت السلطات المملوكية حرية هؤلاء التجار وقناصلهم في اختيار التراجمة الذين يتعاونون معهم، فقد جاء في كثير من المعاهدات التجارية ما يشير إلي حرية أي تاجر من هؤلاء التجَّار في اختيار المترجم الذي يتعاون معه بدون تدخل من السلطات المملوكية، كما أنها نصت صراحة بأن للقنصل الحرية التامة في اختيار من يتعاونون معه من بين تراجمة ديوان القبان، سواء أكان مسلمًا أم يهوديًا أم نصرانيًا، داخل الفندق أو خارجه، في عمليات البيع والشراء[٨٢] كما يبدو لنا أن مهمة هذا الترجمان كانت لتعريف أبناء هذه الجاليات بقوانين البلاد ونظمها وتقاليدها، فضلاً عن مساعدته لهم في إتمام الصفقات التجارية.

ويجدر بنا أن نشير إلي أن "المترجم" كان معتمدًا من الحكومة وثقة عند جميع الأطراف المتعاملة سواء من التجَّار الوطنيين أم التجَّار الأجانب الذين توافدوا علي البلاد وليس أدل علي ذلك مما جاء في إحدي الوثائق المحفوظة بدار الوثائق بالبندقية، والتي ترجع إلي عام ٨٩٥هـ / ١٤٩٠م، والتي يتضح منها مدي أهمية هذه الفئة من التراجمة في المعاملات المملوكية الأجنبية، والتي سلم - حسبما تشير الوثيقة - قنصل البنادقة بالإسكندرية إلي المترجم السلطاني ستة آلاف دينار ليقوم بدوره بتسليمها

للسلطان بالقاهرة، وكان ذلك تنفيذاً لاتفاق سابق. وفي وثيقة أخري مؤرخة في سنة ٨٢٦هـ / ١١ من فبراير ١٤٢٣م نقف منها علي بعد آخر لخطورة مركز المترجم في المعاملات المالية، حيث يقسم خمسة من المترجمين أمام والي ثغر الإسكندرية وأمام مجلسه من الفقهاء علي القيام بتبليغ الوالي بشحنات البضائع التي تصل إلي ديوان الخمس فور وصولها وبدون تأخير[٨٣].

ولم يكن دور هؤلاء التراجمة قاصراً علي تسهيل وإتمام الصفقات التجارية التي كان يتم عقدها بين التجَّار المحليين والتجَّار من أبناء الجاليات الأجنبية، والتي تركزت بصفة خاصة في المتاجر الشرقية والمنتجات المحلية، بل نسمع في المصادر المعاصرة عن قيام بعض هؤلاء التراجمة بدور الوسيط التجاري في تزويد هؤلاء التجَّار الأجانب باحتياجاتهم اليومية من أطعمة وأشربة وخلافه، من ذلك ما يشير إليه أحد المؤرخين المعاصرين من أن الأمير ألماس الحاجب في عصر الناصر محمد بن قلاوون، كان لديه في اصطبله عدة كبيرة من الخنازير، وكذلك في بلاد من أقطاعه، وكان يبيعها للتجَّار الفرنج الواردين إلي الأبواب الشريفة بأغلي الأثمان مستعيناً ببعض التراجمة في بيع هذه الخنازير في مقابل حصولهم علي بعض السمسرة [٨٤]. كذلك يفهم مما جاء في الخطاب الذي أرسله سفير دوج البندقية إلي بلاده في ٢٤ نوفمبر ١٤٨٩م أن كبير التراجمة "تغري بردي" في عصر السلطان الأشرف قايتباي قد لعب دور الوسيط التجاري بين الدويدار الكبير في ذلك الوقت وبين التجَّار البنادقة، فضلاً عن كونه قد بذل مساعيه لتأمين سلامة ووصول بعض السفن الرودسية وعليها البضائع الخاصة بالدويدار الكبير والمصدرة من مصر [٨٥].

هذا إلي جانب ما يشير إليه الرحَّالة اليهودي موشلام بن مناحم الفولتيري من أن كبير التراجمة "تغري بردي" في سنة ١٤٨١م قد منحه توصية تم بمقتضاها منحه إعفاءً من دفع الرسوم الجمركية علي الأحجار الثمينة التي جلبها معه عند زيارته لمصر فضلاً عن أنه سهل له مهمة قيامه ببيعها، وكانت هذه الرسوم تقدر بنحو ١٠٪ من قيمة هذه السلع في ذلك الحين [٨٦].

كما قام كثير من الحجّاج المسيحيين باستئجار الدواب التي تحملهم أثناء فترة طوافهم بالأماكن المقدسة في كل من مصر وبلاد الشام، إلي جانب استئجارهم للعديد من المنازل أو الغرف من أهالي بيت المقدس بوجه خاص، حيث يقضون بها أطول فترة في رحلتهم، كل ذلك عن طريق التراجمة أو مساعديهم حسبما يؤكد لنا ذلك كل من "فيلكس فابري" و "برايد نباخ" في حديثهما عن الحج إلي بيت المقدس، كما قام هؤلاء التراجمة بدور الوسيط بينهم وبين البدو لحماية الحجّاج وعدم الإغارة عليهم أثناء تنقلاتهم(٨٧). بالإضافة إلي ما قام به بعض هؤلاء التراجمة من إحضار بعض الأشخاص الذين يقومون بطهي الطعام، وسقي الماء وتقديم الخدمات المتعلقة بالمأكل والمشرب لهؤلاء الزوار في رحلاتهم إلي الأماكن المقدسة، وكانوا دائمًا محل ثقة الحجّاج خاصة الذين يُكثِرون التردد علي هذه البلاد (٨٨).

ويفهم مما رواه ابن حجر العسقلاني في حوادث سنة ٧٨٢هـ/١٣٨٠م أن بعض أبناء الجاليات التجارية الأجنبية الموجودة بالبلاد كانوا يستعينون بهؤلاء التراجمة في عرض شكواهم علي السلاطين وكبار الأمراء، وللحصول علي ما لهم من حقوق تجاه بعض أبناء البلاد من التجّار، وأنهم كانوا يستعينون بهم عند الاحتكاك لفض ما قد ينشب بينهم وبين أبناء البلاد من خلافات (٨٩).

كذلك كان يدخل ضمن اختصاصات التراجمة في المدن والمواني التي بها جاليات من التجّار الأوروبيين حضور توقيع العقد الذي يتم بين أبناء جالية من الجاليات وأحد البريدية والذي يتعهد فيه هذا البريدي بتوصيل رسائلهم إلي إحدي المدن مثل عكا أو بيروت، وإحضار ما يثبت تسليمه الرسائل نظير أجر معين يحصل عليه، وبموافقة صاحب البريد في المدينة التي تم بها التوقيع، ولدينا من هذا النوع وثيقة يرجع تاريخها إلي الثاني من صفر سنة ٨٢٠هـ/الحادي والعشرون من مارس ١٤١٧م، يذكر فيها إبراهيم بن البدري المترجم: أنه حضر توقيع عقد بين أحد رجال البريد ويدعي سليمان بن علي بن سليم المعروف بالقصار من ناحية، وبين قنصل البندقية في الإسكندرية ومساعده التاجر الأرمني ميرزا شنودة من ناحية أخري (٩٠). كان هذا فيما يتعلق بدورهم في المعاملات التجارية ثم نأتي إلي دورهم الثقافي.

دورهم الثقافى:

وفيما يتعلق بدور التراجمة الثقافي فالحقيقة أن المصادر والمراجع التي تحدثت عنهم لم تشر بوضوح إلي ما يساعدنا علي الحديث عنهم بشكل مناسب، مع هذا سوف نحاول إلقاء الأضواء علي جهدهم في هذا المجال من خلال ما تيسر لنا الحصول عليه أو استنباطه من تلك الإشارات النادرة، فمن المعروف وكما سبقت الاشارة بذلك أن كبير التراجمة في القاهرة كان له مساعدون من التراجمة في كل مدينة من المدن التي زارها الحجَّاج والرحَّالة المسيحيون الغربيون في ذلك العصر، ويأتي في مقدمة هؤلاء التراجمة ترجمان بيت المقدس، والذي كان يتولي مهمة استقبالهم إذا كانوا قد أتوا إليها من البحر عن طريق يافا، ويقوم بإثبات شخصية كل منهم في بطاقة خاصة، يرسل نسخة منها إلي القاهرة لعرضها علي السلطان. فضلاً عن أنه ومساعدوه كانوا يتولون إرشاد هؤلاء الرحَّالة طوال الطريق من يافا إلي بيت المقدس، وفي القدس يتولون مهمة توجيههم أثناء زيارة الأماكن المقدسة وإرشادهم وتوضيح ترتيب الأماكن التي يجب عليهم زيارتها، والمسافة بين كل منها، وربما إعطاء فكرة عنها بما تحمله من ذكريات ترتبط بالعقيدة المسيحية.

أما إذا وصل هؤلاء الرحَّالة أولاً إلي الإسكندرية، فكانت تتبع معهم الإجراءات السابقة في إثبات شخصيتهم، ثم يتوجهون إلي القاهرة بعد زيارة بعض الكنائس في الإسكندرية، ولا شك أن التراجمة كانوا يتبارون في إظهار معلوماتهم المتعلقة بمثل هذه الأماكن، وفي القاهرة يحدث نفس الشيء، ثم يتوجهون إلي سيناء لزيارة معالم منطقة سانت كاترين، ولم يقتصر دور التراجمة هنا علي مجرد الإرشاد السياحي، بل تعداه إلي إعطاء هؤلاء الرحَّالة فكرة عن طبيعة البلاد التي سيمرون بها، والعقبات التي تنتظرهم، وكذلك كيفية التصرف في حالة تعرضهم لبعض الإصابات، خاصة من الحشرات الموجودة بها، وخير مثال لذلك ما يرويه لنا الرحَّالة اليهودي موشلام بن مناحم الفولتيري عندما عزم علي زيارة سانت كاترين ثم القدس قادمًا إليهما من القاهرة، فقد نصحه الترجمان بأن يأخذ معه بعض الليمون، حيث ستخرج عليه أسراب

من حشرات موجودة في رمال الصحراء منها حشرة تسمي "قملة فرعون" والتي يبلغ طول الواحدة منها ضعف طول الذبابة ولونها أحمر، ولا علاج للدغتها غير عصير الليمون الذي يمنع الجروح من أن تتقيح، ولولا عمله بهذه النصيحة لعاني كثيراً من الحشرة (٩١). وبذلك كان دور التراجمة يتناول شرح بعض عادات أهل البلاد وربما قوانينهم وتقاليدهم التي يجب أن يحرص الأجانب علي مراعاتها والالتزام بها.

كذلك لا نستبعد أن يكون بعض التراجمة قد قاموا بدور ثقافي واضح، مثل ترجمان بلاد التكرور المقيم في مصر، والذي شهد ازدهار الثقافة العربية في القاهرة، كأهم معقل للحضارة العربية آنذاك، وربما كان له دور في تعريف وإقبال كثير من أبناء تلك البلاد عند توافدهم علي مصر في مواسم الحج علي شراء كثير من الكتب التي ألفها علماء مصر، خاصة في الفقه المالكي السائد في تلك البلاد (٩٢).

كذلك وردت إشارة عند القلقشندي يفهم منها دور بعض التراجمة الثقافي علي الأقل داخليًا، وربما ساعدهم علي ذلك رحلاتهم إلي الخارج ومشاهداتهم، فقد وردت فتيا إلي الديار المصرية وعرضت علي أحد التراجمة والتي كانت معروفة بلغة بلاد الصقالبة من بعض أهلها يسألون فيها كيف تكون صلاة أهل بلد لا يغيب عنهم الشفق، وقد قام بكتابة الرد عليهم، فضلاً عن أنه قام بإعطاء بعض معاصريه فكرة عن هذه البلاد قائلاً: "أن منها يجلب السمور والسنجاب" ثم قال: "وليس بعدهم في العمارة شيء" (٩٣).

وفي الختام أرجو اللّه تعالي أن أكون قد وفقت فيما قصدت إليه من إلقاء بعض الضوء علي التراجمة في عصر سلاطين المماليك، لعلي بذلك أكون قد أسهمت بقدر متواضع من خلال هذه الدراسة لإظهار مدي المستوي الحضاري الذي وصلت إليه دولة سلاطين المماليك في أواخر العصور الوسطي. واللّه ولي التوفيق.

الهوامش

(١) المقريزي: السلوك، ج٤، قسم ٢، ص ٩٢٤-٩٢٥، ابن الصيرفي: إنباء الغمر، ص ٣٦٢، ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص١٣١، سعيد عاشور: العصر المماليكي ص ٢٣٥، جمال سرور: دولة بني قلاوون في مصر، ص ١٠٠ .

(٢) محمد عبد الله عنان: "العلائق الدبلوماسية بين القاهرة والممالك الإسبانية .." أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ١٩٦٩، ج٣ . ص ١١٩٤-١١٩٦ .

(٣) بدرو مارتينث: "العلاقات الدبلوماسية بين مصر وقشتالة .." أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، ج١ ص٢٧٦-٢٨٢ .

(٤) عز الدين فودة: النظم الدبلوماسية، دار الفكر العربي ١٩٦١، ص ١٣١ .

(٥) عمر كمال توفيق: الدبلوماسية الإسلامية، ١٩٨٦، ص ١١١ .

(٦) أحمد دارج: "الوثائق العربية المحفوظة في دور الأرشيف الأوروبية" أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، ج١، ص ١٢٥-١٣١ .

Amari : I Diplomi Arabi pp . 220-250 .

(٧) النويري: نهاية الإرب، ج٢٩، مخطوط، ورقة ١٠٩، ابن أيبك: الدر الفاخر، ص ٢٠٨، المقريزي، السلوك، ج٤ قسم٢ ص٧١٨، ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ص٢٢١، ابن إياس: بدائع الزهور ج٢، ص٤٧-٥٦ . مني إبراهيم: السفارات الأجنبية في مصر، رسالة ماجستير بجامعة القاهرة، ص ٧٩-٨٢ .

(٨) علي السيد علي: القدس في العصر المملوكي، القاهرة ١٩٨٦، ٢١٢ .

(٩) المقريزي: السلوك، ج١ قسم ٢ ص٤٧١، سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص٢٦٢ .

(١٠) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص ١٧٠-١٧٢ .

(١١) مني إبراهيم: نفس المرجع، ص ٢٥٠ .

(١٢) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ١٣٩ .

(١٣) إنباء الغمر، ج١، ص٤٧٦ .

(١٤) ابن خلدون: العبر، ج٥، ص٤٣٤، ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٤، ص٣٨٣، وعن علاقات مصر ببلاد التكرور راجع، علي السيد علي: التبادل التجاري بين مصر وبلاد التكرور وانعكاساته علي أحوال مصر في العصر المملوكي، بحث مقدم لندوة تاريخ العرب وأفريقيا بجامعة القاهرة أبريل ١٩٨٧ .

(١٥) السلوك، ج٣، قسم١، ص١٠٩ .

(١٦) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص٤٧، ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٣، ص١١٢ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج١، ص٤٢٤ .

(١٧) نعيم زكي: طرق التجارة الدولية ومحطاتها، ص٤٢٤ .

(١٨) ابن الصيرفي: إنباء الهصر، ص١٢٦، السخاوي: الضوء اللامع، ج١٠، ص١٠٠٨، ج١١، ص١١٤-١١٥ .

(١٩) مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، ج١، ص٣٦٢ .

(٢٠) المقريزي: السلوك، ج١ قسم٢، ص٤٧٣-٥٠٨ .

(٢١) ابن حجر: إنباء الغمر، ج١، ص٢٥٦، ابن إياس: بدائع الزهور، ج١ قسم٢، ص٣٠٧ .

(٢٢) الروض الزاهر، ص٢٠٢-٢٠٣ .

(٢٣) المقريزي: السلوك، ج٢ قسم٣، ص٧٩٤، ابن طولون: مفاكهة الخلان،ج١، ص١٢٠ .

(٢٤) Fischal : (Introduction to Vita Tamerlani) in Oriens , Vol . 9 , 1956 . pp . 206-207 .

- أحمد عبد الكريم سليمان: تيمور رلنك ودولة المماليك الجراكسة، القاهرة ١٩٨٥، ص ٣-٤ .

(٢٥) A Visit to the Holy Places , pp . 44-52 .

(٢٦) Ibid : p. 58 .

(٢٧) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤، ص ٣٦١-٣٦٢، أحمد دارج: المماليك والفرنج، ص١٤٦-١٤٨

Thenaud : Le voyage d,outremer , p .14.

(٢٨) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١٢٣٠-١٢٣٢، توفيق إسكندر: سفارة بيرو ودبيرو ومعاهدة تنازل مصر عن قبرص ١٤٩٠، ص١٣-١٥ .

(٢٩) أحمد دارج: المماليك والفرنج، ص٣٨ .

(٣٠) Poro Tafur : Travels and adventures, pp . 72-73 .

(٣١) De La Brocquiere : Voyage d, outremer , p . 14 .

(٣٢) Adler : Jewish Travellers . pp . 160-161 .

(٣٣) علي السيد علي: القدس في العصر المملوكي، ص١٠٤ .

(٣٤) Ibid : Op . Cit . p. 220 .

(٣٥) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص ٦٢ .

(٣٦) Salo Wittmayer Baron : A Social And Religious History of the Jews , New York , 1980 , p . 264 .

(٣٧) ليفي بروفنسال: الحضارة العربية في إسبانيا، ١٩٨٥، ص١٣٢-١٣٣، قاسم عبده قاسم: اليهود في مصر من الفتح العربي حتي الغزو العثماني، ١٩٨٧، ص ٢٠ . Ibid : . p . 267

(٣٨) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص ١٧٠-١٧٢ .

(٣٩) علي السيد علي: القدس في العصر المملوكي، ص ١٠٤ .

(٤٠) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٣، ص ١٤٥-١٥١ .

(٤١) محمد عبد الستار عثمان: وثيقة وقف جمال الدين الأستادار، القاهرة ١٩٨٣، ص ٧٨-٧٩ .

(٤٢) ابن حجر: إنباء الغمر، ج١، ص٤٩٠ .

(٤٣) نزهة النفوس، ج٢، ٢١-٢٤ .

(٤٤) السلوك، ج٢ قسم١، ص٢٤٩، ج٢ قسم، ص ٣٠٨ في حوادث سنة ٧٢٣هـ أيام الناصر محمد بن قلاوون .

(٤٥) Margoliouth : Cairo , Jrusalem and Damascus , p . 160 .

(٤٦) The Travels of Martin Baumgarten , pp , 441-442 .

(٤٧) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ١٣٩ .

(٤٨) توفيق إسكندر: تاريخ مصر في محفوظات البندقية، وثائق غير منشورة، السلسلة الأولي، المعاهدات ١٩٥٦، ص٨ .

(٤٩) Gucci : A visit to the Holy Places , pp . 95-103 ; Van de Joos : Le Voyage En Egypte . pp . 16-17 .

50-Ibid : pp. 150-151 .

(٥١) علي السيد علي: القدس في العصر المملوكي، ص ٢١٧ .

(٥٢) Goitein : Letters of Medieval Jewish Traders , Princeton 1973 , p . 58 .

(٥٣) الطاهر مكي: معاهدة تجارية من القرن الخامس عشر، مجلة المجلة، عدد يناير ١٩٦١، ص ٩٢ .

Alarcon : Las Documentos Arabes , Madrid 1940 , p . 37 ; Amari : Op . Cit . pp . 203-204 ; Mas Latrie : Traite de Pait . pp . 88-92 .

(٥٤) نعيم زكي: طرق التجارة ص ٣٢٤، Amari : Op . Cit . pp. 203-204

(٥٥) المنهل الصافي، ج٢، ص ٢٩١-١٩٣، ج٣، ص ١١٢-١١٣ .

(٥٦) السلوك، ج٢، قسم٢، ص ٦٧٥-٦٧٦ .

(٥٧) نزهة النفوس، ج٢، ص٢١-٢٣ .

(٥٨) مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، ج١، ص١٢٠-١٨٢ . ص ٣٤١-٣٦١ .

(٥٩) الخالدي: المقصد الرفيع، ورقة ١٠١-١٠٧ مخطوط، القلقشندي: صبح الأعشي، ج١ ص ١١٠-١٢٩ .

(٦٠) القلقشندي: صبح الأعشي، ج٨، ص ١٢٢، عمر كمال توفيق: نفس المرجع، ص ١٥٠، سعيد عاشور: مصر في عصر دولة المماليك البحرية، ص١٤٨ .

(٦١) الخالدي: نفس المصدر، ورقة ١٠٦، القلقشندي، نفسه، ج٦، ص٢١٦، مني إبراهيم: نفس المرجع ص ٢٤٦-٥٠٠ .

(٦٢) القلقشندي: نفس المصدر، ج١، ص١٣٥، عمر كمال توفيق، نفس المرجع ص١٥٠ .

(٦٣) المصدر السابق، ج١، ص١٣٢-١٣٥، ص٤٤٧ .

(٦٤) عمر كمال توفيق: نفس المرجع، ٢٤-٣٥ .

(٦٥) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص١٥٦ .

(٦٦) الطاهر مكي: نفس المرجع، ص٨٤-٨٦ .

(٦٧) توفيق إسكندر: نفس المرجع السابق، ص٨-١٤ .

(٦٨) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤، ص١٦٤؛ أحمد دراج: المماليك والفرنج، ص١٤٠ .

(٦٩) المصدر السابق، ج٤، ص٢١، ١٢٠؛ أحمد دارج: نفس المرجع، ص١٤٠-١٤١ .

(٧٠) حسين مؤنس: "سفارة بدرو مارتير" أبحاث التدولة الدولية، ج١، ص٤٦١-٤٦٢؛ أحمد دراج: نفسه، ص١٤٧-١٤٨ .

(٧١) القلقشندي: صبح الأعشي، ج١٤، ص١٠٨-١٠٩، عمر كمال توفيق: نفس المرجع، ص ١٩٦-٢٠٩ .

(٧٢) المصدر السابق نفسه، ج١٤، ص٧٠-٧١، المرجع السابق، ص٢٠٩ .

(٧٣) عمر كمال توفيق: نفس المرجع، ص ١٦٨ .

(٧٤) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص ١٦٨ .

(٧٥) النويري: نهاية الأرب، ج٢٨ مخطوط، ورقة ٤٨ .

(٧٦) محمد عبد الله عنان: نفس المرجع، ج٣، ص١٢٠٠ .

(٧٧) ابن عبد الظاهر: الروض الزهر، ص ٢٩٦ -٢٩٧ .

(٧٨) علي السيد علي: "الجاسوسية في عصر سلاطين المماليك"، مجلة فكر للدراسات والأبحاث، العدد العاشر، ١٩٨٦، ص١٢٦-١٤٦ .

A visit to the Holy places , pp . 40-44 .

(٧٩) أحمد دارج: نفس المرجع، ص٣٧،

Adler : Op . Cit . p . 170

(٨٠) A visit to the Holy places , pp .160-170 .

(٨١) Adler : Op . Cit . pp . 160-170 .

(٨٢) الطاهر مكي: معاهدة تجارية من القرن الخامس عشر، ص ٩٢،

Alarcon : Op . Cit . p . 37 .

(٨٣) صبحي لبيب: "الفندق ظاهرة سياسية ..." مصر وعالم البحر المتوسط، ١٩٨٦، ص ٢٩٥-٢٩٦ .

(٨٤) ابن أيبك: الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ص ٣٧٤ في حوادث سنة ٧٣٤هـ .

(٨٥) توفيق إسكندر: تاريخ مصر في محفوظات البندقية، ص ١٢-١٤ .

(٨٦) Adler : Op . Cit . pp . 160-161 .

(٨٧) علي السيد علي: القدس في العصر المملوكي، ص ٢١٦ -٢١٧ .

(٨٨) المرجع السابق نفسه، ص ٢١٧ .

(٨٩) إنباء الغمر، ج١، ص ٢١٢ .

(٩٠) صبحي لبيب: المرجع السابق نفسه، ص ٢٩٤-٢٩٥ .

(٩١) علي السيد علي: "القاهرة في عيون الرحّالة الأجانب في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، بحث في مجلة فكر، العدد ١٣ .

Adler : Op . Cit . pp . 178-220.

(٩٢) محمد محمد أمين: "علاقات دولة مالي وسنغاي بمصر في عهد سلاطين المماليك" مجلة الدراسات الأفريقية، العدد الرابع، ١٩٧٥، ص ١٠١ .

(٩٣) صبح الأعشي، ج٤، ص ٤١٩ .

الرعاية الاجتماعية للجواري والعبيد السود

في العصر المملوكي

من المعروف أن المجتمعات التي عاشت تحت ظل حكم سلاطين المماليك في كل من مصر، والشام والحجاز قد شهدت تدفق أعداد ضخمة من الرقيق بوجه عام، والجواري والعبيد السود بوجه خاص، نتيجة عاملين مهمين، وهما: تغلغل طبقة المماليك، والحروب الصليبية "٤٩٠-٦٩٠هـ / ١٠٩٧-١٢٩١م" وما لها من نتائج في ازدهار العلاقات التجارية بين الشرق والغرب، وما تحقق فيها من ثروات طائلة للشرق والغرب علي السواء. هذان العاملان أسهما بشكل مباشر في أن تشكل طبقة الجواري والعبيد السود كثرة عددية في المجتمعات سالفة الذكر، بحيث لا نغالي إذا قلنا أنه قل أن تجد داراً إلا وبها عدد من الجواري والعبيد السود. بدليل ما قامت به السلطات المملوكية من تعيين "ضامن" عليه مال مقرر يأخذه من كل من يُرد عليه عبده أو جاريته إذا هربوا تمردا وعصيانا وعنادا، والذي كان يقيم من تحت يده مساعدين من الرجال علي الطرق لرد الهاربين، ويدفع للدولة مقابل ذلك مبلغاً من المال[١].

كذلك لم نسمع عن أحد من كبار رجال الدولة من السلاطين، أم أمراء المماليك، أم من الفقهاء والتجّار، بل والكثير من عامة الناس إلا وكان لديه عدد من الجواري والعبيد السود يتناسب مع مكانته الاجتماعية ومركزه وثروته[٢]. وسنكتفي هنا بالإشارة إلي مثال واحد عن شغف السلاطين باقتناء الجواري والعبيد السود: من أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون، الذي توفي سنة ٧٤١هـ / ١٣٤٢م، "قد اشتري في مدة خمس سنوات من حكمه من سنة ٧٣٢-٧٣٧هـ/١٣٣٣-١٣٣٨م منهم ما جملته

أربعمائة وسبعين ألف دينار مصرية"، وأنه شغف بحب الجواري حيث وصل عددهن عنده إلي ألف ومائتي جارية[٣]. ويذكر مصدر معاصر: أنه في أواخر عهد هذا السلطان والذي كان متجملاً يقتني من كل شيء أحسنه، وأكثر في سلطنته من شراء العبيد والجواري، وطلب التجّار وبذل لهم الأموال ووصف لهم حلي المماليك والجواري[٤]. وبما أن الناس علي دين ملوكهم، فقد حاكي كثير من الأمراء وعامة الأهالي سلاطين المماليك في الإكثار من شراء الجواري والعبيد السود كل حسب سعته ومكانته الاجتماعية، ومركزه المالي.

أوجه الرعاية الاجتماعية:

من المعروف أن الرق لم يأت به الإسلام، وإنما كان موجوداً قبل الإسلام، وكان دعامة ترتكز عليها الحياة الاقتصادية، وتعتمد عليها فروع الإنتاج في معظم أمم العالم، وتحت تأثير هذه الظروف الاقتصادية أقرَّ الإسلام الرق ولكن في صورة تؤدي هي نفسها إلي القضاء عليه تدريجيًا. ودون أن يحدث ذلك أي أثر سيئ في نظام المجتمع الإنساني، بل ودون أن يشعر أحد بتغيير في مجري الحياة. ولقد سلك الإسلام في سبيل تحقيق هذه الغاية مسلكين، أحدهما تضييق الروافد التي كانت تمد الرق وتغذيه وتكفل بقاءه، وقصره علي رق الوراثة "باستثناء أولاد الجارية من مولاها"، ورق الحرب، وهو الذي يُفرض علي الأسري من غير المسلمين. بل وقيد الإسلام هذين الرافدين بقيود تكفل نضوبهما بعد أمد غير طويل[٥].

ومما لا شك فيه أن الإسلام قد ارتقي بالمرأة بوجه عام ارتقاءً بيناً عندما حفظ لها حريتها بتحريمه اختطافها، في حين أن الشرع اليهودي يجيز لليهودي أن يستعبد يهوديًا آخر لمدة معينة لا تزيد علي ست سنوات، إلا إذا ألح واحد من الرقيق علي البقاء في كنف مولاه، فله أن يحتفظ به. وقد جاء في سفر الخروج ما نصه: "إذا ابتعت عبداً عبرانيًا، فليخدمك ست سنين، وفي السابعة يخرج وحده، وإن كان ذا زوج فليخرج زوجه معه، وإن زوجه مولاه بامرأة فولدت له بنين وبنات، فالمرأة وأولادها يكونون لمولاه

وهو يخرج وحده [٦]. كما أن الديانة المسيحية كانت تعتبر اقتراب الرجل من جاريته زني صريحًا، وإذا أنجبت الأمة ولدًا نشأ رقيقا يحمل عار والده الزاني، وللزوجة الشرعية أن تبيع الأمة أو تقصيها عن منزلها[٧].

أما الدين الإسلامي فقد حث علي عتق هؤلاء الرقيق، وقد جعل العتق كفًارة عن: القتل الخطأ، وكفارة عن الحنث في اليمين، وكفارة عن الإفطار عمدًا في شهر رمضان، وهذه الأخطاء جميعًا كثيرًا ما يتورط فيها الإنسان، وجعل عتق الأرقاء كفارة لها من شأنه أن يزيد من الأحرار ويقلل من الرقيق، ويرد للإنسان كرامته كإنسان[٨]. كما أن الإسلام ارتقي بالجواري وضمن لهن عفتهن وسلامة شرفهن حينما نص في القرآن الكريم: ﴿وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَي الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٩].

كما لم يترك الإسلام فرصةه من فرص العتق والتحرير إلا وانتهزها، فسًن طريقة "التدبير"، وهي أن يوصي السيد بأن يكون عبده حرًا أو جاريته بعد موته، واتفق الأئمة أنه لو كان في يد إنسان غلام بالغ عاقل وادعي عليه أنه عبده فكذًبه الغلام، فالقول للغلام مع يمينه أنه حر. وبتطبيق القاعدة الشرعية المشهورة "البينة علي من ادعي واليمين علي من أنكر" نجد أن الشرع الإسلامي قد اعتبر أن حرية الإنسان هي الأصل وأن الرق أمر عارض، فكلف من أدعاه بالبينة، واكتفي ممن أنكر باليمين، ولا يخفي ما في ذلك من شدة حرص الشارع علي تحرير الأرقاء ما وجد إليه سبيلاً. أضف إلي هذا إجماع الفقهاء علي أنه إذا التقط شخصان لقيطًا فادعي مسلم أنه عبده وادعي شخص آخر من غير دين الإسلام أنه ابنه، فإنه يقضي ببنوته لغير المسلم حتي يكون حرًا، ولا يقضي للمسلم حتي لا يكون رقيقًا. وهذا يبين لنا مبلغ تقديس الإسلام للحرية[١٠].

وبالنسبة لرق الوراثة فقد قرر الإسلام أن من تأتي به الجارية من سيدها يولد حرًا، ويلتحق نسبه بالسيد، وتصبح الأم نفسها مستحقة للحرية بعد وفاة سيدها، ويسمي الفقهاء هذا النوع من الجواري أمهات الأولاد، وقد حظر الإسلام علي السيد

أثناء حياته أن يبيع أم ولده أو يهبها أو يتصرف فيها أي تصرف ينقل ملكيتها ويعوق حريتها، وفي هذا يقول الرسول ﷺ : "أم الولد لا تباع ولا توهب، وهي حرة في جميع الحال". وفي حديث آخر قال ﷺ : "أي امرأة ولدت من سيدها فإنها حرة إذا مات". وعن عمر ﷺ أنه قضي بأنها لا تباع وأنها حرة من رأس مال سيدها إذا مات. ورُوي مثل ذلك عن عثمان ﷺ وهو قول أكثر التابعين وجمهور الفقهاء[١١].

وعلي هذا فإن الابنة التي تولد للمسلم من جاريته حرة إذا اعترف بها والدها، وفي هذه الحالة يجب علي السيد أن يكتب صكًا ليلحقها به، ويكون نصه كما يلي: "أقر فلان بأنه كان قبل تاريخه وطيء مملوكته التي بيده وملكه المقرة بالرق والعبودية، المدعوة فلانة، الفلانية الجنس، الوطء الصحيح الشرعي، واستولدها ولدًا "ذكر أو أنثي" يسمي فلانًا الطفل يومئذ وهو الآن في قيد الحياة، وأنه من صلبه ونسله، ونسبه لاحق بنسبه"[١٢].

والأولاد الذكور والإناث الذين يعترف بهم المولي المسلم يرثون والدهم أسوة بإخوتهم وأخواتهم الذين ولدوا من الحرائر، وكثير ما كان السيد يحرر أمتَه أم الولد، ويتزوجها زواجًا شرعيًا رفعًا من شأنها وشأن أولاده منها، فتتمتع بجميع الحقوق الخاصة بالزوجات الحرائر. وهذا الوضع يخالف كل المخالفة ما يقرره الشرع المسيحي من منع اقتراب الرجل من جاريته، لأنه يعد ذلك زني صريحًا وكما سبقت الإشارة بذلك. فيحمل الولد عار والده طول حياته، وتخول الشريعة للزوجة أن تبيع الجارية أو تقصيها عن المنزل، كما يخالف الشرع الروماني الذي يقرر أن المولود تابع لحالة الوالدة من حيث الرق[١٣].

كما كان بعض الأمراء يتزوجون جواري لسن ملك أبويهم، بعد أن يدفعوا لأسيادهم الصداق المترتب عليهم، وفي مثل هذه الحالات يحدد الشرع الشروط التي يجب أن تتم في الحر الذي يود التزوج من جارية غيره، فيقضي ألا يكون متزوجًا بحرة، وألا يكون لديه المال الذي يكفي لصداق حرة، وأنه يخشي عليه التهور في حياة المجون، بحيث يكون هذا الزواج أخف مؤونة عليه من زواج الحرائر، وأحفظ لنفسه

ودينه. وفي هذه الحالة كانت تتم كتابة وثيقة ينص فيها علي: "هذا ما أصدق فلان مملوكة فلان، المقرة لسيدها بالرق والعبودية، عندما خشي علي نفسه العنت أي الفجور والزنا، أو خاف الوقوع في المحظور، لعدم الطول، وأنه ليس في عصمته زوجة، ولا يقدر علي صداق حرة علي ما شهد له به من يعينه في رسم شهادته، صداقًا تزوجها به مبلغه كذا وكذا، وولي أمر تزويجها إياه بذلك سيدها المذكور بحق ولايته عليها شرعًا". ثم يذيل بالفقرة التالية التي تضاف إلي العقد: "وشهدت البينة أن الزوج المذكور فقير ليس له موجود ظاهر، ولا مال باطن، ولا له قوة علي نكاح حرة، ولا في عصمته زوجة، وأنه عادم للطول"(١٤).

ومن أوجه الرعاية الاجتماعية الاعتراف بحقوق الجواري المدنية، فإذا حررت الجارية تمهيدا لعقد النكاح الشرعي فبوسعها أن ترفض الاقتران بمولاها السابق، وعندئذ تخرج من عصمته ولا يحق له أن يعيدها إلي ملكه بل تطلق حرة، ومن القيود التي فرضها الشرع في معاشرة الجواري ما فرض علي الزوج من تحريم الاقتراب من: أختين، والأم وابنتها، والعمة وابنتها وابنة أخيها وغيرهن من ذوي المحارم جريا علي السنة المتبعة في النكاح الشرعي، كما أنه حرم علي رجلين أن يشتريا جارية فيقتربا منها معا، لأن الشرع يعاقب علي مثل هذه الفعلة ويعتبرها زني صريحًا(١٥). وبذلك نري أن الشرع الإسلامي لم يفرق في المعاملة الكريمة بين الجواري والحرائر من النساء.

ومن السبل الشرعية التي وضعها المشرع الإسلامي لرعاية الرقيق اجتماعيًا وتحريرهم، والقضاء علي الاسترقاق بشكل تدريجي وتوفير سبل الحياة الكريمة لهم، يأتي نظام "المكاتبة" حيث سمح للأسياد أن يعتقوا عبيدهم وجواريهم مقابل مبلغ من المال معيَّن يدفع للأسياد منجمًا أي علي أقساط شهرية حسب مصطلحنا الحديث، حتي إذا استوفي المولي أي السيد القيمة المتفق عليها أصبح الرقيق حرًا، ولضمان حقوق كل من الطرفين تجاه الآخر كان يكتب في مثل هذه الحالة النص التالي:

"كاتب فلان مملوكه أو مملوكته، الذي بيده أو التي بيده وملكه المقر له أو المقرة له بالرق والعبودية المدعو فلان أو المدعوة فلانة الفلاني الجنس، المسلم لـمَّا علم فيه من

الخير والديانة والعفة والأمانة وقوله تعالي: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً﴾ علي مال جملته كذا وكذا، يقوم به منجمًا في سلخ كل شهر كذا وكذا، وأبرأه منه ... وأذن له سيده في التكسب والبيع والشراء، فمتي أوفي ذلك كان حراً من أحرار المسلمين، له ما لهم، وعليه ما عليهم، لا سبيل لأحد عليه، إلا سبيل الولاء الشرعي، ومتي عجز، ولو عن الدرهم الفرد، كان باقيًا علي حكم العبودية"(١٦). فإن وفي العبد أو الجارية مال الكتابة كان يحصل علي صك أو وثيقة تكتب علي النحو التالي: "أقر فلان بأنه قبض وتسلم من مملوكه فلان المسمي باطنه جميع المبلغ المعين... وهو كذا وكذا علي حكم التنجيم، وصار ذلك بيده وقبضته وحوزه، فبحكم ذلك صار فلان حراً من أحرار المسلمين علي ما تقدم ويؤرخ(١٧). وبذلك كانت طريقة المكاتبة أو الكتابة هي الوسيلة التي يمكن للجارية أو العبد أن يشتري بها نفسه من سيده بمال يكتسبه. وأجمع جمهور الفقهاء علي أنه: إذا قال السيد لعبده أو جاريته قد كاتبتك علي ألف درهم فإذا أديتها فأنت حر، فإذا أداها أو أدتها كان حراً وكانت حرة. كما اتفقوا علي أن العبد أو الجارية يخرج كل واحد منهما من الرق إذا أدي الكتابة أو المكاتبة. بينما اختلفوا إذا عجز العبد أو الجارية عن أداء البعض وأدي أو أدت البعض. فقال أغلبهم: هو عبد ما بقي عليه من كتابته شيء، وأنه يظل في الرق إذا عجز عن البعض استنادًا إلي قول الرسول ﷺ: "أيما عبد كاتب علي مائة أوقية فأداها إلا عشرة أواقي فهو عبد وأيما عبد كاتب علي مائة دينار فأداها إلا عشرة فهو عبد"(١٨).

وقد أوجبت الشريعة الإسلامية ضرورة إتاحة الفرصة للعمل لهؤلاء الرقيق المكاتبين، وأن للعبد أو الجارية حق الاتجار للحصول علي ما يدفع من مال السيد، وأن علي سيده أن يتركه يشتغل أين شاء وفيما شاء. كما اشترط الفقهاء أن تراعي حالة الرقيق عند المكاتبة، كما أنهم يرون أن أقل وعد من السيد أو أقل احتمال للوعد بالتحرير يجعل التحرير ضروريًا، كذلك رغب الإسلام في اعتاق الرقيق مقابل ابتغاء وجه الله تعالي، فقال تعالي في سورة البلد: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ . وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ . وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ والمراد بالنجدين هنا الطريقان، أي طريق الخير وطريق الشر،

وأصل النجد الطريق المرتفع، ﴿فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾، والاقتحام الدخول في أمر شديد، و "العقبة": الطريق في الجبل، ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ . فَكُّ رَقَبَةٍ . أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ والمسغبة: المجاعة، ﴿يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ . أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ والمتربة: الفقر[19].

وكنوع من الرعاية الاجتماعية بعد العتق تأتي عملية "الولاء" بمعني أن يصبح العبد أو الجارية الذي تم عتقه أو تم عتقها مولي لسيده السابق، عليه أن يساعد مولاه كنوع من العرفان بالجميل، وعلي سيده أن يختصه بولايته وحمايته، فيجد الشخص المعتق سندًا يستند إليه وحسبًا وجاهًا مستمدًا من حسب وجاه مولاه، وخير من عبَّر عن ذلك المؤرخ المعاصر ابن أيبك الدواداري عندما قال: إن مكانة العبد من مكانة سيده، وكذلك المثل المعاصر القائل: إن احترام العبد من احترام سيده[20]. بل أكثر من هذا من أن المولي كان بمثابة الأب المسئول عن جهاز عتقائه من جواريه عند زواجهن، من ذلك ما يشير إليه ابن تغري بردي "ت ٨٧٥هـ" من: أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون قد قام بتجهيز عدد من عتقائه الجواري مثلما جهَّز بناته كل واحدة منهن "قريبًا من جهاز بناته وبمثله وأكثر منه". وفي موضع آخر يشير إلي أنه جهَّز بناته بمبلغ "ثمانمائة ألف دينار"[21]. كما تشير بعض المصادر، وهي معاصرة إلي أن بعض أمراء المماليك كانوا يشملون بعض العبيد الذين يودعون السجون بسبب الديون برعايتهم، وأن يأمر بالإفراج عنهم في كثير من المناسبات، مثل: شفاء السلطان أو شفاء أحد كبار الأمراء المقربين إليه من المرض، أو بمناسبة حلول شهر رمضان المبارك[22]. ويبدو أن هذا الإجراء لم يكن يشمل جميع العبيد المسجونين علي دين، بل وضعت له بعض الشروط، وكما هو الحال في بعض الحالات في سجوننا المعاصرة، بأن تكون الأولوية منهم لمن يثبت حُسن سيره وسلوكه داخل السجن، فقد ذكر ابن أيبك الدواداري أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون في سلطنته الثالثة سنة ٧٧١هـ: "عندما شفي من وعكة صحيه أمر أن يصرف من الخزانة المعمورة من خاصية مال مولانا السلطان ألف دينار عين مصرية"، و "أن يستفك بها من يكون منهم بالسجون من أرباب الديون، علي أن يتتبع صلاحهم، ويطلق سراحهم"[23].

وتعكس لنا تصرفات المعاصرين لتلك الفترة النظرة إلي الجواري والعبيد، باعتبارهم جزء أساسيًا من أسرة مولاهم، فقد جاء في الوثيقة رقم ٦٠ من أوقاف وأملاك المسلمين أن الشهابي أحمد بن الناصري محمد قد أوقف علي نفسه ثم علي أولاده وعتقائهم وأنسالهم ما هو ١٦ قيراطًا من مزرعة العزيمة بصفد، وتاريخ هذه الوثيقة هو سنة ٨٩٦هـ/١٤٩٧م[٢٤]. كما جاء في الوثيقة رقم ٥٥ من نفس المصدر، أن نفس الشخص قد خصص فيها: "لكل واحد من عتقائه في كل سنة ستين درهما" والأعيان الموقوفة هي عبارة عن ١٣ قيراطًا من قرية كفر نعمة التابعة للقدس، وكانت تدر في القرن العاشر الهجري أي في بداية العصر العثماني ١٤٣٣ درهما سنويًا. وعلي هذا الأساس فإنهم بلغوا ٢٤ فردًا[٢٥].

كما أن الوثيقة رقم ٥٠ من نفس المصدر السابق، وهي وثيقة وقف شخص يدعي الغرس خليل ابن الشهابي أحمد بن يوسف الحمَّامي، وهي وثيقة وقف حصة في قرية المنصورة تابعة لتبنين عبارة عن حوالي سبع قراريط، وتنص علي تخصيص مبالغ لفقراء المسلمين للترفيه عنهم عبارة عن تخصيص مبلغ "في كل شهر خمسة عشر درهمًا. وفي كل ليلة جمعة سبعة دراهم تصرف ثمن فاكهة تفرق علي الفقراء، وما فضل يكون لأولاد الواقف وأولادهم وأنسالهم وأعقابهم. ومن بعدهم لعتقاء الواقف وعتقاء ورثته"[٢٦].

وكذلك ما تشير إليه وثيقة وقف الأمير تنكز نائب الشام في عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون، والتي عثر عليها في السجل رقم ٩٢ المؤرخ سنة ١٠٢٠هـ من سجلات المحكمة الشرعية بالقدس، من تفضيل عتقاء الواقف في الولاية والنظر علي الأوقاف بعد الواقف وذريته والتي جاء فيها: "أن النظر في هذا الوقف والولاية عليه لمولانا ملك الأمراء الواقف المسمي في هذا الكتاب المبارك مدة حياته ومن بعده يكون النظر في ذلك للأرشد فالأرشد من أولاده وأولاد أولاده وذريته المباركة ومن بعدهم يكون النظر للأرشد الأسن من عتقاء الواقف المسمي أعزه اللّه تعالي ومن بعدهم يكون لناظر الحرمين الشريفين وسيدنا الخليل بمشاركة الحاكم بالقدس الشريف له في ذلك حاكمًا بعد حاكم وناظرًا بعد ناظر.." [٢٧].

كذلك جاء في نفس كتاب الوقف ما يفيد أنه كان لعتقاء الواقف الأولوية في النزول في بيوت الصوفية علي غيرهم: "ومن اختار من عتقاء الواقف المذكور أحسن الله تعالي إليه أن يكون من جملة الصوفية المقدم ذكرهم فيكون في ذلك مقدما علي غيره من المرتبين بالإجازة ولا يشترط عليه أن يكون من أهل التصوف. وبالنسبة لجواري الواقف فقد نصت الوثيقة علي: "ومن اختارت من عتيقات الواقف المسمي أدام الله تعالي نعمته أن تكون في رباط النسا المذكور فيرتبها الناظر من جملتهن بالمعلوم والجراية وتكون مقدمة علي غيرها من الأجانب المرتبات فيه.." (٢٨).

وينبغي أن نشير إلي أن عملية الولاية هذه قد ترتب عليها بعض الحقوق للولي في مقابل ولايته، وما يترتب عليها من التزامات من قبله نحو معتقيه من عبيده وجواريه، وأهمها حقه في وراثة من يمت منهم بلا وريث. فالوثيقة رقم ٤٥٩ من وثائق الحرم القدسي الشريف والمؤرخة في ٢٢ ذي القعدة سنة ٧٩٥هـ/٢٩ سبتمبر ١٣٩٣م تؤكد أن: الوثيقة تخص قطلو ملك بنت عبد الله، عتاقة ناصر الدين محمد بن أيدغدي الحلبي، وأن ورثتها هم زوجها الحاج عبد الله بن يحيي المصري، ومعتقها ناصر الدين محمد الغائب في حلب، لأنها لم تنجب(٢٩). كما أن الوثيقة رقم ٤٥٧ من نفس المجموعة والمؤرخة في ٤ رمضان سنة ٧٩٦هـ/٣يوليو ١٣٩٤م تذكر أن: الوثيقة تخص طقتاي بنت عبد الله المطلقة، وزوجها علاء الدين علي بن قيران، وأن الورثة في دارها الموقوفة عليها في حارة الشرف المعروفة باسم حارة الأكراد بالقدس الشريف، هما معتقها وزوجها(٣٠).

وإذا حدث وتوفي المولي المعتق، فإن ورثته يدخلون في ميراث عتقائه إذا لم ينجبوا من الورثة من يستغرق الإرث كله، فالوثيقة رقم ٢٤٩ من وثائق الحرم القدسي الشريف والخاصة بإحدي المعتقات وتُدعي نرجس بنت عبد الله عتاقة ابن الأجل من دمشق، تؤكد أن:الوريث هو أخو معتقها شمس الدين بن الأجل الغائب في القاهرة، وذلك لوفاة معتقها ولأنها لم تتزوج، وعلي الوثيقة توقيع قاضي قضاة القدس الشافعي(٣١).

كما ينبغي أن نشير إلي أن تلك الولاية لم تكن موجبة لشيء من الصغار أو الذل، وأنها لم تحرم هؤلاء الرقيق بعد عتقهم من أية حقوق مدنية لهم، بل علي العكس تماماً،

فقد كان من حق الجارية بعد عتقها أن تتلقب بألقاب النساء الحرائر، وكذلك بشخصيتها الاعتبارية وحريتها في التصرف والتملك والوصاية والوكالة، وما إلي ذلك من حقوق. فالوثيقة رقم ٦٣٧ والمؤرخة في ٢٨ جمادي الثاني سنة ٧٩٧هـ/٢٠ أبريل سنة ١٣٩٥م قد جاء فيها أن: "المصونة" حجك بنت عبد الله، زوجة المرحوم زين الدين عبد الكريم الموصلي التاجر السفار، باعتبارها وصية علي أطفالها منه، محمد وأحمد، وعبد الرحمن، تقر بأنها قبضت وتسلمت ٥٠٠ دينارًا مصريًا وخمسة فلورين ذهبًا وبعض المبالغ الأخري من مودع الحكم الشافعي بالقدس الشريف. كما أن الوثيقة رقم ٧١٣ والمؤرخة في ٧ صفر سنة ٧٨٢هـ/٣١مارس ١٣٨٤ تفيد: أن إحدي العتيقات كانت تتمتع بكافة حقوقها الأدبية والمادية، فقد جاء فيها أن هذه السيدة وتدعي "السيدة المصونة" قق بنت عبد الله أعتقت جاريتها المسماة غزال بنت عبد الله. كما أن هناك العديد من الوثائق التي تؤكد علي شخصيتها الاعتبارية، وأنها كنت تحضر أمام مجلس الحكم "المحكمة الشرعية" لتقيم الدعوي ضد أحد من الرجال، أو لتوكل أحدًا عنها، أو لتقر بتسلمها معاشًا لأطفالها، أي النفقة الشهرية لهم، وغالبًا ما كانت مثل هذه الوثائق تبدأ بعبارة أشهدت عليها فلانة ..."، كما أنها تحدد أمام مجلس الحكم المستفيدين من تركتها، فالوثيقة رقم ٤١١ بتاريخ ٢١ رجب سنة ٧٩٥هـ/٢ نوفمبر سنة ١٣٩٣م قد جاء بها أن "الحرمة" ياسمين بنت عبد الله تقر أن أطفال معتقها الأمير الكبير علاء الدين علي الحلبي، المعروف بالأطروش، هم المستفيدون فقط من تركتها[٣٢].

كذلك تذكر بعض الوثائق أن كثيرًا من العتقاء من الجواري تمتعن بالملكية الخاصة بعد عتقهن، فالوثيقة رقم ١٧٧ بتاريخ ١٧ ذي الحجة ٧٩٣هـ/١٥ نوفمبر ١٣٩١م، وهي عبارة عن قائمة بيع منقولات من تركة امرأة تُدعي دولت بنت عبد الله زوجة الحاج عبد الكريم بن عبد الرحمن لمصلحة زوجها وبيت المال، وتمت عملية الحصر بواسطة شاد بيت المال، وفي حضور الشهود من قبل قاضي القضاة الشافعي. وتؤكد الوثيقة رقم ١٧٩ المؤرخة في ٧ ربيع الثاني ٧٩٥هـ/٢٠ فبراير ١٣٩٣م علي ذلك أيضا، وهي عبارة عن قائمة بيع منقولات من تركة سلمي بنت عبد الله، التي ماتت في دار وقف الحرم القدسي الشريف، وتم حصر موجوداتها بواسطة وكيل بيت المال،

وفي حضور ممثل عن نائب السلطنة الشريفة، وحضور القاضي تاج الدين إبراهيم ممثلا لبيت المال، والشهود العدول من قبل قاضي قضاة القدس الشافعي[٣٣].

وتجدر بنا الإشارة إلي أن العبيد السود قد اختصوا في تلك الفترة ببعض الألقاب والأسماء، مثلهم مثل أرباب السيف وأرباب القلم، فمن الألقاب نسمع عن: صفي الدين، وسابق الدين، وشبل الدين، وافتخار الدين، وصواب الدين، وظهير الدين، وشرف الدين، وشبل الدين، أما عن الأسماء فنسمع عن: مثقال، ودينار، وجوهر، ورشيد، وياقوت، وصندل، وعنبر، وكافور، وفيروز، وصبيح، وعبد الله، ومختار[٣٤].

وينبغي أن نشير إلي أن الإنسان لا يكاد يجد عند المسلمين ذلك الحد الفاصل الذي يجعل بين السيد وجواريه وعبيده بونًا عظيمًا وفرقًا جسيمًا، إذ لم يكن الاسترقاق موجبًا لشيء من الهوان والصغار، كما أن الجواري والعبيد ليسوا من الذين سقطوا عن درجة الاعتبار وحلَّ بهم العار، بل وجبت معاملتهم بالرفق، وإن المتأمل في الأحاديث النبوية الشريفة يراها مشوبة بالعطف والحنان، فانظر إلي ما رواه الإمام علي بن أبي طالب ﷺ عن الرسول ﷺ : "اتقوا اللّه فيما ملكت أيمانكم"، وعن أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ : "اتقوا الله في الصلاة وفيما ملكت أيمانكم"[٣٥].

كما تتجلي الرعاية الاجتماعية للجواري والعبيد في أجل صورها فيما جعلته الشريعة الإسلامية للسيد من تمام الحرية في اختيار الزوج المناسب لجواريه، والزوجة المناسبة لعبيده سواء من الرقيق أو من الأحرار "أي بعد عتقهم"، إلا أنها لم تجعل له حقا في التفريق بين الأرقاء بعد تزويجهم، ولم تبح له أن يصرح لعبده أو أمته أن يعيشا معًا بغير زواج. كذلك إذا كانت الشريعة الإسلامية قد أجازت له أن يفترش جواريه غير المتزوجات، فإنها حتمت عليه ألا يفترش ذوي الأرحام منهن، وهو ما عرف بذوي الرحم المحرم مثلهن مثل الأحرار تمامًا، فلا يفترش أختين معًا، أو الأم وابنتها، أو الخالة وابنتها، أو العمة وابنتها، وغيرهن من غير ذوي الرحم المحرم[٣٦].

ومن منطلق المسئولية التي تقع علي السيد نحو جواريه وعبيده، فقد كان سلاطين المماليك وأمراؤهم، وغيرهم من أفراد المجتمع يعمدون إلي اختيار الزوج المناسب لبعض

جواريهم، مثال ذلك ما يذكره أحد المؤرخين المعاصرين: عن سنة ٨٢١هـ/١٤٢٢م من أن السلطان المؤيد شيخ المحمودي قام بتزويج الأمير فخر الدين الأستادار بإحدي أمهات أولاده بعد أن طلقها، وصنع لها مهما "عرسا" عظيمًا إلي الغاية(٣٧). وما يذكره مصدر آخر عن أحد أمراء الطواشية "الخصيان"، ويدعي ظهير الدين مختار المنصوري المعروف بالبلبيسي الخازندار الذي توفي سنة ٧١٦هـ/١٣١٧م "من أنه: فرق جميع أمواله علي عتقائه"، وذلك لأنه لم تكن له ذرية، فاعتبر جواريه وعبيده هم ورثته، فأعتقهم ووزع عليهم معظم ما لديه من أموال(٣٨).

وللحق فإن أول ما يلفت النظر في الرعاية الاجتماعية للجواري والعبيد السود هو مكانه هؤلاء الرقيق لدي سيدهم، وأن هناك علاقة مختلفة تمامًا في دولة سلاطين المماليك عنها لدي أبناء الغرب الأوربي. فالجارية والعبد كان يعتبر كل واحد منهما كفرد من أفراد العائلة التي هو أو هي فيها، فهما أقرب إلي مولاهما من الخدم عند أهل أوربا، ومن الطبيعي أن يتفاوت الرقيق فيما بينهم من مكانة بحسب مكانة أسيادهم(٣٩). ولا شك أن التراث الإسلامي له أثره الواضح في ذلك، حيث جاء في الحديث النبوي الشريف عن ابن عمر ﷺ أن النبي ﷺ قال: "اتقوا الله في الضعيفين المملوك والمرأة". وفي الأثر الكريم: "لقد أوصاني حبيبي جبريل بالرفق بالرقيق حتي ظننت أن الناس لا تستعبد ولا تستخدم"، وقول الإمام الغزالي: كان آخر ما وصي به رسول الله ﷺ أنه قال: "اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم أطعموهم مما تأكلون واكسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون فما أحببتم فامسكوا وما كرهتم فبيعوا ولا تعذبوا خلق الله فإن الله ملككم إياهم ولو شاء لملكهم إياكم"(٤٠).

الرقيق وعائلات الأسياد:

ومن الملاحظ أن الجواري والعبيد السود عاشوا في دور أسيادهم وكأنهم ضمن أفراد عائلة أسيادهم، يشاركون في شتي المناسبات الخاصة بعائلة السيد من أفراح وأحزان وخلافه، ولنضرب علي ذلك مثالين فقط مما رواه المقريزي وهو معاصر في ذلك

لحوادث سنة ٧٤٢هـ/١٣٤٣م، من أنه: عندما قدم الأمير "ملكتمر الحجازي من سجنه في الإسكندرية، فإن خوند الحجازية تلقته بجواريها وخدامها، ومغانيها تضرب بالدفوف والشبابات فرحات، بينما أختها وهي جارتها زوجة الأمير قوصون كانت في عويل وبكاء وصياح هي وجواريها وخدامها لأن زوجها قبض عليه وأرسل ليسجن في الإسكندرية"[٤١]. وأنه عندما تم القبض علي بعض الأمراء الذين شاركوا في قتل السلطان الأشرف خليل بن قلاوون، ومروا بهم علي أبواب دورهم، فلما جازوا علي دار علاء الدين ألطنبغا خرجت جواريه حاسرات يلطمن، وبعض أولاده وغلمانه قد شقوا الثياب وعظم صياحهم، وكانت زوجته بأعلي الدار، فألقت نفسها لتقع عليه فأمسكتها جواريها. هذا وجواري وغلمان الملك الأشرف خليل قد لبسوا الحداد وتذرعوا بالسخام، وطافوا في الشوارع بالنواحات يقيمون المأتم، فلم يُرَ بمصر أشنع من تلك الأيام[٤٢].

وداخل عائلة السيد فإن الجواري قد طُبق عليهن من قواعد العزلة والحجاب ما يطبق بالضبط علي باقي النساء من الأحرار اللاتي في الحريم، والفئة الوحيدة التي أبيح لها غشيان الحريم هي فئة العبيد الطواشية أو الخصيان بحكم ما لهم من وضع اجتماعي[٤٣]. وكثيراً ما تطالعنا المصادر المعاصرة من أن أحد السلاطين أو كبار الأمراء والتجار والعلماء قد تزوج إحدي جواريه، فترتفع بذلك مكانتها وتصبح الزوجة الأثيرة في الدار وذات الجاه والمكانة الكبري[٤٤]. كما تحدثنا الوثيقة رقم ٦١٣ المؤرخة في ١٩ ذي القعدة سنة ٧٩٦هـ أن: أحد تجار بيت المقدس ويُدعي "الصدر الأجل شرف الدين محمد بن شهاب الدين أحمد بن محمد الخوارزمي التاجر بالقدس الشريف في مرض جسمه.. أنه أسند وصيته إلي زوجته المرأة الكامل سراً ملك عتاقته المدعوة يوميذ وبيده عشر أولاد منها... تتصرف لهم في ماله المخلف لهم التصرف الشرعي.." أو بعبارة أخري أنه لم يجد وصياً أفضل من أم أولاده وهي عتيقته ليجعلها وصيه علي أولاده وأمواله[٤٥].

ومن أوجه الرعاية الاجتماعية أن الشرع الإسلامي قد حتم علي السيد الذي يتزوج من جاريته زواجاً شرعياً، أن يعاملها معاملة النساء الأحرار من حيث تخصيص

صداق لها، بل نسمع في المصادر المعاصرة للعصر المملوكي عن بعض المغالاة في صداق بعض العتيقات من الجواري، فقد ذكر المقريزي في حديثه عن الملك المنصور أبي بكر بن الناصر محمد بن قلاوون أنه: في سنة ٧٤٢هـ/١٣٤٢م تزوج من جاريتين من جواريه اللاتي بالقصر السلطاني بالقلعة، وخصص لكل واحدة منهما صداقًا قدره مائة ألف دينار، غير ما غرمه علي الاحتفال الذي أقيم بهذه المناسبة من أموال طائلة[٤٦]. بل إن والده السلطان الناصر محمد بن قلاوون أمر أن تجهز جواريه كل واحدة منهن بنحو ذلك المبلغ عندما يتم لها الزواج، وواضح من تصرفه هذا أن دافعه إلي هذا السلوك هو إحساسه بالمسئولية نحو جواريه كأفراد من أسرته يجب عليه أن يتكفل بهن مثلما يتكفل ببناته وكما سبقت الإشارة بذلك.

أما بين عامة الناس في القدس فلم يكن صداق الجواري كبيراً إلي هذا الحد، فقد جاء في الوثيقة رقم ٦٤٦ بتاريخ ١٢ صفر سنة ٧٩١هـ/١٠ نوفمبر سنة ١٣٨٩م، وهي من مجموعة وثائق الحرم القدسي الشريف، أن إبراهيم بن علي بن إبراهيم الدمشقي اللبان المقيم بالقدس، بمنح مخطوبته زمرد بنت عبد الله عتاقة الست ستيتة صداقا قدرة ثلاثة دنانير ذهبية، أي حوالي ٧٢ درهما فضة، ثم طلقها بعد فترة وجيزة، وتزوجت من شخص آخر يُدعي صبيح الذي منحها صداقًا قدره خمسة دنانير ذهبية مصرية، أي حوالي ١٢٠ درهما فضية، وعلي ظهر الوثيقة إشهاد مدون من اثني عشر سطراً، وتوقيع ثلاثة من الشهود، وعلامة قاضي القضاة الشافعي علي الهامش الأيمن للوثيقة بتاريخ ٢٣ جمادي الثاني من السنة التي تلت ذلك التاريخ[٤٧].

توفير مورد رزق ثابت لهم:

كانت عملية توفير مصدر ثابت للرزق أو مورد مضمون للإنفاق علي العتقاء من الجواري والعبيد السود ظاهرة واضحة في عصر سلاطين المماليك، فبعد أن يقوم السيد بتحرير جواريه وعبيده فإنه يحبس عليهم وقفًا من الأوقاف يضمن لهم الاستفادة

من ريعه في النفقة علي ما يحتاجون، وهو بهذا يؤمن مستقبل حياتهم في مواجهة الطوارئ المختلفة، وقد سبق لنا أن أشرنا إلي كيفية تأمين السكني لهم. ولدينا بعض المصادر التي تشير إلي حرص السلطان الملك الناصر حسن بن قلاوون الذي توفي عام ٧٦٢هـ/١٣٦٠م علي توفير مورد ثابت للرزق لعتقائه في حياته وعقب وفاته، فقد جاء في حجة الوقف رقم ٤١، محفظة رقم ٦ والمحفوظة بدار الوثائق القومية. بالقاهرة علي مدرسته وكتابه وسبيله في القدس، وقبتين: أن علي الناظر علي أوقافه وهي عدة قري وأراضي في الشام والقدس، أن "يرتب أربعة من الخدام من عتقاء مولانا السلطان الملك الناصر الواقف المسمي أعلاه خلد الله ملكه يقيمون في القبتين المذكورتين ويجلسون علي باب المدرسة المذكورة يفعلون ما جرت عادة أمثالهم بفعله من الحفظ والصيانة ويصرف إليهم في كل شهر أربع ماية درهم بينهم بالسوية، فإن تعذر ترتيب الخدم من عتقاء مولانا خلد الله ملكه رتب الناظر أربعة نظيرهم من الخدم من عتقاء الموالي السادة أولاد مولانا السلطان أدام الله ظلهم ثم من عتقاء أولاد أولاده وذريته ونسله وعقبه فإن تعذر اشتري الناظر المذكور من ريع الوقف ونجز عتقهم ورتبهم في المكان المذكور بالمعلوم المذكور"[٤٨].

بل هناك كثير من الإشارات إلي تعيين هؤلاء العتقاء في وظائف في أوقاف مواليهم وبمرتبات تفوق نظرائهم من الأحرار الذين يتولون مثل تلك الوظائف[٤٩]. ومما يؤكد ذلك، أي ارتفاع مرتبات العتقاء عن أمثالهم ما سبق أن أشرنا إليه، وكذلك ما جاء في وثيقة وقف السلطان الأشرف قايتباي المتوفي سنة ٩٠١هـ/١٤٩٦م بأن: "يصرف لرجل منجر... ما مبلغه من الفلوس الموصوفة أعلاه ثلاث مائة درهم نصفها مائة درهم وخمسون درهمًا أو ما يقوم مقام ذلك من النقود عند الصرف. هذا إذا كانت هذه الوظيفة جارية في استحقاق من هو مقرر فيها الآن وهو جوهر الأشرفي عتيق مولانا المقام الشريف المنوه باسمه أعلاه، فإن كانت هذه الوظيفة لغيره صرف له من الجامكية عن سدها نصف الفلوس المذكورة في كل شهر وهو مائة درهم وخمسون درهما..." [٥٠].

كذلك جاء في وثيقة وقف السلطان المؤيد شيخ المحمودي ما يؤكد الحرص علي تعيين هؤلاء العتقاء مهما كان ريع الأوقاف قليلاً، فإن صاحب الوقف كان لا يحرم عتقاءه من الاستفادة بهذا الريع، فقد جاء فيها النص علي أن: "يرتب بالقبتين اللتين من حقوق الجامع المذكور خادمين طواشية عاقلين أدوبين يكونان مقيمين بالقبتين يتوليا ما عادة مثلهما يتولان من الخدمة علي العادة في ذلك ويصرف لكل منهما في كل شهر من الشهور المذكورة ما مبلغه من الفضة الأنصاف المذكورة أربعون نصفًا نصف ذلك عشرون نصفًا وفي كل يوم من أيام الأسبوع أربعة أرطال من الخبز القرصة"(٥١).

وفي حالة ما إذا كانت الأوقاف ضخمة وريعها كبير فيزيد عدد العتقاء حتي وإن اختلفت مرتباتهم، مثال ذلك ما جاء في وثيقة وقف السلطان الناصر حسن بن قلاوون علي أوقافه بمصر، حيث تم النص فيها علي: أن "يرتب عشرة من الخدم الأزمة الثقات الأمنا يقيمون بالقبة المذكورة لحفظها وصيانتها عمن يتطرق إليها من أهل التهم والفساد علي جاري عادة أمثالهم في مثل ذلك ويصرف إليهم في كل شهر ألف وخمسمائة درهم نقرة فيصرف لخمسة منهم ألف درهم واحدة بالسوية ويصرف إلي الخمسة الباقين خمس مائة درهم نقرة بينهم بالسوية وشرط مولانا السلطان الواقف المسمي فيه خلد الله ملكه أن يكون الخدام المذكورة من عتقائه فإن تعذر فمن عتقاء أولاده" ولا ندري السبب في أن يَحصل كل واحد من الخمسة الأوائل علي مائتي درهم، بينما يحصل كل واحد من الخمسة الأخيرين علي مائة درهم فقط، فهل رجع ذلك إلي تمييز بعضهم علي بعض، مع أنهم كانوا يؤدون عملاً واحداً، وهو الإقامة بالقبة لحفظها وصيانتها، أم بسبب فارق في السن أم الأقدمية لدي مولاهم؟(٥٢).

ولم يكن هذا السلوك قاصراً علي سلاطين المماليك وحدهم، بل شاركهم فيه كبار الأمراء في ذلك العصر في كل أنحاء السلطنة، وليس من نافلة القول أن نذكر منهم الأمير سيف الدين تنكز أحد أمراء السلطان الناصر محمد بن قلاوون والذي تولي نيابة السلطنة في دمشق حتي قُتل عام ٧٤١هـ/١٣٤٠م بسبب ريبة السلطان فيه. فقد جاء في السجل رقم ٩٢ من سجلات المحكمة الشرعية في القدس نص وقفية هذا

الأمير علي عدد من المنشآت، هي: مدرسة، ودار حديث، ورباط للصوفية، ومسجد، ورباط للنساء الصوفيات، وطهارة "ميضأة"، وحمَّامين. حيث جاء فيها: "ومن اختار من عتقاء الواقف المذكور أحسن الله تعالي إليه أن يكون من جملة الصوفية المتقدم ذكرهم بالمعلوم والجراية وساير ما ذكر لكل واحد من الصوفية المذكورين فيكون في ذلك مقدما علي غيره من المرتبين بالإجازة ولا يشترط عليه أن يكون من أهل التصوف ... ومن اختار من عتيقات الواقف المسمي أدام اللّه تعالي نعمته أن تكون في رباط النساء المذكور فيرتبها الناظر في جملتهن بالمعلوم والجراية وتكون مقدمة علي غيرها من الأجانب – أي ممن ليس لهن صلة بالأمير – المرتبات فيه"(٥٣). بما يفيد في أن هذا الواقف قد أتاح لعتقائه من الجواري والعبيد فرصة لضمان الحصول علي مسكن دائم، ومأكل متواصل، وكسوة دائمة إلي جانب التوسعة عليهم في المواسم الدينية والأعياد، إلي جانب الرواتب النقدية الشهرية، كما أنه جعل لهم الأولوية في الانضمام للنازلين في الرباطين الخاصين به وأعفاهم جميعًا من أهم شرط للنزول في مثل هذه المنشآت وهو أن يكونوا من أهل التصوف. وفي موضع آخر من الوثيقة قرر لكل واحد من العتقاء في كل شهر من الشهور عشرة دراهم فضة وسدس رطل من زيت الزيتون، وسدس رطل صابون، ونصف رطل من الخبز يوميًا. أما بالنسبة للنساء في رباطهن فقد تم صرف عشرة دراهم فضة لكل واحدة منهن شهريًا، ونصف رطل من الخبز يوميًا، بل والأهم من هذا أنه كان مسموحًا لهؤلاء العتقاء والعتيقات باستضافة من يرد عليهم لمدة عشرة أيام، وأن يتمتع الضيوف بما يتمتع به النزلاء، بشرط ألا يزيد عدد الضيوف علي عدد النزلاء(٥٤).

ومن وسائل توفير فرص العمل بالنسبة للعبيد السود بوجه خاص كان تشكيل فرقة قوية في الجيش المملوكي، والذين أطلق عليهم اسم "البارودية" أو "النفطية" أو الفئة الخامسة في الجيش، والذين جاء ترتيبهم: بعد المماليك السلطانية، ومماليك الأمراء، وأجناد الحلقة، وأولاد الناس، وتم تدريبهم علي استخدام المكاحل "المدافع" والقاذفات وتحصين الحصون والقلاع، وكذلك في بيوت كبار الأمراء وتحصينها بتلك الأسلحة، كذلك تم استخدام هذه الفرقة في الحراريق وهي السفن الحربية التي

استخدمت لحمل الأسلحة النارية، ومنها ما استخدم أثناء الاستعراضات التي كانت تقام في الاحتفالات العامة، وكان يصرف لكل واحد خمسمائة درهم شهريًا علي العكس من المماليك الذين كان لكل منهم إقطاعه الذي يتناسب مع مرتبته في الجندية أو الإمارة(٥٥).

كما قام عدد كبير جدًا من الجواري والعبيد السود بخدمة حريم السلطان وكبار الأمراء، وحصلوا علي مبالغ كبيرة نظير قيامهم بالخدمة في القصور السلطانية والبيوت السلطانية المختلفة حتي بعد تحريرهم، علي شكل مرتبات شهرية أو طعام أو كسوة، بالإضافة للإنعامات التي كانت توزع عليهم في المناسبات المختلفة(٥٦).

واستمر حرص السادة أو الموالي بجواريهم وعبيدهم إلي السنوات الأولي من الحكم العثماني لمصر والشام، ففي وثيقة تخص سليمان باشا، نجده يقف ستة من عبيده للعمل في خدمة المسجد الذي شيده فوق قبر سارية الجبل بالقاهرة، وحدد الواقف لهؤلاء العبيد أعمالاً معينة تتمثل في التنظيف، كما خصص لهم أجورًا من ريع الوقف، هذه الأجور كانت أعلي بكثير جدًا من أجور من يتولون مثل هذه الوظائف من الأحرار. كما سمح الواقف أن يتولي ابن العبد وظيفة أبيه في حالة وفاته، كذلك نراه يحدد لمن يتكاسل منهم أو يهرب عقابًا(٥٧). كما نسمع عن صرف إعانات للعتقاء من رجال ونساء، فقد جاء النص في وثيقة السلطان المؤيد شيخ من: أن ما يتبقي من ريع أوقافه بعد تكفية المصارف التي عينها الواقف يتم صرفه: "علي من يوجد من ذرية السلطان إلي حين انقراضهم فيتم صرفه لمن يوجد من عتقاء مولانا السلطان الواقف المشار إليه من الذكور والإناث بالسوية بينهم ثم من بعدهم لأولادهم وأولاد أولادهم وذريتهم ونسلهم.." (٥٨). ومن الإعانات التي صرفت للفقراء من عتقاء السلطان ما جاء في وثيقة وقف السلطان حسن بن محمد بن قلاوون من نص بصرف: "مبلغ ثلاثة آلاف درهم للفقراء من عتقاء السلطان خلد الله ملكه من الخدام والنساء." (٥٩).

أما فيما يخص عامة الناس من أهل القدس، فهناك الكثير من أوقاف الذرية، التي تحتوي علي عدة شروط مختلفة، فنجد أن بعض الواقفين يشترط أن: يكون الإنفاق علي

نفسه أولا، ثم علي أولاده وذريته، كما نري أن بعضهم يخص الذكور دون الإناث، وبعضهم يخصص ريع أوقافه لنفسه ومن بعده علي جهات أخري خاصة الحرمين الشريفين في الحجاز، أو الحرمين الشريفين في القدس والخليل، أو علي بعض المساجد وبيوت الصوفية، أو علي بعض الأنبياء والأضرحة، ومع هذا هناك بعض الأوقاف علي عتقاء الواقف. مثلما جاء في الوثيقة رقم ٤١ من أوقاف القدس، وفيها: يحبس أحد أبناء القدس قطعتي أرض علي "عتيقه المدعو ناصر وعلي ولديه محمد وعلي ثم من بعدهما علي أولادهما". وما جاء في الوثيقة رقم ٥٥ من أوقاف القدس وفيها جاء النص علي: أنه أوقف الناصري محمد بن محمد المشهور بابن أبي والي ١٣ قيراطًا من قرية كفر نعمة التابعة للقدس علي نفسه، ولكل واحد من العتقاء الواقف في كل سنة ستين درهما، وتاريخ الوقفية سنة ٨٩٠هـ(٦٠).

رعاية الجوارى والعبيد صحياً:

وتأتي رعاية الجواري والعبيد السود في مقدمة الرعاية الاجتماعية التي وفرّها سلاطين المماليك وكبار أمرائهم وغيرهم من ذوي اليسار في ذلك العصر، فقد حرص كثير من الواقفين منهم بوجه خاص بتوفير الرعاية لهؤلاء الرقيق مثلهم مثل بقية المجتمع في العصر المملوكي، فالمعروف أن السلطان المنصور سيف الدين قلاوون "ت ٦٨٩هـ/١٣٩٠م" كان أحد الحكّام الذين اهتموا بتوفير تلك الرعاية لمختلف طبقات الشعب، حيث أشار في وثيقة وقفه علي البيمارستان المنصوري بخط باب القصرين أي شارع المعز لدين اللّه حاليًا إلي تعدد المنتفعين فيقول: "ويصرف ما هو معد فيه للمداواة، ويفرق للبعيد والقريب، والأهلي والغريب، والقوي والضعيف، والدني والشريف، والعلي والحقير، والغني والفقير، والمأمور والأمير، والأعمي والبصير، والمفضول والفاضل، والمشهور والخامل، والرفيع والوضيع، والمترف والصعلوك، والملك والمملوك، من غير اشتراط لعرض من الأعراض، ولا تعريض بإنكار علي ذلك، ولا اعتراض، بل لمحض فضل اللّه العظيم". وربما يقول قائل إن هذا النص ليس فيه ما يفيد استفادة

الرقيق من خدمات هذا البيمارستان ولهذا نريد أن نورد نصًا آخر جاء عند أحد المؤرخين المعاصرين قال فيه: "فأما البيمارستان فإن السلطان المنصور لمأ أوقفة ورتب أموره استدعي قدحا من الشراب – من المؤكد أنه شراب السكر والليمون الذي يعمل في هذه المناسبات – وشربه وقال: هذا علي مثلي فمن دوني أوقفته علي الملك والمملوك والجندي والأمير والوزير والكبير والصغير والحر والعبد الذكر والأنثي وجعل لكل من يخرج منه عن المرض عندما يبري ويصرف كسوة ومن مات كفن ودفن(٦١).

وينبغي أن نذكر أن الرعاية الصحية التي قدمها البيمارستان المنصوري لم تكن قاصرة علي المترددين علي هذا البيمارستان، بل شملت أيضًا المرضي الفقراء في بيوتهم، حيث جاء في نص الوثيقة أنه: "من كان مريضًا في بيته وهو فقير، كان للناظر أن يصرف إليه ما يحتاج إليه من حاصل هذا البيمارستان من الأشربة والأدوية والمعاجين وغيرها". وكذلك كان الحال للبيمارستان المؤيدي الذي أنشأه السلطان المؤيد شيخ بخط الرميلة تحت القلعة، وغيره من بيمارستانات القدس والخليل ونابلس وغزة وغيرها(٦٢).

كما نال هؤلاء الجواري والعبيد قسطا من الرعاية الصحية في دور أسيادهم أو مواليهم، أو من خلال المؤسسات الدينية المختلفة والتي عاش بعضهم فيها، حيث حرص كثير من الواقفين في ذلك العصر علي تقديم الرعاية والخدمات الصحية في منشآتهم الدينية والتعليمية، من ربط وزوايا وخانقاوات ومدارس(٦٣).

الرعاية الثقافية:

تأتي الرعاية الثقافية للجواري والعبيد السود كأحد أوجه الرعاية الاجتماعية في عصر سلاطين المماليك، وواضح أن المعاصرين كانوا علي درجة كبيرة من الحرص علي العمل بقول رسول الله ﷺ : "ومن كانت له جارية فعلمها وأحسن إليها وتزوجها كان له أجران في الحياة الأخري، أجر بالنكاح والتعليم وأجر بالعتق"(٦٤). ولهذا لا

نستبعد مطلقًا أن تكون الجواري قد حظين بقسط من التعليم علي أيدي كثير من الفقهاء الذين توافدوا علي قصور السلاطين والأمراء وعلية القوم لتعليم جواريهم وعبيدهم وأولادهم وبناتهم. أو ربما نالت الواحدة منهن قدرًا مناسبًا من التعليم علي يد زوجها إذا كان من كبار العلماء. وهناك إشارة لدي ابن الفرات يستفاد منها حرص هؤلاء العلماء علي نيل الأجرين أجر التعليم وأجر العتق والزواج من العتيقة، حيث قال في حديثه عن القاضي والفقيه ورئيس ديوان الإنشاء ابن عبد الظاهر الذي توفي عام ٦٩٢هـ والذي جاء فيه: "وفي يوم الأحد ثامن عشر رمضان سنة إحدي وثمانين وستمائة أشهدنا مولانا فتح الدين بن المولي محيي الدين بن عبد الظاهر علي نفسه بعتق جاريته. أم ولديه علاء الدين ورُقَية، وعقد عقدها علي ماية دينار عينا حالة وكتب الكتاب في تاريخه" أي في التاريخ السابق ذكره[٦٥]. والحقيقة أن المصادر التي بين أيدينا لم تهتم بذكر مثل هذه الحالات في القدس. أما بالنسبة للعبيد السود فلدينا بعض الأمثلة التي تؤكد علي أن بعضهم كان محبًا للعلم والعلماء والفقهاء يحضر مجالسهم. كذلك نسمع أن بعضًا منهم قد اعتني به سيده وعلمّه منذ الصغر القرآن، ورتبّه في وظائف الفقهاء وتزيا بزيهم، وبعضهم كان علي دراية بقراءة القرآن الكريم، وبالقراءات السبع أو القراءات العشر. بل منهم من وصل إلي درجة المحدث. بل لعلنا لا نغالي إذا قلنا أن بعضهم قد تم تعليمه في قصور بعض السلاطين وبعض الأمراء علي المشايخ الذين يحضرون لتعليم أولادهم[٦٦]. ولم لا ونحن نري الارتباط الشديد بين هؤلاء العبيد وبين سادتهم، لدرجة أن السيد كان يعتبر عبيده ضمن أفراد أسرته، وهم يشكلون عزوة يستند إليها في مواجهة خصومه حتي ولو كان لديه مماليك يدافعون عنه[٦٧].

كما يجب علينا أن نذكر أن الجواري بوجه خاص قد استأثرن بالخطوة وذلك لبراعة الكثيرات منهن في العزف علي الآلات الموسيقية المختلفة، أم الضرب بالدفوف، ومنهن من برعت في فن الطرب والغناء، بل ويروي بعض الباحثين أنه نتيجة لكثرة أعداد الجواري، وما ترتب علي ذلك من آثار اجتماعية وأدبية أن أثمر ذلك العصر فنًا

جديداً لم تعرفه الثقافة العربية والإسلامية من قبل وهو فن النقد الاجتماعي والدعوة إلي الإصلاح الديني والاقتصادي وأن من حق المكتبة العربية الإسلامية أن تفخر بثلاثة كتب قيمّة وفريدة في موضوعاتها، وهي: كتاب المدخل إلي الشرع الشريف علي المذاهب، لمؤلفه أبو عبد اللّه محمد بن محمد العبودري المتوفي سنة ٨٠٢هـ، والمعروف بابن الحاج، والكتاب الثاني هو إغاثة الأمة بكشف الغمة للمقريزي مؤرخ العصر العظيم، والكتاب الثالث هو معيد النعم ومبيد النقم لتاج الدين السبكي المتوفي سنة ٧٧١هـ(٦٨). ويحسن بنا أن نشير إلي أن أبناء أهل الذمه لم يقلوا في اهتمامهم بالجواري والعبيد السود عن المسلمين في العصر المملوكي، وأن الشغف باقتناء هؤلاء الجواري والعبيد السود كان سمة العصر لدي جميع أبناء الطوائف الدينية، ودليلنا علي هذا ما جاء في إحدي وثائق الجنيزة من: أن إمرأة يهودية تُوصي زوجها وهي علي فراش الموت بجاريتها فتقول له: إن جاريتي قد قامت برعايتي في مرضي هذا ومرضي السابق كما لو كانت أكثر من أمي أو أختي. والآن أرجوك ألا تبيعها أو أن يشتريها منك أحد، وألا تهان بأي شكل من الأشكال(٦٩).

وفي نهاية حديثنا عن الجواري والعبيد السود في ذلك العصر، يجب أن نذكر إلي أنه: من الطبيعي أن يتطلب قدوم أعداد كبيرة منهم عددا من الأسواق الخاصة بهم، وهي التي عرفت بأسواق الرقيق وأشهرها أسواق: أسوان، وأسيوط، والقاهرة، والفسطاط وغيرها من مدن السلطنة(٧٠). أما عن أعمار هؤلاء فإن وثائق الجنيزة تشير إلي ولع الناس بشرائهم في سن صغيرة، وتعليمهم إتقان كل ما سوف يوكل إليهم تنفيذه من أعمال، فضلاً عن تعليمهم كل ما يتعلق بالشئون المنزلية وبما يتلاءم بطباع أهل المنزل، وغرس التعاليم الدينية الخاصة بديانة أسيادهم. كما نسمع أن كثيراً من السلاطين والأمراء قد أقبلوا علي شراء الجواري والعبيد السود من المولودين، أي الذين تمت تنشئتهم محليًا في أعمار متوسطة، أي في ريعان الشباب بعد أن يكونوا قد تحلوا بالمحبب من الخصال(٧١). هذا إلي جانب حصول الكثيرين من سلاطين المماليك وأمرائهم علي أعداد كبيرة من هؤلاء الرقيق كهدايا من حكّام الدول المجاورة(٧٢).

أما عن أسعار هؤلاء الجواري والعبيد، فقد كانت هناك عدة عوامل تحكمت في تلك الأسعار، مثل: حالة العرض والطلب صعوداً وهبوطاً، ونوع الجارية والغرض الذي سوف تستخدم فيه، وسن كل واحدة منهن، وأثره في سعرها، ومدي ما تتمتع به من جمال في الصوت والأداء، أو تناسق في الجسم، ومغالاة بعض السلاطين وكبار الأمراء في الشراء. وعن أكبر سعر وصل إلينا هو ٩٠٠٠٠ درهمًا، يليه ٢٤٠٠٠ درهمًا، ثم ٨٠٠٠ درهمًا، يليه ٤٠٠٠ درهمًا، و ١٩٠٠ درهمًا، ٩٦٠ درهمًا، و ٧٢٠ درهمًا، و ٦٨٤ درهمًا، وأن الجواري المولدات بلغ سعر الواحدة منهن ٢٨٨ درهمًا، بينما نسمع عن سعر بعضهن قرب نهاية العصر المملوكي ما بين ٦٠٠ و ٥٠٠ درهمًا. أما العبيد السود فإن أسعارهم في بداية العصر المملوكي تراوحت مابين ٤٠٠ و ١٥٠ درهمًا، ووصلت قرب أواخر ذلك العصر إلي ٦٠٠ درهمًا(٧٣). يضاف إلي كل هذا أحوال السلطنة المملوكية الاقتصادية، وما ينجم عنها أو يكون سببا فيها من أوبئة، ومجاعات، وطواعين، وعدم استقرار حالة الأمن، وما يتبعها من ثورات وقلاقل وحروب(٧٤).

الفصل الأول

(١) المقريزي: كتاب السلوك، ج٢ قسم ٣، ص٦٤٢-٦٥٦ .

(٢) ابن الصيرفي "الخطيب الجوهري": نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، القاهرة، ١٩٧٠م، ج١، ص٧٧ .

(٣) ابن أيبك الدواداري "أبو بكر بن عبد الله ت ٧٠٩هـ": الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، القاهرة، ١٩٦٠م، ص٢١١؛ ابن الوردي "زين الدين عمر": تاريخ ابن الوردي، النجف، ١٩٦٩م، ج٢، ص٥٣٥؛ المقريزي: المصدر السابق، ج٢، قسم٢، ص٥٤٩؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢١١ .

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٩، ص١٦٦ .

(٥) أحمد خيرت: مركز المرأة في الإسلام، القاهرة، ١٩٧٢م، ص١٩-٢٠ .

(٦) التوراة، سفر الخروج.

(٧) د. محمد عبد العزيز مرزوق: الناصر محمد بن قلاوون، من سلسلة أعلام العرب، رقم ٢٨، القاهرة، بدون تاريخ طبع، ص٦٩ .

(٨) المرجع السابق، نفسه، ص٧١ .

(٩) من سورة النور، الآية رقم ٣٣ .

(١٠) د. حسن إبراهيم حسن: النظم الإسلامية، القاهرة، ١٩٣٩م، ص٣٦٥؛ علي السيد علي: الجواري في مجتمع القاهرة المملوكية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨م، ص٦٧-٦٨ .

(١١) ابن رشد "الحفيد": بداية المجتهد ونهاية المقتصد، القاهرة، ١٩٧٠م، ج٢، ص٢٢٥-٢٢٦ .

(١٢) النويري "شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب": نهاية الأرب في فنون الأدب، القاهرة، ١٩٧٦م، ج٩، ص١٣٥؛ جبور عبد النورة: الجواري، القاهرة، ١٩٥٦م، ص١٦٦ .

(١٣) جبور عبد النور: الجواري، ص١١٣-١١٤ .

(١٤) النويري: نفسه، ج٩، ص١٢٣ .

(١٥) الإمام الشافعي: كتاب الأم، طبع بولاق، ١٣٢١هـ، ج٤، ص١٨٧؛ جبور عبد النور: المرجع نفسه، ص١١٧-١١٨ .

(١٦) النويري: نهاية الأرب، ج٩، ص١١٣ .

(١٧) شمس الدين السرخسي: كتاب المبسوط على مذهب أبي حنيفة النعمان، مصر، ١٣٢٤هـ، ج٥، ص١٠٨-١٣٢ .

(١٨) ابن رشد: بداية المجتهد، ج٢، ص٣١١-٣١٤ .

(١٩) د. حسن إبراهيم حسن: النظم الإسلامية، ٣٦٤-٣٦٥ .

(٢٠) الدر الفاخر، ص٤٠٠؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، قسم١، ص٣٧١؛ علي السيد علي: الجواري، ص٢٦ .

(٢١) النجوم الزاهرة، ج٩، ص١٧٥، ١٧٦ .

(٢٢) المصدر السابق، والصفحات ذاتها.

(٢٣) الدر الفاخر، ص٢٣٧؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج٩، ص١٤٥ .

(٢٤) محمد ابشرلي: أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين، ص٤٢ .

(٢٥) Little : Acatalogue, Beirut, 1982, p. 122 .

(٢٦) Ibid : P. 122 .

(٢٧) Ibid : P. 90 .

(٢٨) Ibid : pp. 220-233 .

(٢٩) I bid, PP.337 - 396 .

(٣٠) علي السيد علي: "العبيد السود في مجتمع القاهرة" كتاب الرفض والاحتجاج، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ٢٠٠٤، ص٤٢ .

(٣١) أحمد شفيق بك – الرق في الإسلام، القاهرة بدون تاريخ، ص٤٢ .

(٣٢) المرجع السابق .

(٣٣) ابن الصيرفي، نفسه، جـ٢، ص٤٩ .

(٣٤) علر السيد علي: العبيد السود....، صـ ٤١-٤٣

(٣٥) ابن إياس: بدائع الزهور، جـ١، قسم ١، ص٣١١ .

(٣٦) محمد بن أحمد أبو حامد (ت ٥٠٥هـ/١١١٠م): إحياء علوم الدين، مصر، ١٣٤٨هـ، ج٢، ص١٩٩ .

(٣٧) أحمد شفيق بك: الرق في الإسلام، القاهرة (د ت)، ص٦٧-٧٣ .

(٣٨) المرجع السابق: نفسه، ص٨٣-٨٥ .

(٣٩) ابن الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان، ج٢، ص٤٩ .

(٤٠) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٩، ص ٢٣١ .

(٤١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، قسم ١، ص٣١١ .

(٤٢) محمد بن أحمد أبو حامد (ت ٥٠٥هـ/١١١٠م): إحياء علوم الدين، مصر، ١٣٤٨هـ، ج٢، ص١٩٩ .

(٤٣) السلوك، ج٢، قسم ٣، ص٥٩٥ .

(٤٤) المقريزي: نفسه، ج١، قسم٢، ص٧٩٦ .

(٤٥) د. سعيد عاشور: المجتمع المصري، ص١٣٤ .

(٤٦) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٤٢٥-٤٢٦ .

(٤٧) العسلي: وثائق مقدسية، ج١، ١٤٢ .

(٤٨) السلوك، ج٢، قسم٢، ص٥٦٦ .

(٤٩) انظر وثيقة السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون، محفظة ٦، حجة رقم ٨٨٠، ٤١ المحفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة.

(٥٠) محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية، ص٢٩٢ .

(٥١) المرجع السابق: نفسه، ص٢٨٧ .

(٥٢) انظر: وثيقة وقف السلطان المؤيد شيخ المحمودي، نسخة مصورة، محفوظة بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، تحت رقم Dl-96-M2156x-1909spec-colle

(٥٣) محمد محمد أمين: المرجع نفسه، ص٢٩٢ .

(٥٤) العسلي: وثائق مقدسية، ج١، ص١١٧-١٢٠ .

(٥٥) المرجع السابق، نفسه، ج١، ص١١٨-١٢٠ .

(٥٦) المقريزي: السلوك، ج١، قسم١، ص٣٠٦؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج٥، ص١٤؛ ابن طولون الصالحي: مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، القاهرة، ١٩٦٢م، ج١، ص٢٦٠-٢٦٣؛ د. السيد الباز العريني: المماليك، بيروت (د.ت)، ص٥٣-٥٤؛ محمود نديم أحمد فهيم: الفن الحربي للجيش المصري في العصر المملوكي البحري، القاهرة، ١٩٨٣م، ص١٧٨-١٨٠ .

(٥٧) علي السيد علي: الجواري في مجتمع القاهرة، ص٢٨ وما بها من مصادر.

(٥٨) محمد محمد أمين: نفسه، ص١٠١-١٠٢ .

(٥٩) المرجع السابق: نفسه، ص١٠٣-١٠٥ .

(٦٠) الحسن بن حبيب: تَذكِرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، القاهرة، ١٩٨٦م، ج٣، ص٤٤١ .

(٦١) محمد ابشرلي: أوقاف وأملاك المسلمين، ص ف من المقدمة، وص ١٤، ٤٢ .

(٦٢) ابن الفرات: نفسه، ج٨، ص٩؛ شافع بن علي: الفضل المأثور في سيرة الملك المنصور، وارسو، سنة، ٢٠٠٠م، ص٤٠٧ .

(٦٣) محمد محمد أمين: نفسه، ص١٦٩، ١٧٢ .

(٦٤) المرجع السابق، نفسه، ص, ١٧٣

(٦٥) نقلا عن أحمد شفيق: نفسه، ص٧٣-٧٦ وما بها من مصادر.

(٦٦) ابن الفرات: نفسه، ج٧، ص٢٤٩-٢٥٠ .

(٦٧) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٢، ص٢١ .

(٦٨) ابن طولون الصالحي: مفاكهة الخلان، ج١، ص٢١٠-٢٦٣؛ ج٢، ص٢١ .

(٦٩) د. حبشي سيد نصر: المجتمع المصري في الشعر المملوكي، رسالة دكتوراة بجامعة الأزهر الشريف، لم تنشر بعد، ص٨٣-٩٠ . ولمزيد من المعلومات عن أثر الجواري في الحياة الأدبية راجع: علي السيد علي: الجواري في مجتمع القاهرة، ص٤٨-٦١ .

(٧٠) Goitien: A Med. Society, New yoek, 1974,Vol.I,P.144.

(٧١) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج١، ص٣٥٦؛ السيوطي "جلال الدين عبد الرحمن": حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، القاهرة، ١٣٢٧هـ، ج١، ص١٣٤.

(٧٢) علي السيد علي: الجواري، ص١٧؛ I bid: Op. Cit, Vol.I.,PP.135-136.

(٧٣) ابن الوردي: نفسه، ج٢، ص٣٦٢؛ ابن حبيب: نفسه، ج١، ص٥٤٩-٥٦٣؛ المقريزي: السلوك، ج٢، قسم٢، ص٣١٧؛ المواعظ والاعتبار، ج١، ص٣٦٣-٤٠٨؛ الخطيب الجوهري: نفسه، ص٣١٦ .

(٧٤) علي السيد علي: الجواري في مجتمع القاهرة، ص٢٤-٢٨؛ العسلي: وثائق مقدسية، ج١، ص٢٥٢ .

المؤلف فى سطور:

أ.د. على السيد على محمود

- الاسم: أ.د. على السيد على محمود

- الوظيفة: أستاذ غير متفرغ تاريخ العصور الوسطى - كلية الآداب - جامعة الفيوم.

المؤهلات العلمية الحاصل عليها:

١ - دبلوم معهد المعلمين، عام ١٩٥٨ .

٢ - ماجستير فى الآداب من جامعة القاهرة بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف، وموضوعها: المجتمع المسيحى فى بلاد الشام عصر الحروب الصليبية، عام ١٩٧٦م.

٣ - دكتوراة فى الآداب من جامعة الزقازيق بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف وموضوعها: مدينة بيت المقدس فى العصر المملوكى، عام ١٩٨٤ .

الأعمال المنشورة:

١ - القدس فى العصر المملوكى، دار فكر للدراسات والبحوث، القاهرة، ١٩٨٦ .

٢ - الجوارى فى مجتمع مصر المملوكية، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨٨ .

٣ - الحياة الاقتصادية فى جدة فى عصر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٩١ .

٤ - الحياة الثقافية فى المدينة المنورة فى العصر المملوكى، القاهرة ١٩٩٤ .

٥ - العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين، القاهرة، ١٩٩٦ .

٦ - الأيوبيون والمماليك مع أ.د. قاسم عبده قاسم، القاهرة ١٩٩٦ .

٧ – المرأة المصرية والشامية عصر الحروب الصليبية، المجلس الأعلى للثقافة عام ٢٠٠٢ .

٨ – ترجمة كتاب موريس بيشوب، تاريخ أوربا فى العصور الوسطى، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٤ .

٩ – دراسات فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، دار العلم بالفيوم، ٢٠٠٥ .

١٠ – السلطان المنصور سيف الدين قلاوون، دار الفكر العربى، ٢٠٠٦ .

١١ – ترجمة كتاب مدينة بيت المقدس زمن الحروب الصليبية، لمؤلفه أدريان بوس، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠١٠ .

١٢ – ترجمة كتاب ديفيد آيالون: دراسات عن المماليك فى مصر والشام، ١٢٥٠ – ١٥١٧م، المجلس الأعلى للثقافة – تحت الطبع.

١٣ – دراسات حول القدس فى وثائق الحرم القدسى الشريف، دار الكتب المصرية، ٢٠١٣م.

ثانيًا- الأبحاث المنشورة، ومنها:

١ – محاولات مؤرخى العصور الوسطى اليهود قلب التاريخ، مجلة فكر للدراسات والبحوث، عام ١٩٨٥م.

٢ – الجاسوسية فى عصر سلاطين المماليك، مجلة فكر للدراسات والبحوث، العدد ١٠ لسنة ,١٩٨٦

٣ – الفناء الكبير والموت الأسود، دراسة مقارنة بين الشرق والغرب، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، المجلد ٣٨ لسنة ,١٩٨٦

٤ – التعليم فى القدس فى العصر المملوكى، مجلة اليقظة العربية، ١٩٨٧,

٥ – التبادل التجارى بين مصر وبلاد التكرور وانعكاسته على أحوال مصر الاقتصادية، كتاب العرب فى أفريقيا، القاهرة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧,

٦ – القاهرة فى عيون الرحالة الأوربيين فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، مجلة فكر للدراسات والبحوث، العدد ١٢، ١٩٨٨ .

٧ – دور الأسرى الأجانب فى المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، مجلة التاريخ والمستقبل، آداب المنيا، العدد٣، ١٩٨٨ .

٨ – أضواء جديدة على العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والفرنج فى بلاد الشام، مجلة الدارة، الرياض، ١٩٩٠ .

٩ – المقاومة الشعبية للغزوة الصليبية فى بلاد الشام، مجلة عصور التاريخية، العدد السادس، الجزء الثانى، ذو الحجة ١٤١١هـ/يوليو ١٩٩١م.

١٠ – الرعاية الصحية فى مكة المكرمة فى العصر المملوكى، المجلة المصرية التاريخية، المجلد ٣٨، عام ١٩٩١م.

١١ – التراجمة عصر سلاطين المماليك، مجلة التربية بقطر، العدد ١٠٢، سبتمبر ١٩٩٢ .

١٢ – الهجرات المغولية إلى مصر وآثارها الاجتماعية والثقافية عصر سلاطين المماليك مجلة المؤرخ المصرى، آداب القاهرة، العدد ١٥، يوليو ١٩٩٥م.

١٣ – الرعاية الاجتماعية فى مكة المكرمة عصر سلاطين المماليك – مجلة التاريخ والمستقبل، آداب المنيا، ١٩٩٦م.

ثالثًا- الإشراف على الرسائل العلمية:

الإشراف على العديد من الرسائل فى كلية الآداب بالدمام بالمملكة العربية السعودية فى تاريخ المماليك، والحروب الصليبية فى الفترة من ١٩٨٨ - ١٩٩٦م. والمشاركة فى مناقشة العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه فى التاريخ الإسلامى والوسيط.

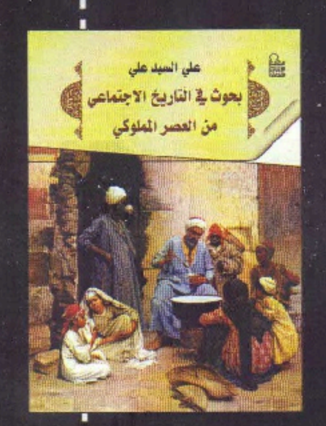
والإشراف على رسائل الماجستير فى كلية الآداب بجامعة الفيوم فى الفترة من ٢٠٠٩ وحتى الآن/ وبخاصة رسالة الطالب/ محمد جمعة وموضوعها "المستشفيات فى القدس وعكا زمن الحروب الصليبية"، والطالبة/ فاطمة عبد ربه وموضوعها "الأسواق فى عكا زمن الحروب الصليبية" ومناقشة بعض رسائل الماجستير والدكتوراه فى آداب الزقازيق وآداب المنيا فى الفترة من ١٩٩٨ - ٢٠٠٨م.

رابعًا- نشاطات ثقافية أخرى:

المشاركة فى عديد من الندوات العلمية فى مصر وبعض الدول العربية الأخرى - والمقرر لسيمنار التاريخ الإسلامى والوسيط منذ عام ٢٠٠٤م وحتى الآن.

- عضو مجلس إدارة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية.
- مقرر سيمنار التاريخ الإسلامى والوسيط بها.
- عضو اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة.

المجلس الأعلى للثقافة



إن الحضارة العربية الإسلامية ـ على مر عصورها التاريخية عامة، وفي عصر سلاطين المماليك 648-923هـ/1250-1517م خاصة ـ حافلة بكثير من المعطيات الدالة على مدى ما وصل إليه أبناء هذه الحضارة من رقي وازدهار، والدارس لكتب التراث المملوكي تستوقفه كثير من الحقائق الدالة على هذا الرقي في شتى ميادين النظم الإدارية، والحربية، والاقتصادية؛ بل وفي المجالات الثقافية والاجتماعية.

ففي العصر المملوكي بشقَّيه، شهدت المجتمعات في مصر بوجه عام، وفي مجتمعات بلاد الشام والحجاز بوجه خاص، ازدهار فنون اللهو والطرب والغناء، نتيجة للرواج الاقتصادي الذي عمَّ تلك البلاد معظم ذلك العصر، فضلًا عن أن هذا العصر أثمر فنًّا جديدًا لم تعرفه الثقافة العربية الإسلامية من قبل، ألا وهو فن النقد الاجتماعي والدعوة إلى الإصلاح الديني والاقتصادي.

تصميم الغلاف: عبدالحكيم صالح